عهد الصبا في البادية

تأليف
اسحاق الدقس
ترجمة
عزيز ضياء

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

كاتب هذه القصة

كاتب هذه القصة ، شاب اسمه : (إسحاق الدقس) من مواطني الأردن الشقيق ، ومن مواليد عام ١٩٣٨ ، وقد التحق بادىء ذى بدء بمدرسة ابتدائية ، ثم عندما بلغ السابعة عشرة من العمر كان قد أتم جانبا من دراسته في (المدرسة الزراعية) التي تخرج منها بشهادة او ديبلوم في الزراعة . وبعد ان قضى ثلاث سنوات مدرسا في إحدى المدارس الابتدائية في الرياض بالمملكة العربية السعودية التحق بخدمات التوسع الزراعي في المملكة ، حيث اتيحت له فرصة الانتساب الى القسم الأدبي بكلية الآداب في جامعة الرياض ، وفي سنة ١٩٦٥ أتم دراسته وحمل مؤهل البكالوريوس في اللغة الانجليزية ، كما كان قد فرغ من كتابة هذه القصة بالانجليزية قبل تخرجه من جامعة الرياض باربعة اشهر .

المترجم بقلمه

عزيز ضياء بن زاهد

ولد في زقاق القفل من محلة الساحة بالمدينة المنورة في ١٢ ربيع الاول عام ١٣٣٢ هـ . الموافق ٢٢ يناير عام ١٩١٤م تلقى تعليمه الاولي في كتاب الشيخ محمد بن سالم رحمه الله ، ثم في المدرسة الراقية الهاشمية . ومن اساتذته الذين يدين لهم بالفضل فيها : الاستاذ السيد حسين طه ، والسيد محمد صقر ، والسيد احمد صقر ، والسيد ماجد عشقي رحمهم الله واسكنهم فسيح جناته .

في عام ١٣٥٥ هـ . صدر إعلان في جريدة ام القرى . عن افتتاح (مدرسة الصحة) ظنها أهله مدرسة للطب فالتحق بها ليكتشف مع غيره ممن زاملوه من المدينة المنورة ، انها (مدرسة تمريض) ، فاستطاع ان يهرب منها بعد سنة من التحاقه بها . اختفى فترة من الزمن في بيت وكيله في محلة الشامية بمكة ، كان يسمع خلالها صوت المنادي يرتفع في الشامية . وفي غيرها من محلات مكة ، وهو يقرا بيانا عن اسمه وعمره وملابسه . ويطلب ممن يراه القاء القبض عليه وتسليمه لمديرية الصحة العامة في أجياد . فظل مختفيا الى ان اتيح له السفر بعد الحج الى المدينة المنورة .

بعد مضي سنة تقريبا . اعلنت مديرية الصحة العامة عن وظيفة (مفتش اوراق) فسافر الى مكة وتقدم لهذه الوظيفة . التي عقدوا للمتقدمين لها اختبارا . كان هو الناجح الاول فيه . فتم تعيينه في الوظيفة . كما تمت تسوية مسألة هربه من مدرسة التمريض مكافأة لنجاحه .

اثناء عمله مقيدا للأوراق في مديرية الصحة العامة تمرن على الكتابة على الآلة الكاتبة ، وبلغت سرعته أكثر من ٥٠ كلمة في الدقيقة الواحدة .. دخل مسابقة للكتابة على الآلة الكاتبة اقامتها مديرية الصحة العامة وحضرها نائب جلالة الملك سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود . وفاز بالدرجة الأولى في المسابقة فكافأه سمو الأمير بثلاثة جنيهات ، وساعة (زينيت) وعجلة (بسكليته) .

لا يذكر كيف ولماذا استقال من مديرية الصحة العامة ليتقدم الى وظيفة (مقيد أوراق) في قلم مدير الامن العام ، ونجح في المسابقة ، وتم تعيينه في الوظيفة الجديدة ، لينتقل منها بعد سنتين الى وظيفة (كاتب ضبط) في شرطة المدينة المنورة ، ثم نقل الى مكة ، حيث عين (مفوضا ثالثا) بعد دورة تدريب عسكرية قصيرة ، وبهذه الرتبة عين رئيسا للمنطقة الثالثة بمكة ، ثم رقي الى رتبة (مفوض ثان) .

بافتتاح مدرسة لتحضير البعثات في مكة المكرمة ، صمم على الالتحاق بها فاستقال من وظيفته في الشرطة . ولكن خطر له انه يستطيع ان يدرس المرحلة الثانوية كلها (وهي اربع سنوات) في سنة واحدة . وبهذه الفكرة سافر الى القاهرة ، والتحق بمدرسة الخديوي اسماعيل وفي الاختبار رسب في اللغة الأنجليزية والكيمياء وفي اختبار الملحق ، رسب مرة اخرى في الكيمياء . وبهذا انقطع امله في الحصول على شهادة البكالوريا في سنة واحدةمن مصر . ولذلك سافر الى لبنان حيث التحق بالكلية الأمريكية في بيروت وكان من زملائه فيها الأستاذ عبدالله عمر بلخير والأستاذ فريد بصراوي ، والأستاذ احمد عبد الجبار .

وبنشوب الحرب العالمية الثانية اضطر الى العودة الى المملكة ، حيث اعيد تعيينه في الشرطة ، ولكنه استقال مرة اخرى ليلتحق بمعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية ... وعجز عن الأنفاق على نفسه وعلى اسرته فانقطع عن الدراسة في السنة الثانية والنهائية من هذا المعهد . وعاد الى المملكة ، ليعين في الشرطة رئيسا لقسم التنفيذ ، ثم عندما تأسست اول وزارة للدفاع ، بوزارة المرحوم سمو الأمير منصور بن عبد العزيز ، التحق بها مساعدا للسكرتير الأول كما كان يسمى مدير عام الوزارة في ذلك الحين . ثم عين بأمر من الوزير ،

مديرا عاما للخطوط الجوية العربية السعودية (وكان عدد طائراتها طائرتا داكوتا بالإضافة الى الطائرة الملكية) ونتيجة لخلاف بينه وبين مسئول آخر كان يعمل معه ، فصل من هذه الوظيفة ؛ فسافر الى القاهرة.وبعد أن أقام فيها سنتين تقريبا ، التحق بوظيفة (مذيع مترجم) في اذاعات الهند في دلهي . وبعد ان قضى سنتين تقريبا ، استدعته الحكومة برقيا ليشغل وظيفة مدير مكتب مراقبة الأجانب بمكة ، حيث كلف بوضع نظام للاقامة ، فتقدم بمشروعه الى الجهات المختصة ، التي احالته الى مجلس الشورى ، حيث تمت دراسته ومناقشته ، ثم رفع الى جلالة الملك عبد العزيز فوافق عليه ، وهو النظام الذي لا يزال متبعا حتى اليوم .

وقبل مضي سنتين من عمله مديرا لمكتب مراقبة الأجانب ، صدر الأمر بتعيينه (وكيلا للأمن العام للمباحث والجوازات والجنسية) ؛ حيث كلف باعداد مشروع لتعديل نظام الجنسية ، تمت دراسته من قبل لجنة من مجلس الشورى ، وديوان النائب العام لجلالة الملك ، ووزارة الخارجية ، ثم رفع الى المراجع العليا ، وتمت الموافقة عليه ، وهو النظام المتبع حتى الآن .

اما عن نشاطه الأدبي ، فقد عشق الحرف ، منذ كان مقيدا للأوراق في مديرية الصحة العامة ، وكان من اوائل من كتبوا في جريدة صوت الحجاز عند صدورها لأول مرة . ثم انقطع للكتابة والتأليف والترجمة . وكتب للاذاعة ، كمعلق سياسي يومي طيلة اكثر من عشر سنوات ، وكتب للصحافة منذ ظهرت صوت الحجاز ، وحتى اليوم ...

وكتب للتيليفيزيون عددا من البرامج والمسلسلات ، وانتجها . وهو أول من أصدر جريدة عكاظ أسبوعية بأمتياز الاستاذ احمد عبد الغفور عطار ، وقد رئس تحرير جريدة المدينة المنورة لمدة اربعين يوما حيث الغى عطلتها الاسبوعية لتصدر في كل يوم من ايام الاسبوع دون انقطاع .. ثم اقصى عن رئاسة تحريرها .

وهو اليوم عضو في المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنـون والآدب .



المقدمة

كانت أول مرة رأيت فيها كتاب هذه القصة ، ايام كانت ابنتي ، دلال عزيز ضياء ، تدرس في السنة النهائية من مرحلة الباكالوريوس في جامعة الرياض ... ولقد شدني عنوانه: **(A Bedouin Boyhood)** فاستعرته من ابنتي ليلة ، مررت خلالها ببعض فصوله ، وجال بذهني ان القصة مما يصلح ان ينقل الى اللغة العربية ، ليتاح للشباب من قرائها ان يعيشوا هذه الحياة التي يبدع الكاتب في تصويرها ابداعا عفويا جماله في بساطته ونبرة الصدق فيه ، لأنه قد عاش هذه الحياة منذ كان طفلا والى ان اكمل مرحلة من التعليم اتيح له بعدها ان يتوظف متعاقدا في وزارة الزراعة بالملكة ، وان ينتسب الى جامعة الرياض ، وان يتخرج منها بمؤهل الباكالوريوس في الآداب من قسم اللغة الانجليزية .

ولقد اختفى الكتاب عن عيني بعد تلك الليلة ، بل واختفى عن دلال ايضا ، بين الكثير الذي يحدث ان يختفي مدة تطول او تقصر . ولقد ظل مختفيا اكثر من عام ، مما احرجني مع مكتبة جامعة الرياض التي طالبتني او طالبت ابنتي باعادته . وحين ظهر فجأة في ذات يوم ، على غير انتظار ، وعاودتني فكرة نقله الى العربية كان امل مكتبة الجامعة — فيما احسب — قد انقطع في احتمال استعادته ، فأخذت اعكف على نقله اياما تتصل وتتلاحق احيانا ، وتتقطع وتتباعد احيانا الى ان فرغت منه ، واضفته الى المجموعة الكبيرة من الأعمال التي سبق ان نقلتها الى العربية ، مرجحا — كعادتي بالنسبة لكل ما كتبت — انهالن ترى النور ، ولن تصل الى ايدي القراء ، الا اذا أذن الله واراد ان يوسع في الرزق ، فأغدو في مستوى القدرة على الطبع والنشر ، دون ان اقتطع التكاليف من لقمة العيش وقوت اليوم .

ولكن الأبن محمد سعيد طيب ، مدير عام مؤسسة تهامة ، ذكر في حديث عابر معي عن انشطة المؤسسة التي يديرها ، انها تعتزم ان تبدأ

نشاطا في النشر والتوزيع ... وقد ألفت من جانبي ان افسر مثل هذا الكلام على انه واحد آخر من احلام اليقظة التي كثيرا ما عشتها وعاشها مثلي كثيرون . ولكن ، ــ مع ذلك ــ اقدمت على عرض استعدادي لتزويد المؤسسة بمجموعة مما نقلته الى العربية ومما كتبته والفته شخصيا ... ولا أخفي اني ــ مع هذا العرض ــ كنت اتخابث ، فتساءلت عما يمكن ان يتحقق لى من العائد ربحا او ثمنا لما تقوم المؤسسة بنشره وتوزيعه ، فاذا بي اسمع من محمد سعيد ، تفاصيل عن تنظيم متكامل يحدد ليس فقط استحقاق المؤلف او الكاتب ، وانما ايضا مختلف مراحل عمليات النشر والتوزيع وما تستلزمه من منشآت ومراكز للتوزيع على مستوى العالم العربي من الخليج الى المحيط ... فوجدتني اردد بيني وبين نفسي : (الله الله عالجد .. والجد ...) .

ولست ادري ما الذي جعل مؤسسة تهامة تقدم هذا الكتاب على غيره مما زودتها به من الكتب ، فقد كنت أطمع ان يتقدم (سومرست موم) او (رابندرانات تاغور) أو (صفحات من ادب الأعتراف) وغيره ... وليس في العقد بيني وبين المؤسسة ما يسمح بالأعتراض ، ولكن لى ان اظن ان تهامة تتحسس نبض السوق ، وتتوخى احتمالات الرواج ، ويرجح عندها ان شبابنا في حواضر المملكة خليق بأن يقرأ شيئا عن هذه البوادي التي لم يعرف عنها شيئا قط ... ان يقرأ عن الحياة في بيوت الشعر ، والخيام ، وعن متع هذه الحياة بالنسبة للرعي ، وهو يتنقل مع شويهاته وابقاره من مضارب الخيام الى التلال ، مع مشرق الشمس ، حيث الرمل والحصى لا يزال يحتفظ بابترادە طيلة الليل ، وحيث الندى لا يزال في عناقه الملهوف مع الحشائش والأعشاب ، وحيث اسراب الطير تستقبل النهار باغاريدها وافراحها . وحيث ظلال التلال والشجيرات الصغيرة المتناثرة على المنحدرات ، تمتد عميقة ، على الرمال وكأنها تنعم بالاستغراق في حلم جميل .

والبادية التي يصورها الكاتب ، هي في الواقع من بوادي فلسطين والأردن ، ولكن لا فرق بينها وبين بوادي المملكة في الشمال ، ليس فقط في المرائي والمشاهد ، وانما ايضا في حياة المجتمع القبلي ، وما يمتاز به من تمسك بالتقاليد والأعراف المتوارثة ، من الشهامة والكرم ، والنجدة ، والتعاطف ، والعفاف والمروءة ، مع الصبر والجلد في مواجهة الأحداث ، والمتغيرات من الظروف والاحوال . والسبب على الأرجح هو وحدة الأعراق والدماء واللغة ، الى جانب قلة وجوه الأختلاف في المناخ بين البادية في شمال المملكة ، والبادية في الأردن وفلسطين ، اذ لو استثنينا قلة الأمطار عندنا

واعتدال نسبتها عندهم ــ وفي فصل الشتاء على الأخص ــ لما وجدنا فروقا ذات بال في مناخ المنطقتين . وقد لا ينطبق هذا على حياة البادية في سوريا والعراق ومصر ، حيث للأنهار الكبيرة في هذه البلدان تاثيرها في تغيير اساليب العيش من جهة ، ومفهوم العلاقات الأجتماعية من جهة اخرى .

وحاجة شباب الحواضر والمدن عندنا الى الألمام بحياة البادية ، ومعرفة اساليب العيش بين سكانها وما لايزال يحكم العلاقات بين افراد مجتمعها من الأعراف والتقاليد والعادات ، تستلزم ــ فيما ارى ــ ان تواجهها جهات الأختصاص فتوليها قدرا من العناية والأهتمام ، بأن تعد برامج مدروسة تستهدف استنبات نوع من العلاقة الحميمة بين ابناء المدن ، وابناء البوادي ، سواء في قلب الصحراء وواحاتها او في الجبال ووديانها ، لأن مفهوم الوطن كأرض سيكون اكثر تكاملا بهذه العلاقة التي لا بد ان تثمر تأصيلا للأنتماء وترسيخا للتعلق بالأرض واحساسا بحنان امومتها ودفء حضنها وعطر ترابها . ولعل ما اثر عن حرص اكابر الرجال في ماضينا على ارسال الذكور من اطفالهم الى البادية فترة من سنوات الطفولة،كان لرغبتهم في غرس مشاعر العراقة والأصالة في نفوس ابنائهم،وهي المشاعر التي تمدهم عندما يشبون عن الطوق ويدخلون معترك الحياة بخصائص القيادة ، وحوافز التطلع والطموح .

على ان اعجابي بحياة البادية الى الحد الذي جعلني انقل هذا الكتاب الى العربية ، لا ينبغي ان يفسر بأني راض عن بقاء حياة البدو على ما هي عليه منذ مئات السنين من تخلف وجهل الى شظف في العيش وضيق في مجالات الارتزاق بحيث لا تتعدى تربية الماشية والأنعام ، والتنقل وراء الكلأ في المفاوز والقفار . اعتقد أنه قد آن لنا في المملكة العربية السعودية ان نصنع شيئا مدروسا يقضي على التخلف والجهل وشظف العيش في حياة البدو ، فنفتح لهم آفاق الحياة الرغدة ومجالاتها الواسعة التي ينعم بها ابناء المدن . والقضاء على التخلف والجهل لا يعني بالضرورة تهجير البدو الى الحواضر والمدن ، أو تفريغ مواطنهم ، اذ ليس ما يمنع ان تتطور حياتهم على ارض تتوفر فيها المياه محلاة ومسحوبة من البحر او مستنبعة من الأعماق وان يسكنوا المباني المسقوفة بدلا من بيوت الشعر والخيام ، وان ينعموا بضوء الكهرباء وانابيب الوقود ، وان يعيشوا كل عطاء الحضارة الذي يتمتع به ابناء المدن ، والنماذج من حياة أمثالهم قائمة في اكثر البلدان المتطورة ، حيث انعدمت تقريبا الفوارق بين حياة ابناء المدن وابناء الأرياف .

وكاتب «عهد الصبا في البادية» نموذج للبدوي الذي تعلم . وبلغ من التعليم الحد الذي مكنه من ان يكتب هذا الكتاب باللغة الانجليزية . وان يفرغ من كتابته قبيل تخرجه بمؤهل البكالوريوس من جامعة الرياض ومع انه قد عاش — ولا يزال — حياة المدن في الاردن وفي المملكة . فانه يستطيب حياة البادية وهو شديد الحنين اليها . ولعله يرحب بان يعود اليها لوأتيح له ذلك في يوم ما

ولكن يبدو انه لا سبيل لعودته الى وادي الديسي الذي عاش طفولته وصباه فيه . لان اسرائيل قد اجتاحته واحتلته فيما احتلت من فلسطين . ونحن نرى الكاتب يذكر بحسرة هادئة وحزن ساهد وأسى جريح متحسر . هذا الوادي بعد نزوح القبيلة عنه . او بعد ان احتلته وطردت عنه القبيلة دولة العدو . وقد نتوقع ان يلتهب اسلوب الكاتب . وان يحتدم فتتدفق الالفاظ الحانقة الثائرة . او الداعية الى الثار والثورة . كما درج على ذلك كتاب الارض المحتلة وشعراؤها . او حتى كل كاتب يعالج موضوع فلسطين وان لم يكن فلسطينيا .. ولكن الكاتب يتجنب ما نتوقع في كثير من اللباقة والهدوء فلا نجد في ما كتب عبارة او جملة ثائرة . مكتفيا بهذه المتاعب الآسية التي يستثيرها في نفسك بعفوية ذكره للواقع . ويترك لك انت ان تعيش المأساة التي يعيشها هو مع كل الذين اقتلعوا من اراضيهم . وحرموا من مواطنهم سواء في البادية او في المدن . ولعل عبارة الاهداء التي يقدمها بين ايدي قرائه على بساطتها البالغة تقول لنا . ان كل حرف في الكتاب دمعة عين ذرفها الكاتب حزنا على تلك الارض التي اغتصبها وشرد اهلها العدو فلم يبق له منها الا الذكريات :

(الى كل ابناء قومي ... الذين طردوا من ارضهم)

وانا اهدي هذه الدموع . الى القارىء العربي . لا ليذرف مثلها . ولا ليحسعد زفرات الاسى والحزن على الواقع الاليم ، وانما ليذكر ان الارض المغتصبة في فلسطين . سوف تظل تنتظر عودة اهلها . حتى ولو بعد مئة عام ... والرحم التي وضعت صلاح الدين . لن تعقم .. ولن تعجز عن ان تلد امثاله من الابطال في المستقبل القريب او البعيد .
ليذكر انها سوف تظل تنتظر هؤلاء الابطال

جدة ٣٠ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ
الموافق ١٧ مارس ١٩٨٠م

عزيز ضياء

عهد الصبا

في البادية

« راعي البقر الصّغير »

لم تكن قبيلتنا وانا ارعى الغنم فوق منحدرات وادى الحيسى في حاجة الى التنقل بين مكان وآخر ، فالطقس في ذلك الوادي كان ملائما والارض طيبة . وقد اعتاد شيوخ القبيلة ان يفخروا باستقرارهم في ذلك المكان دون غيرهم ، لانه كفيل بسد احتياجاتهم وضمان معيشتهم هم وحيواناتهم ، ولم يكن افراد القبيلة على صلة بالعالم الخارجي ، اللهم الا في يوم الخميس من كل اسبوع ، اذ يذهب الرجال والنساء الى القرية المجاورة ليتسوقوا(١). وكانوا يبدأون تلك الرحلة في الصباح المبكر ممتطين جيادهم او جمالهم .

لم يكن يوجد في انحاء الوادي سوى مدرسة واحدة فقط ذات اربعة فصول ، وقد امضيت فيها سنوات آربعا لم انقطع خلالها عن ممارسة مسئولياتي العائلية ، فقد ظللت ارعى اغنام اسرتي في اوقات فراغي من الدراسة .

هكذا كانت احوال قبيلتنا عندما ايقظتني امى ذات صباح في فصل الربيع لاخرج الى التلال بالاغنام ، وما ان تناولت ما اعدته لى من افطار حتى اتجهت نحو القطيع ملوحا بردائي للاغنام كى تتبعنى ، وبدأت اغادر مضارب الخيام بين ثغاء الغنم وخوار البقر وصياح الرعاة الآخرين من الاسر الاخرى وهم ينادون بعضهم بعضا . وسرت مع اغنامي فوق الحشائش المغطاة بقطرات الندى . ونحن نوقظ بوقع اقدامنا الطيور الصغيرة التي كانت تنطلق عند اقترابنا منها محلقة في الجو المشبع بالضباب وهى تغرد وتزقزق تعبيرا عن سعادتها باستقبال يوم جديد . وكان قرص الشمس قد برز لتوه من خلف الافق مرسلا خيوطه الذهبية الى قمم التلال

---

(١) التسوق يعني البيع والشراء وليس الشراء فقط .

لا ادرى لماذا كنا قد اعتدنا كلما خرجنا في ساعة الفجر بالاغنام ان نتجه دائما صوب الشرق ؟ ولست اجد الآن تعليلا لذلك سوى اعتقاد ساذج كان يساورنا بان السير نحو الشمس والاقتراب منها ، يساعدنا على الحصول على اكبر قسط من الدفء

ونظرت خلفى فرأيت ابن عمى «شهادى» ، الصبى الصغير الذي يناهزني تقريبا في السن ، والبالغ من العمر اثنى عشر عاما ، وكان يقود قطيعه من الابقار ، ممسكا بعصاه الغليظة في يده ، وقد توقعت ان يتبعني نحو التلال الشرقية كالمعتاد اذ اننا لم نكن نفترق عن بعضنا اثناء الرعى طوال النهار ، ولكنه في ذلك الصباح لوح لي بيده من بعيد ، ثم انحرف متجها نحو التلال الجنوبية ، مع اننا كنا نتجنب تلك التلال ونخافها بعدما قيل لنا من ان معركة حربية كانت قد نشبت فيها ، وان اشباح الجند والقتلى اعتادت ان تظهر هناك اثناء الليل .

ومضيت مع الاغنام في طريقى حتى حططت رحالى اخيرا عند منحدر احد التلال المليئة بالعشب ، وجلست ارقب افراد القطيع وهى تأكل ، وانصت الى راع اخر عند التل المقابل وهو يلعب على مزماره ، وكنت اشعر بالسعادة اذ ارى اغنامى تلتهم غذاءها بشهية ونهم ، بينما طيور ابى الفصاد تطير من حولها وتقفز هنا وهناك بين ارجلها وتحت ظلالها .

وعندما بدأت الشمس تميل نحو الغرب ، اخذت الاغنام تنظر نحوى كأنما هى تذكرني بان ميعاد العودة قد ازف ، فنهضت سائرا امام القطيع ، والاغنام تتبعني ولكن في بطء وتلكؤ ، تأكل حينا ، او تتكاسل حينا اخر . ولكن ما ان غربت الشمس وراء الافق حتى تجمعت بغريزتها مع بعضها وبدأت تحث السير في انتظام ، وبرزت الشاة التي تحمل ناقوسا صغيرا في عنقها فتقدمت القطيع ، وراح الجميع يتبعونها .

ومررت اثناء عودتى برعاة البقر ، فقد كان عليهم ان يمكثوا حوالى ساعتين بعد الغروب ثم يعودوا . ذلك ان من عادة الابقار ان تقبل على الغذاء بوفرة وشهية عند دخول المساء . وكانت تلك الفترة .. فترة ساعتي ما بعد الغروب ، هى الوقت الذي ينتهزه كل عاشق بين الرعاة لمقابلة محبوبته الراعية بعيدا عن الانظار ، وتحت جنح الظلام ، فتقاليد القبيلة تسمح بان يتولى رعى الاغنام والابقار أشخاص من الجنسين .

ورأيت عندما اشرفت على مضارب الخيام الدخان يتصاعد في ضوء الغسق من كل خيمة . فهذا هو الوقت الذي تقوم فيه كل ام او زوجة باعداد الوجبة الرئيسية لافراد الاسرة الذين يتعذر اجتماع شملهم طوال اليوم ولا يتم الا بعد ان يحل المساء .

كان السكون عندما وصلت باغنامي مخيما على المكان . ولكنه لم يستمر طويلا ، فقد اخذت قطعان الاغنام تفد بعد قليل آتية من التلال ، وما لبث ثغاؤها أن ملأ الجو . واندفعت الاناث نحو صغارها التي ظلت في انتظارها طوال النهار : لان سنها لا يسمح بخروجها الى المرعى . ومن المناظر التي كانت تسرني وتهز مشاعرى ، منظر الحمل الصغير عندما يعدو نحو احدى الاناث فيدفن وجهه في ضرعها ، ثم لا يلبث ان يكتشف بحاسة الشم انها ليست امه فيتركها في الحال ليقفز هنا وهناك بين القطيع حتى يعثر في النهاية على امه الحقيقية .

واقبل اخى الصغير يعدو نحوى بين الحملان ليسألني ان كنت قد احضرت معى حملا حديث الولادة وضعته امه اثناء النهار بالمرعى ، كالذي كنت احضرت منذ ايام ، فاجبته انني لم احضر اليوم شيئا .

وبدأت الامهات والزوجات والفتيات في حلب الاغنام ، واخذ الآباء يلقون كعادتهم نظرة على حيواناتهم بعد عودتها ، ويتفحصونها في اهتمام . وعندما وصلت الابقار تم ايضا حلبها بدورها . وبعد الانتهاء من هذه الاعمال جلست في خيمتنا بين افراد اسرتي ، وتناولنا معا طعام العشاء . وانصرف ابى بعد ذلك متجها الى خيمة القبيلة ، حيث يجتمع الرجال في اوقات فراغهم لمناقشة شئونهم وبحث مشاكلهم . فان لم يكن هناك ما يناقش ، فانهم يمضون الوقت في الاستماع الى شاعر القبيلة وهو يروى على انغام الربابة قصصا مثيرة عن البطولة والفروسية في العهود الماضية . وعلى الرغم من تحذير ابي ، فانني لم اكن اذهب في اغلب الليالى الى فراشي قبل ان استمع الى نهاية القصة التي يرويها الشاعر . وما زلت اذكر تلك الليلة التي عثر فيها أبي علي نائما في احد اركان خيمة القبيلة .

لحقت بأبى بعد قليل في خيمة القبيلة . وبينما الشاعر ينشد على انغام ربابته . صاحت زوجـــة عمى من المكان المخصص في الخيمة للنســاء قائلة لزوجها :

ــ اتسمح لنفسك يا طالب بأن تستمتع بالربابة والغناء وقد فقدنا ولدنا

ان شهادى لم يعد حتى الآن ..

ولم تسمح كبرياء عمى له بان يبدى قلقا او انزعاجا وظل وهو جامد الوجه جالسا فترة من الوقت ، ثم نهض مغادرا الخيمة . وقال احد الشيوخ وهو جالس بجوار المدفأة :

– من العار على شبان القبيلة ان يظلوا جالسين هكذا في الوقت الذي لم يعد فيه حتى الآن غلام صغير من افراد قبيلتهم .

ولم ألق في اول الامر بالا الى ما يدور حولى لشدة انهماكي في متابعة مصير البطل الذي يروى الشاعر قصته . ولكنني بعد ان عدت الى نفسي ، تلفت حولى فلم اجد احدا غيرى ومعى بعض الصبية والاطفال .

لقد ذهب الجميع للبحث عن شهادى ..

ومضى وقت غير قصير عاد بعده بعض من ذهبوا للبحث عن شهادى دون ان يجدوه وسمعت بعضهم يسأل قائلا :

– هل عثرتم على الصبى ؟

وكان الجواب ؟

– كلا .. لم نعثر على شيء .

كنت الوحيد الذي يعرف اين ذهب شهادى ، ولكنني لم اصرح لهم بشيء خوفا من ان يؤنبوني لانني لم اذكر لهم اين هو منذ اول الامر . وازددت خوفا ، ولكنني على الرغم من ذلك ذكرت ما اعرفه لاخى الاكبر الذي اعلن ما قلته له على الجميع وامرني بان اتسلق الجواد من خلفه لادله على الطريق الذي سلكه شهادى .

ومضينا ومعنا جمع غفير من الرجال ، وبعض النسوة ، وظللت اثناء الطريق اتخيل شهادى وهو في هذا الوقت من الليل بين التلال الجهنمية ، وتهاجمه اشباح الجنود القتلى ، وكان القلق قد استبد الآن بعمى . وقد عرفت ذلك لآن الجميع كانوا اثناء الطريق يتحدثون ويتساءلون .. اما هو فقد ظل صامتا صمتا مطبقا .

وعندما ادركنا المكان الذي قيل لنا ان المعركة قد نشبت به ، اطلق اخى العنان لجواده متوغلا فيه ، وما لبث الجواد ان توقف فجأة مرهفا اذنيه . وصاح اخى قائلا :

– ها هى الابقار

ثم راح ينادى باعلى صوته :
ـ شهادى : شهادى :
ولكن احدا لم يجب .

وما ان اقتربنا قليلا حتى ميزنا شيئا مكوما على الارض تحيط به الابقار .. وكأنما هى تحرسه . وترجل اخى من فوق الجواد ، اندفع مسرعا نحو ذلك الشيء .. وراح يوقظ شهادى من نومه : ووقف الرجال والنساء وهم يحيطون بنا صامتين وقد عقدت الدهشة السنتهم . فقد كان المفروض جريا على عادة الابقار ، ان تترك الصبى عندما يحل ميعاد رجوعها ، وتعود كما يحدث دائما بمفردها الى حظائرها . ولكنها في تلك الليلة آثرت ان تبقى .. وان تحيط بالراعى الصغير ، حتى يتم العثور عليه :

وعدنا ادراجنا ونحن نسير وراء الابقار التي كانت تعرف طريقها جيدا نحو مضارب الخيام .

وفي صباح اليوم التالى لاحظت عندما مر بى شهادى انه قد اصبح اكثر تعلقا ببقراته . ولم يعد يحمل لها تلك العصا الغليظة التي اعتاد حملها من قبل .

هذه صورة من الحياة التي كنا نعيشها وانا صبى صغير في البادية .. حياة تنتهى متاعبها بحلول الليل ، وتتحدد تطلعاتها وامالها ، بشروق الشمس .. حياة بسيطة ، ولكنها على الرغم من بساطتها جميلة ومسلية .. ومتجددة الاحداث .

اما الآن .. فما ابعدنا عن تلك الحياة .

تسعة عشر عاما قد مضت على تلك الاحداث .. ولو ان الابقار رأت شهادى اليوم لخافت منه ، فقد اصبح عاملا ماهرا يدير الات تفتيت الصخور وصناعة الاسمنت .. كثير الصخب ملطخ الوجه والشعر والثياب دائما بمسحوق ابيض بطبيعة عمله .. كأنما هو عفريت من الجان : اما انا .. فقد اصبحت بدوري ابعد ما اكون عن حياة الصبا في البادية .. صرت رجلا ذا نظارات فوق عينيه .. يرتدى سترة زرقاء انيقة . ويجلس في الوزارة الى مكتب مهيب : وعما قريب جدا يحل دوري في الترقية .. انتقل الى مكتب اكبر واكثر مهابة ذى ادراج كثيرة للاوراق الهامة لكنني مع ذلك بعيد كل البعد عن موطني واهلى وعشيرتي .. تنتابني بين حين واخرتلك الاعراض التي يسمونها نوبات الحنين الى الوطن .

ابن رزق .. اللص

هناك سهل على بعد بضعة اميال من وادى الحيسى في الجهة الغربية ، اعتادت قبيلتنا ان تنتقل اليه في فصل الشتاء ، تفاديا للرياح الجنوبية الغربية الباردة التي تهب بعنف في هذا الوقت من السنة . والسهل المشار اليه محاط بتلال من جهات ثلاث .. الشمال والجنوب والغرب ، مما يجعله في مأمن من العواصف الشديدة والرياح العنيفة . وفي اواخر الخريف من العام الذي نحن بصدده : انتقلت القبيلة الى السهل المذكور واقامت فيه خيامها . وهى خيام جيدة من نوع خاص لا يسمح قماشها لمياه المطران تنفذ الى الداخل . ومن بين الاستعدادات التي اعتادت القبيلة اتخاذها لدى اقامتها في السهل المشار اليه توفير الحطب اللازم للتدفئة . لهذا كان المرء بعد ان تنصب الخيام يرى امام كل خيمة كومة كبيرة من هذا الحطب .

لم يكن امام افراد القبيلة بعد ما بذلوا من جهد في الانتقال ونصب الخيام سوى ايام قليلة يستريحون فيها ثم يحرثون بعدها الارض ، وينثرون البذور . وكان عليهم ان يبادروا الى ذلك قبل هطول الامطار . فقد اكتشف رجال القبيلة بسرور انها ستهطل مبكرا وبغزارة في هذا العام ، معتمدين في اكتشافهم هذا على زهرة من زهور الخريف تسمى (الهيتان) تنمو في مجاميع ذات لون ابيض او وردى . وهى زهرة يتخذون منها مقياسا لا يخطىء للتنبؤ باحوال المطر . فهى ان ظهرت مبكرا فمعنى ذلك ان الامطار ستسقط مبكرا وبغزارة . لهذا ولان تلك الزهرة كانت منتشرة في السهل هنا وهناك ، وقد نمت بوفرة على جانبي الطريق المؤدي الى وادى الحيسى . بل انها كانت تنمو ايضا بالقرب من الخيام وحولها .. فان شيوخ القبيلة قد قرروا ان يسرعوا بحرث الارض ونثر البذور وهم على ثقة تامة من انهم لا يكادون ينتهون من الزراعة حتى يهطل المطر بما فيه الكفاية

وجلس الرجال ذات ليلة في خيمة القبيلة يتحدثون حول مختلف امورهم . فمن قائل ان الطقس سيكون ملائما هذا العام ، ومن قائل ان هذا الجانب من السهل ينبغي حرثه للزراعة ، وذاك الجانب يجب ان يترك على ما هو عليه لكي ترعاه الابقار والاغنام . واستمر الحديث في شتى الموضوعات على هذا النحو حتى تدخل الحاج ابراهيم احد شيوخ القبيلة قائلا :

ـ اننا لانملك شيئا من انفسنا ولا ندري ما سوف تاتي به الايام . ولسوف تجدون ـ ان اراد الله ـ من الارض ما يكفى جمالكم لحرثها ، ومن المراعى ما يكفى ابقاركم واغنامكم لتقتات عليها .. فكفوا عن التحدث عما ليس لكم به علم ، وهيا يا زيادى .. شنف آذاننا بربابتك .. وقص علينا ما كان من شأن الملك نمر وزوجته الحسناء :

ولاقت الفكرة استحسانا من الجميع .. وكان زيادى على استعداد للعزف والغناء . فهو يعرف ان من بين النسوة الجالسات في الجزء المخصص في الخيمة للسيدات ، بعض الضيفات الحسناوات . فهذه اذن فرصته التي يبدى فيها مقدرته وبراعته . ولا ينبغي ان تفلت منه

ومضت الليلة على هذا النحو ، وانصرف بعض الحاضرين اثناء العزف ، ولكن اغلبهم ظل جالسا حتى انتهى زيادى من ملحمته ثم اخذوا ينصرفون . وخمدت النار في الحفرة المخصصة لاشعال حطب التدفئة .. ولم تمض دقائق حتى خلت الخيمة الا من كلب كان راقدا في احد الاركان ، وما ان رأى الخيمة خاوية من الناس حتى تقدم من حفرة النار الخامدة وتكور نائما فوق الرماد .

وكان سالم ، وهو احد شبان القبيلة ، قد غادر الخيمة الكبيرة بعد ابيه بقليل قاصدا خيمتهم ، وهى آخر خيمة في الجهة الشمالية ، ولم يكن يقيم بها الا ثلاثة افراد هو ، وابوه سلامة وهو رجل عجوز ، وامه نافلة ، اما اخوه الاكبر علي فانه كان قد تزوج منذ عهد قريب وتركهم ليعيش مستقلا في خيمة مع زوجته ولم تكن تبعد كثيرا عن خيمة ابيه . وكانت خيمتهم تنقسم الى ثلاثة اقسام : قسمان مخصصان لابيه وامه والقسم الثالث مخصص له . ينام فيه ليلا ، ويستقبل فيه اصدقاءه من شبان القبيلة فقط نهارا اما الشبان الغرباء . أصدقاء أكانوا ام غير اصدقاء ، فان عليهم ان يذهبوا الى الخيمة الكبيرة .. خيمة القبيلة . وكان يفصل حجرته عن الحجرتين الأخريين ما يشبه المائدة وهو لوح عريض من الخشب فوق اربعة قوائم ، وكانت الاسرة تضع فوق ذلك

اللوح ما لديها من اغطية ووسائد ، وألحفة محشوة بالصوف ، كما كانت الاسرة تضع في اسفله مجموعة من الاشياء غير المستعملة .. اواني قديمة .. وآلة طحن بن (محباش) لم تعد صالحة وكثيرا من العلب والصناديق الصغيرة .

كان الليل قد انتصف تقريبا عندما دخل سالم الخيمة ، وعندما وجد اباه قد نام اتجه بدوره الى فراشه الذي كانت امه قد أعدته له ، ورقد فوقه ، وما لبث ان استغرق في النوم ، ولكنه استيقظ منتفضا بعد قليل على صياح ابيه وهو يناديه قائلا في انفعال شديد :

– سالم : لص يا سالم : لص يا سالم :

وصاح سالم بعد ان نهض واقفا لا يدري ماذا يفعل .. وكان ذهنه مشوشا لاستيقاظه هكذا فجأة :

– اين هو يا ابي ؟

– في الخيمة .. اراه ما زال في الخيمة .

وسمع سالم في تلك اللحظة حركة تحت المائدة ، ثم راى قبل ان يفعل شيئا شيخا يمرق كالسهم من جانبه مغادرا الخيمة . وصاح الشاب وهو يعدو وراء اللص باقصى سرعة :

– ها هو : اتبعني يا ابي ..

وكانت القبيلة جميعها في تلك اللحظة قد استيقظت على اثر صيحات سلامة وولده ، واخذت الصرخات تدوى هنا وهناك وراح الجميع ما بين رجال ونساء وحتى الاطفال يجرون وراء اللص الذي كان سالم يلاحقه ، وقد اعتقدوا انه سيحاول ان يلوذ بالفرار من الجهة الشمالية التي تقع فيها الخيمة ، واستمروا مندفعين في طريقهم شمالا مع ان اللص كان قد انطلق غربا ، فلم يعد يتبعه احد سوى سالم وابيه .

كان اللص وهو يعدو غربا يقترب تدريجيا من اخدود يقع على بعد مئات الامتار من خيمة سلامة . ولما كان هذا رجلا مسنا ، فانه ظل متخلفا عن ولده لا يستطيع اللحاق به ، ولكنه اخذ يصيح به قائلا :

– الحق به ياسالم قبل ان يصل الى الاخدود .

غير ان هذا التحذير جاء متاخرا . فقد وصل اللص في تلك اللحظة الى الاخدود – الذي يبلغ حوالى اربع ياردات والقى بنفسه فيه . ومع ان سالم

كان يعرف ان الاخدود على هذا العمق الا انه لم يتردد وقفز بدوره فيه فسقط فوق اللص الذي لم يكن قد نهض من سقطته بعد . واخذ يكيل له الضربات في رأسه . وسمع أباه في تلك اللحظة يصيح :

ـ لا تصر على ملاحقته .. واتركه اذا اقتضى الامر ، فقد يكون مسلحا .

وجعله هذا التحذير الجديد يبادر الى شد ذراعي اللص الذي كان منكفئا على وجهه نحو ظهره ، ثم ارتكز فوقهما بركبتيه ، حتى يمنعه من استعمال اى سلاح قد يكون في حوزته . وفي هذا الوقت كان الشيخ المسن قد اوشك ان يصل الى الاخدود ، واصبح قريبا من حافته ، فسمع في الظلام صوت الكلمات التي يوجهها ابنه الى غريمه ، كما سمع صوت اللص وهو يستغيث طالبا الرحمة . فعاد يصيح قائلا :

ـ عشت ياسالم .. عشت يا بني : ولكن ابق على حذرك ولا تجعله يستعمل يديه . ثم اخذه الزهو ، وراح يصيح فجأة بصوت اكثر ارتفاعا :

ـ ايها الناس .. ايها الرجال : لقد قبض ابني على اللص

ولم تكن شيخوخته تسمح له بالنزول في الاخدود لعمقه ، فظل يجري هنا وهناك بالقرب من حافته وهو ينادي الناس الذين بدأوا يتجهون وقد هبط بعضهم الى الاخدود وظل البعض الآخر واقفا على حافته . وخرج سالم من الاخدود وهو يدفع غريمه امامه بعد ان نجح في تقييد يديه خلف ظهره بملحفة اللص نفسه . واخذ كل فرد من الواقفين يردد اسم (سالم) باعجاب شديد . وقال له ابوه :

ـ لقد أثبتّ انك ابني حقا .. واني بك لفخور :

وسيق اللص نحو مضارب الخيام . وادخلوه خيمة القبيلة التي قدر لها في تلك الليلة ان تعود مرة اخرى الى الحياة ، وان تشعل النار فيها من جديد ، وان تكتظ عن اخرها بافراد القبيلة حتى الاطفال . ووسط كل هذا الحشد ، جلس اللص ، وهو رجل في متوسط العمر اسمر الوجه ذو عينين صغيرتين وانف بارزة . وله شعر مجعد . وفي وجهه جرح صغير نشأ اما عن سقوطه في الاخدود او بسبب اظافر سالم عندما راح ينشبها في وجهه . ولم يكن ينظر نحو احد ، بل اكتفى بالنظر نحو الارض احيانا .. ونحو النيران المشتعلة احيانا اخرى . وكان واضحا انه يفكر في مصيره .. كما كان واضحا انه لا يعرف احدا من الحاضرين .. وان احدا منهم لا يعرفه . وما لبث

الرجل ان كف نهائيا عن التفكير .. : وحدث له ما يحدث عادة للمرء عندما يستولى عليه اليأس بعد ان يجد نفسه عاجزا عن الوصول الى حل او الخروج من مآزق . فقد ظل خافضا بصره ، ملازما الصمت التام .. وكأنه في معزل تام عن الحياة .. وعما يدور حوله من احداث . وكان سالم جالسا بجواره ، يرنو الناس الى وجهه تارة .. والى وجه اللص تارة اخرى . ولقد كان افراد القبيلة يعتقدون قبل هذه الليلة بما فيهم سلامة ان سالما ما زال فتى حديث السن لم يكتمل بعد . وانه غير جدير بالزواج من «صابحة» التي كان مغرما بها وهى فتاة من اجمل بنات القبيلة . ولكن هذا الاعتقاد قد تغير بطبيعة الحال ، بعد الذي حدث . وقد شعر سالم بذلك . بل لقد تأكد منه ، ولكنه بذل جهده في ان يخفى هذا الشعور ، وان يبدو هادئا ومتواضعا كأنه لم يفعل شيئا يستحق الاهتمام . غير انه ظل يسترق النظر على الرغم منه هنا وهناك لعله يلمح صابحة ، ولكنه لم يستطع رؤيتها بسبب الجمع الغفير المحيط به .

وسأل الحاج ابراهيم اللص قائلا :

– اية قبيلة تنتمى اليها يا رجل ؟

ولكن اللص لم يبد اهتماما .. وظل صامتا لا يتكلم .

وكرر الشيخ الوقور سؤاله عدة مرات وقد امسك الرجال الاخرون انفاسهم وهم في لهفة الى معرفة اسم القبيلة التي ينتمى اللص اليها .. ولكنه ظل على صمت وعدم اكتراث .

وتقدم احد شبان القبيلة منه قائلا :

– كف عن العناد : اننا قوم لا نجهل كيف نجعل اكثر الجمال شراسة وعنفا تستسلم لنا طائعة ، ونعرف كيف نجعل من اشد الخيول ضراوة وعنادا حملانا وديعة . فلا تجعلنا نجرب ذلك معك .. وتكلم :

واخيرا تحركت شفتا اللص قائلا :

– انا ابن رزق .

وما كاد الرجل ينطق بهذا الاسم . حتى ظهرت الدهشة على وجوه الجميع . فهم يعلمون ان ابن رزق هذا لص ذو صيت ذائع في شتى انحاء البادية ، وان احدا من افراد القبائل او من قصاصى الاثر لا يجهل اسمه لشدة خطورته ، وخفة حركته ، وبراعته في مهنته . وراح الجميع يرددون وهم في حيرة من امرهم كلمتى .. ابن رزق وكل منهم ينظر الى الاخر في دهشة

وعجب . واستولت على الصبية والاطفال في اول الامر رهبة شديدة وتراجعوا الى الخلف خائفين ، مع ان الرجل كان مقيد اليدين .

وحبذ معظم الحاضرين تسليمه الى الشرطة . وقال حسين شيخ قبيلتنا:

ــ سنحتفظ به حتى الصباح ، ثم يذهب طالب الى الفالوجة لتبليغ رجال الشرطة لكي يحضروا ويقودوه الى السجن .

وقال الحاج ابراهيم مخاطبا حسين :

ــ مهلا يا اخي .. انني اعرف شيخ قبيلة ابن رزق وبعض رجال القبيلة وزعمائها .. انهم اناس ذوو نخوة وكرم ، وهم لا يقرون هذا الرجل الشرير على ما يرتكب من جرائم ، فمن الافضل في رأيي ان نبعث في طلب بعض شيوخهم ونسلمهم اللص .

كانت للحاج ابراهيم شهرة واسعة في القبيلة وسائر القبائل الاخرى .. كشيخ حكيم وقاض عادل . كما كان يتمتع باعجاب الجميع واحترامهم الشديد . فما كاد يبدي هذا الاقتراح حتى حاز رضاء الجميع . اما ابن رزق . فانه ما كاد يسمعه يقول ذلك حتى امتقع وجهه . وزال عنه للمرة الاولى ذلك الجمود الشديد . وقال متوسلا :

ــ لا تستدعوا أحدا منهم . ابعثوا بى اينما شئتم .. الى الشرطة ، او اى مكان آخر .. ولكن لا تدعوا احدا من قبيلتي يراني وانا في هذا الموقف .. اقتلونى اذا اردتم .. ولكن لا تستدعوا احدا من قبيلتي .. :

وعادت الشجاعة الى قلوب الصبية والصغار عندما رأوا هذا التخاذل من ابن رزق .. فراحوا يقتربون منه مرة اخرى . ويحملقون فيه بفضول شديد . بل ان بعضهم راح ينخزه بعود في يده ، كما ان احدهم وخزه وخزة قاسية بمسمار طويل اتى به . وكانوا يفعلون ذلك خفية دون ان يراهم شيوخ القبيلة ، وابن رزق لا يحاول حتى مجرد النظر اليهم او نهرهم ولكنه رفع عينه اخيرا نحو الحاج ابراهيم فرأى هذا فيها شيئا من الرجاء .. واكتشف ما يجرى . فصاح في الاطفال قائلا :

ــ كفوا عن هذا أيها الجبناء .. ماذا عسى أن تقوله القبائل لو عرفت اننا نمتهن اسرانا ونعذبهم .. ؟

ونهض سالم فنحى الصبية وقادهم بعيدا .. ولم يجرؤ احدهم بعد ذلك ان يعيد الكرة .

وظلت النيران مشتعلة حتى الصباح ، ولم يذهب الى الفراش الا عدد قليل من رجال القبيلة ، وعندما حان وقت خروج الرعاة بالابقار والاغنام اخذوا يتلكأون ويتباطأون ، حتى يعرفوا ما سوف يحل بابن رزق . ولكنهم ما لبثوا ان رأوا رجلا طويلا قوى البنية . ذا وجه اسمر . يسير في خطوات بطيئة متجها نحو وادى الحيسى وعرفوا انه ابن رزق . ثم اكتشفوا ان الحاج ابراهيم قد استطاع في نهاية الامر ، ان يقنع شيوخ القبيلة ورجالها . باطلاق سراحه .. بل واعطاه علاوة على ذلك احدى ملحفاته بدلا من ملحفته التي كانت قد تمزقت اربا . وكانت الملحفة التي اعطيت لابن رزق .. بيضاء اللون .

●●●

ومضت الحياة .. وانقضت عشر سنوات ، واصبح سالم شخصية مرموقة ، وانجب من صابحة بعد ان تزوجها طفلتين جميلتين .

كانت كل سنة افضل من سابقتها . وانعكس تقدم وسائل المعيشة على حياة القبيلة وانظمتها ، واصبحت الجرارات الميكانيكية هى التي تحرث الارض بدلا من الجمل والمحراث – وحفرت الآبار هنا وهناك . وانتشرت بعض حدائق الفاكهة واصبحت ثمار العنب والتين والبرتقال اغذية مألوفة لدى افراد القبيلة . ولم تعد المدرسة ذات الفصول الاربعة كافية لاستيعاب ذلك العدد الكبير من الاولاد فاقيمت ثلاث مدارس اخرى . وبدأت المباني الحديثه تحل محل الخيام . الا ان اصحاب تلك المباني ظلوا مع ذلك متمسكين بخيامهم . فقد كنت ترى بالقرب من كل منزل خيمة او اكثر لا سيما في فصل الربيع ، عندما تصبح الاقامة داخل خيمة في وسط الحقول الخضراء والنباتات ، أمرا يدعو الى البهجة والانتعاش .

وذات يوم من ذلك العام رأى الناس حسن ، قصاص الاثر في القبيلة ، وابرع من يزاول تلك المهنة بين سائر القبائل ، وهو يسير متفحصا الارض ، وينحنى بين وقت واخر ممعنا النظر الى ما فوقها من آثار اقدام باهتمام شديد ، وكان يتبعه عدد من شباب القبيلة ، بعد ان شاع نبأ مؤداه ان سارة

ابنة الحاج ابراهيم قد فقدت كل حليها . الامر الذي جعل الاسرة تستعين بحسن لاقتفاء اثر اللص الذي سرق الحلى والارشاد عنه .

وظل حسن يقتفى الاثر لمدة يومين كاملين ، ولم يكن لمن معه من الشبان عمل سوى النظر الى وجهه ، فاذا رأوه سعيدا مستبشرا علموا ان العملية تجري بنجاح اما ان رأوه مقطبا متجهما ادركوا ان شيئا ما قد التبس عليه . وقبيل غروب اليوم التالى ، وكانوا قد قطعوا مسافة شاسعة بين السهول والتلال ، كانت علامات البهجة والتفاؤل بادية على وجه القصاص . غير ان ذلك لم يدم طويلا ، فلم تلبث آماله ان انهارت عندما انتهت آثار الاقدام التي كان يتتبعها عند ارض صخرية ملساء ، من المستحيل ان تترك الاقدام عليها اى اثر . ولم يكن امامه سوى ان يجتاز تلك المساحة الصخرية ويحاول العثور مرة اخرى فوق الارض الرملية على اثار اقدام اللص . ولكن الشمس كانت قد اشرفت على المغيب ، ولم يكن ثمة فائدة من بقائهم في ذلك المكان . وشاهدوا على البعد خيام احدى القبائل ، فقرروا ان يمضوا الليل لديها كضيوف . واحسن رجال القبيلة استقبالهم وقادوا خيولهم الى المكان المعد لذلك وقدموا لها الماء والشعير . وبعد العشاء في « خيمة القبيلة » وتناول القهوة سألهم احد الشيوخ عن سبب مجيئهم الى تلك البقعة . وبدأ طالب ابن الحاج ابراهيم يروى عليهم القصة وهم يصغون باهتمام .

وكان اكثر الحاضرين إهتماما بمتابعة قصة طالب ، رجلا متقدما في السن قليلا ، اسمر الوجه صغير العينين ، بارز الانف ، قد انتحى بعيدا في احد اركان الخيمة . وقد نهض ذلك الرجل قبل ان يفرغ الشاب من قصته وغادر الخيمة .

وأبدى شيخ القبيلة اسفه لذلك الحادث . ووعدهم بان يرسل معهم في صباح اليوم التالى بعض رجاله لمساعدتهم في البحث عن آثار اقدام السارق . ولكنهم عندما استيقظوا صباحا سمعوا المطر يسقط بغزارة ، فاسقط في يد حسن ، وعرف ان مهمته قد باءت بالفشل وان المطر قد محا كل اثر لاقدام اللص . ولم يعد امامهم سوى ان يشكروا شيخ القبيلة ورجالها على حفاوتهم بهم ، ويستأذنوا في العودة .

وعندما وصلوا الى مضاربهم ، رأوا بعض الصبية يعدون نحوهم

ويستقبلونهم في صخب وتهليل ، وما لبثوا ان فهموا منهم ان حلى سارة قد وجدت كما هى موضوعة امام خيمتها ، ملفوفة في ملحفة بيضاء قديمة . ولم ينتظر حسن .. بل اسرع نحو المكان الذي وجدت فيه الحلى وراح يتفرس في الارض هنا وهناك وما لبث ان صاح قائلا :

— ان اللص الذي سرق الحلى ، هو الذي اعادها بنفسه :

لقد مرت الآن سنوات طويلة على ذلك الحادث ، ولكن سالما ما زال — كلما الح عليه بعضهم — يرويها وقد ارتسمت في عينه نظرة تعبر عن حنينه الى تلك الايام ، وهو يسمى هذه القصة « قصة ابن رزق .. اللص الوفى الامين : »



عيد الفطر

كنا نسير في طريق متعرج طويل يخترق احيانا حقول الذرة الخضراء ، واحيانا اخرى حقول القمح التي اقترب موعد حصادها بعد ان اوشكت على النضج . وكان الوقت صيفا واليوم يوم الخميس .. الخميس الاخير من شهر رمضان . ولقد بذلت كثيرا من الجهد لكى اصوم خلال ذلك الشهر ، وكنت احيانا استطيع ان اكمل صيامى طول اليوم وفي احيان اخرى لم يكن في وسعي ـ وانا ذلك الصبى ذو الاثنى عشر عاما ـ ان اقاوم اغراء شرب قدح من الماء البارد ، او اللبن الطازج . وقد اعتاد ابى ان يقول لامى ، انه لا يجدر بى ان اصوم وانا في تلك السن ولكنها كانت تصر على ان افعل .

كنت اركب حمارى الابيض ، ونحن في طريقنا الى سوق اقرب قرية ، ضمن صف طويل من الناس . كلهم من افراد قبيلتنا ، ما بين رجال ونساء واطفال . وكان بعضهم يمتطون صهوات جيادهم والبعض الآخر يركبون الجمال او الحمير ، بينما ظل عدد قليل يسير على الاقدام وكان عددنا كبيرا ، اكبر مما اعتاد ان يكون في كل يوم خميس . ذلك انه كان الخميس الاخير في رمضان ، الذي ينبغي ان تشترى القبيلة فيه كثيرا من السلع والاشياء الخاصة بعيد الفطر .. ملابس جديدة . واحذية .. وسكر .. وارز .. وبعض انواع الحلوى المختلفة التي تتلائم مع العيد المرتقب .

وكنت ارى وانا احث حمارى الابيض على السير ، جموعا كثيرة من افراد القبائل الاخرى مقبلة من الطرق الفرعية المختلفة لينتهى بها السير الى الطريق الرئيسي الذي نسير فيه ، فيزداد زحاما كلما اقتربنا من القرية التي يقوم بها السوق . وكان بعضهم يسوق امامه حملانا او عجولا او ابقارا صغيرة لبيعها في السوق ، ثم ليشتروا بثمنها ما يحتاجونه من اجل العيد .

وكان جدى ، الحاج ابراهيم ، يمتطى فرسه الحمراء ومن حوله كثير من الرجال كل على دابته وهم يتحدثون ويدخنون . اما شهادى فقد كان يسير على

قدميه وهو يسوق امامه مجموعة من الحملان ، تقرر بيعها جميعا فيما عدا احدهما ، وهو الابيض ذو الرأس السوداء ، لانه سيهدى الى (ابو حسين) ، وهو صديق حميم من القرية لجدى الحاج ابراهيم ، وقد اعتاد ان يتلقى مثل هذه الهدية مرتين كل عام .

وعندما اجتزنا التل الاخير ، الذي يفصل بيننا وبين تلك القرية الهامة الكبيرة : قرية الفالوجا ، استطعت ان اراها جيدا وقد احاطت بها حدائق الموالح ذات المساحات الكبيرة ، وحقول قصب السكر . وعندما دخلنا شوارع القرية رأيت اطفالها يلعبون الكرة في الطرقات المليئة بالاتربة ، ونظر الاطفال نحونا برهة قصيرة ثم استمروا في لعبهم كأن احدا لم يمر عليهم . ورايت ايضا بعضا من فتيات القرية ونسائها . وبدى لى أنهن جميلات في ثيابهن الطويلة المخططة ، وفي اغطية رؤوسهن البيضاء . وقد نظرن هن ايضا نحونا قليلا .. ثم دلفن داخلات الى منازلهن . ولزم الحاج ابراهيم ورجا له السكون ، وكفوا عن الضحك اثناء مرورنا في طرقات القرية ، وكل منهم يحاول ان يظهر بمظهر الجد والوقار ، وما لبثت ان رأيت بعض القرويين يسرعون نحونا وتساءلت قائلا :

ـ لماذا يعدو هؤلاء الناس نحونا ؟

فأجابتنى عمتى التي كانت فوق دابتها بالقرب منى :

ـ يريدون شراء الحملان والبقر التي معنا قبل ان يعرف رجالنا الاسعار السائدة في السوق .

واتجه رجلان نحو صالح ، فترجل هذا عن جواده وجمع حملانه الثلاثة . واخذ احد الرجلين وهو اقصرهما واكثرهما بدانة يتحسس الحملان ويرفع كل منهما الى اعلى ليخمن وزنه ، ثم امسك بيد صالح ، وضم الرجل الآخر ايضا يده الى يديهما وبدآت المساومة بصوت خافت في اول الامر ، ولكنه ما لبث ان ارتفع ، وظل يتزايد في الارتفاع . واوقفت حمارى على الرغم من مناداة عمتى علي ، لا شاهد هذه المساومة التي خيل لى انها ستنتهى بمعركة . وعجبت من ان يمضى رجالنا ويتركوا صالحا بمفرده مع هذين الرجلين الشرسين .. واخيرا مضى احد الرجلين وترك يد صالح في يد الرجل البدين . الذي سمعته يصرخ في صالح قائلا :

ـ هيا .. بعها : سأعطيك جنيهين في كل حمل من هذه الحملان الهزيلة .. هيا بعها :

ورأيت صالحا يحاول ان يخلص كفه من كف الرجل البدين ، ولكن كان ذلك متعذرا ، وكنت اعلم عن سالم انه طيب ومتسامح . ولكنه ابى مع ذلك ان يبيع حملانه بهذا السعر على الرغم من اصرار الرجل وإلحاحه والضغط الشديد على يد صالح . واخيرا قال هذا :

– دع يدى .. اقول لك دع يدى ، فهذه شراسة ووقاحة ، وليست بيعا وشراء .

قال صالح هذه الكلمات وهو يمد يده الاخرى نحو منطقته ، ومن قبل ان تقبض يده على شيء ما .. كان الرجل قد تركه واولاه ظهره باحثا عن ضحية اسهل يلعب معها هذه اللعبة .

ولحقت بافراد قبيلتنا ، ومررت اثناء ذلك على اعداد كبيرة من البائعين الذين يعرضون سلعهم من فاكهة وخضر واقمشة واشياء اخرى كثيرة مرصوصة ، على الواح خشبية عريضة موضوعة امام حوانيتهم على جانبي الطريق . اما السوق التي تباع بها الحيوانات وتشترى . فقد كانت محاطة بسياج من السلك ، وهكذا ينبغى لمن يريد الوصول اليها ان يدخل من احد الابواب ويخرج من آخر . وعندما دخلتها وجدت حصان جدى الاحمر واقفا وليس عليه احد فنزلت من فوق حمارى وربطته بجانبه . ورحت ابحث عن عمتى ، ولكنني كنت قد فقدت اثرها ، فرحت ابحث عنها وانا احملق في وجه كل امرأة ترتدى ثوبا اسود ، فكانت الدهشة تستولى عليهن .. واخيرا تمكنت من العثور عليها ، وهى تبتاع تينا جافا من فتاة صغيرة جميلة تقف خلف مائدة ضخمة ، عليها مختلف السلع الغذائية . وحذرتني عمتى من أن أضل مرة اخرى بين الزحام ، وطلبت منى ان اظل بجوارها . وظللت بعد ذلك اسير وراءها ولا افارقها ، وشاهدت اثناء ذلك الكثير من افراد قبيلتنا ، وهم يبتاعون ما يحتاجون من سلع .

وفي الساعة الواحدة تقريبا بدأ افراد قبيلتنا يتجمعون في المكان الذي ربطت فيه دوابهم . وظللنا جميعا ننتظر الحاج ابراهيم ، الذي حضر اخيرا ومعه صديقه ابو حسين وهو رجل كهل ذو لحيه وخطها الشيب ووجه بشوش . ولفتت نظري شدة صداقته لجدى فلقد اصر على ان يسير معه مشيعا اياه حتى نخرج من القرية . وعلى ذلك فان احدا من افراد القبيلة لم يركب طوال تلك المسافة دابته لان الحاج ابراهيم كان يتقدم الجميع وهو

يقود حصانه الاحمر وبجانبه صديقه ابو حسين . وكان علي ان افعل مثل الجميع ، فسرت على قدمي وانا اقود حماري . وما كاد ابو حسين يودع جدى ويولينا ظهره ، حتى ركب الجميع .

وبعد ان دخلنا وادى الحيسى ، عرجنا على نبع من الماء حيث سقينا الدواب واسترحنا قليلا ثم غادرنا المكان تاركين اياه لبعض فتيات صغيرات جئن ليملأن جرارهن . وعندما مررنا بمضارب قبيلة الرواوة ، جرت نحونا بعض الكلاب تريد ان تهاجمنا ، ولكنها عندما اقتربت منا ورأت عددنا الكبير ، وقفت فجأة وراحت تنظر الى بعضها البعض .

وعندما اقتربنا من خيامنا ، اقبل الاطفال نحونا ، كل يستقبل اقرباءه ورحنا نوزع الحلوى على من ليس لهم اقرباء بيننا . وتجمعت كل اسرة في خيمتها حول الاشياء الجديدة الخاصة بالعيد ما بين ملابس واحذية وغيرها .

ومرت الايام الباقية على العيد سريعا .. ذلك العيد الذي كنا جميعا ننتظره بفارغ الصبر . والذي تبين انه سيكون في يوم الخميس الذي ذهبنا فيه الى القرية . ولم ينم في ليلة العيد احد من افراد القبيلة الا القليلين . وظل معظمهم ساهرا حتى الصباح . اما انا فلم استطع مقاومة النوم فنمت في حوالى منتصف الليل . واستيقظت في الصباح المبكر على اصوات حشد كبير من الناس يصيحون « الله اكبر .. الله اكبر لا اله الا الله » : فغسلت وجهى ، وارتديت ملابسى الجديدة ، وعدوت نحو التل المتاخم للخيام ، فشاهدت هناك رهطا كبيرا من الناس يرتلون هذا الدعاء ، ورايت بين افراد قبيلتنا كثيرا من الغرباء ، فقد جرت العادة ان يحضر الينا عدد كبير من الناس في القبائل المجاورة ليؤدوا معنا صلاة العيدين ، الاصغر والاكبر .

وكان ابو سماحة – على ما أذكر – ، هو الذي يتوسط ذلك الجمع الغفير من الناس وهم يرددون من بعده دعوات العيد . وعندما كف ابو سماحة عن تلاوة الدعوات ، وانتصب واقفا موليا وجهه صوب الجنوب ، ناحية مكة وراح يكبر مناديا الى الصلاة . اصطفت الناس سريعا من خلفه في شبه صفوف طويلة ، وبدات الصلاة وفي نهايتها اسرع الناس نحوه وصافحوه ، ثم تحولوا ايضا لمصافحة جدى الشيخ حسين شيخ القبيلة وجدى الآخر الحاج ابراهيم وهو اكبر اخوته واشهر قضاة وادى الحيسى . وفي ذلك اليوم

ذبحت القبيلة كثيرا من الحملان . ودعت الناس الغرباء ، فلبى بعضهم الدعوة ومكث لتناول الطعام ، واعتذر الباقون وركبوادوابهم عائدين الى قبائلهم .

ورأيت شباب القبيلة من فتية وفتيات مستعدين وهم على احر من الجمر للذهاب الى جرارة حيث اعتاد ان يتجمع بها الشباب من كافة القبائل الأربع عشرة لعرب الجبارات ، للغناء والرقص والسباق على ظهور الجياد . وهناك رأيت جموعا كبيرة من الفتيات والشبان جاء بعضهم فوق جيادهم والبعض الآخر سيرا على الاقدام . وفوق هضبة من السهل الفسيح شاهدت جماهير غفيرة من الرجال والنساء والاطفال . كما رايت اكثر من مجموعة من الفتيات ينشدن الاغاني عن عاشق مجهول سوف يحضر عن قريب فوق جواده الادهم ليروى على حبيبته قصصه الغرامية .. ثم يحملها بعيدا الى التلال القفراء . وعلى مقربة من اولئك الفتيات كانت تقف مجموعات من الشبان ، هم فعلا مجهولون من قبائل مختلفة يغنون بدورهم ويرقصون على نغمات الناى ، ووسط كل هذا ، كانت تطلق بين حين واخر الاعيرة النارية علامة على السرور والابتهاج . وكانت هناك بعض الخيول تعدو هنا وهناك . ولكن معظم الجياد كانت تنتظر استعدادا للحظة الهامة .. لحظة السباق . وراح الاطفال بملابسهم الجديدة الزاهية الالوان يشتركون ايضا في الرقص والغناء . مع الرجال والنساء .

وحملت طفلة صغيرة فوق الاكتاف وهى تمسك في يمناها راية خضراء . اخذت تلوح بها ذات اليمين واليسار ، وكانت الراية مثبته في عصا صغيرة . وما كادت الطفلة تلوح برايتها حتى تعالت اصوات الغناء وازداد الحماس واسرع الشبان كل الى جواده فامتطى صهوته .. وبدأت اشواط السباق .

ورأيت ابن عمى شهدى ممتطيا ظهر فرس جدى الصهباء . اما اخى ابراهيم فقد كان يركب فرسنا الكبيشة ، ومع ان الكبيشة كانت فرسا متقدمة في السن الا انها كانت ذائعة الصيت بين شتى القبائل ، ولم يسبق لها ان هزمت فى سباق حتى ذلك الوقت . وقد نصح الكثيرون ابى ان يدخلها في السباق الرسمى . ولكنه كان يرفض ذلك باستمرار دون ابداء الاسباب .

كان اخى وابن عمى يقفان بجوار بعضهما ، وقد بدى عليهما أنهما لا يريدان ان يرهقا فرسيهما في الاشواط الاولى من السباق ، فقد كانت امامهما

رسالة اهم واخطر وهى ان يفوز احدهما بالراية الخضراء التي في يد الطفلة ، عندما يحل الشوط الخاص بذلك . فان الذي يحصل على تلك الرايه ويعدو بها حتى يدخل ارض قبيلته دون ان يلحق به فارس اخر يصبح هو الفائز الاول . ويكون قد احرز بذلك شرفا كبيرا تفخر القبائل به ، ولقد فازت فرسنا الكبيشة بالراية الخضراء اكثر من مرة ولم تكن لتهزمها اعظم الجياد سرعة واكرمها بين القبائل الاخرى .

ولاحظت ان بعض الشبان يحاولون اغراء اخى ابراهيم بالدخول معهم في السباقات الاولى ، ولكنه رفض قائلا وهو يشير باصبعه نحو الراية الخضراء :

– هذه هى الحكم الفصل :

وابتسم الشبان جميعا فيما عدا شاب اسمر ، كان يتظاهر بانه لا ينصت الى حديثهم وقد راح يعبث بعنان فرس رشيقة سوداء كان يمتطيها .

وعندما بدء الشوط الهام ، انطلق الفرسان من نقطة البداية . وكان اخى في اول الامر يتقدم الجميع ، ولكنني ما لبثت ان رأيت الشاب الاسمر صاحب الفرس السوداء ينطلق بها كالسهم ، ويتجاوز اخى قبل ان يصلا الى الهدف بخطوات – وانتزع الراية الخضراء من يد الطفلة المحمولة على الاكتاف ومضى بعد ذلك في سبيله وفرسه تسابق الريح . وسمعت اصوات الرجال والنساء وهم يحثون الفرسان على ملاحقته ، وتبعته جياد عديدة وهى تنهب الارض نهبا . ولم استطع ان اميز اخى لشدة سرعة الجياد ولكثرة ما اثارته حوافرها في الجو من غبار ، حال دون الرؤيا وكفت النساء عن الغناء وصمت الجميع ، وتكهرب الجو ، فقد كانت تلك هى ساعة الانتظار الحرجة . وعاد بعد قليل بعض المتسابقين المتخلفين ، ممن وجدوا انه لم يبق لديهم امل في مواصلة السباق ، وذكروا ان ابراهيم كان اقرب فارس الى الشاب الاسمر عندما انحرف الباقون في السباق وراء التلال ، وانه لم يكن بينه وبين الفرس السوداء الا بضع ياردات . وعندما عاد بعد ذلك ابن عمى شهدى الذي كان قد صمد في السباق حتى نهايته ، افضى الينا بالنبأ المحزن اذ قال :

– كان ابراهيم على وشك ان يدرك الفرس السوداء ولكن غريمه استطاع في اللحظة الاخيرة ان يدخل حدود ارض قبيلته قبل ان يلحق به .

وهكذا فقدنا في تلك السنة .. الراية الخضراء .

وانتهى الاحتفال وعاد الجميع ، كل الى قبيلته اثناء غروب الشمس . وعندما سأل رجالنا شهدى عن اخى ابراهيم ، قال : انه رفض ان يعود معه لخجله من مواجهة ابى .. وانه ترك الفرس لحال سبيلها مفضلا أن يسير على قدميه . على الرغم من نصيحة شهدى له بان ما يفعله لن يجدى في الامر نفعا .

وكانت الانباء قد وصلت الى قبيلتنا قبل وصولنا . وعندما القيت نظرة على ابى رأيته واضح الغضب ، وسمعت جدى الحاج ابراهيم يقول له :
– ذلك هو نظام الكون يا ولدى .. وتلك هى سنة الله .. ان الفرس قد

تقدمت في السن . ولا لوم عليها او على ابراهيم .
ولكن ابى اجابه قائلا :
– لا اكاد اصدق .. هذا مستحيل .

وعندما غاب قرص الشمس وراء الافق ، اقبلت الكبيشة على مهل من ناحية الشرق وقد جف العرق على جسدها لشدة ما بذلت من جهد فصار لونها اقرب الى البياض ولم يكن فوق ظهرها احد . وعندما مرت على الخيمة الكبرى « خيمة القبيلة » لم ينهض ابى اليها لاستقبالها ، والقى عليها نظرة تفيض الما وحزنا . وسأل قائلا :

– من الرجل الذي فاز بالراية ؟
فاجابه جدى قائلا :
– يقولون انه من قبيلة ابى جابر .. وانه شاب صغير اسمر يمتطى صهوة فرس سوداء ذات بقعة بيضاء فوق ثلاثة من حوافرها ، وغرة صغيرة بيضاء في جبينها .

وعاد ابى يسأل في اهتمام :
– آتراها فرس ابى صباح ؟
ولكن احدا لم يستطع ان يجزم بشيء .

وفي صباح اليوم التالى . عندما كانت الكبيشة تتناول طعامها . اقبل من الجهة الشرقية فارسان : احدهما يركب جوادا ابيض والآخر يمتطى صهوة الفرس السوداء التي احرزت لقبيلتها بالامس ذلك النصر العظيم . ولكنه لم يكن نفس الفارس الذي امتطاها بالامس . بل كان شيخا مهيبا . وقد قوبل

الفارسان من رجالنا بحفاوة واقتيد جواداهما الى مربط الخيول وقدم الطعام لهما . وكان الشيخ المهيب هو ابو صباح .. وهو رجل ذو منزلة كبيرة ويحترمه الجميع ، خصوصا ابى ، الذي اصر على اعداد وليمة له وقت الغداء .

وتحول الرجل الآخر نحو والدى وراح يحدثه بصوت خافت ، فرأيت علامات السرور ترتسم على وجهه ، وقبل ان يقول شيئا للرجل ، دفع ابو صباح بيده تحت عباءته واخرج الراية الخضراء المثبته في عصا صغيرة قائلا :

– ان شرف الفوز بالراية الخضراء لم يخرج من قبيلتكم .. ولكنه انتقل فقط من الام الى ابنتها .. من الكهولة الى الشباب ، ومن القديم الى الجديد :

واعطى الراية لابى .

وابتسم الشيوخ جميعا .. كما ابتسم كل الحاضرين ، واظنني ابتسمت أنا ايضا .. مع اننى لم اكن وقتذاك الا صبيا تافها صغيرا .

جاءوا.. ثم عادوا

كل شيء كان يمضي ذلك الصباح كالمعتاد ، فيما عدا بعض استعدادات كانت تأخذ مجراها في الخيمة الكبرى ، المسماه بخيمة القبيلة .. وكان الوقت صيفا حيث تشتد حرارة الشمس منذ اللحظة الاولى لشروقها ، وحيث يكون من الافضل للجميع . بدلا من ان يظلوا داخل الخيام . ان يجلسوا خلفها في الخارج محتمين بظلالها . وكنسوا ارض الخيمة الكبرى جيدا . ورشوها بالماء كي يهمد الغبار ، وتنخفض حرارة المكان ، وبسطوها ببعض السجاد ، ووضعوا كثيرا من الوسائد والمساند في اماكنها ، ونقلوا الموقد بعيدا في احد الاركان ، وكان فوق سطحه عدد من اواني الشاى والقهوة اكبر مما اعتدت ان اراه في الايام العادية .

ولم يكف الحاج ابراهيم ، كما هى عادته عن الحركة والنشاط ، مصدرا اوامره لهذا وذاك من شبان القبيلة . فعلى احدهم ان يستمر في عملية الرى ، وعلى الآخر ان يثبت حبال الخيمة الكبرى جيدا ويتأكد من متانتها . وعلى الثالث ان يعد اقداحا جديدة كافية للشاى والقهوة ، وعلى حفيده طالب ان يذهب الى اعلى التل ، ويظل هناك حتى يظهر الرجال القادمون فيبادر بحمل الخبر الى جده .

ولاحظت أن معظم الرجال ، لا سيما الشيوخ منهم ، قد ظلوا ذلك اليوم في خيامهم،ولم يخرجوا الى اعمالهم . وحتى الصبية الذين يذهبون الى المدرسة ويعملون الآن بمناسبة الاجازة الصيفية في الحدائق والحقول ، عادوا بعد خروجهم بقليل وهم يسوقون امامهم حميرهم المحملة بالعنب والتين . وكان واضحا ان ضيوفا غرباء من ذوى الحيثية والمقام سيحضرون .. ولكن لماذا سوف يحضرون .. ولماذا كل هذه الاستعدادات القائمة على قدم وساق في الخيمة الكبيرة ؟

كانت كل هذه الاسئلة تساورني .. واخيرا سألت أمى التي اجابتنى قائلة : انها احدى القضايا التي سيفصل فيها جدك .

فقد كان جدى الحاج ابراهيم واحدامن قضاة ثلاثة . يتميزون بأنهم هم وحدهم الذين يتولون الفصل في منازعات الافراد وقضاياهم في كافة قبائل عرب الجبارات . اما القاضيان الآخران فقد كانا من بين القبائل الاخرى .

وأصدر جدى امره بأخلاء خيمة نصر الله ، وتحويلها الى مكان يشبه الخيمة الكبرى تماما . وانتقل نصر الله مع زوجته الى خيمتهم الأصغر حجما ، واتخذت في خيمتهم الأصلية نفس الاستعدادات التي اتخذت في الخيمة الكبرى ، وقد علمت فيما بعد ان هذا الاجراء قد اتخذ .. ليس لأن الخيمة الكبرى لا تتسع للزائرين ، فهى تتسع لأكثر منهم ، ولكن للفصل بين الطرفين المتنازعين وعدم جلوسهم في مكان واحد ، الا اذا طرأ ما يستدعى ذلك اثناء بحث القضية .

وقال بعضهم :

– أن شهدى يعطى من فوق التل الاشارة بوصولهم ... أنهم قد وصلوا :

وبدأ الحاج ابراهيم في اعطاء اوامره :

– ليذهب طالب لاستقبال القادمين .. وانت يا نصر الله اذهب الى خيمتك التي اعدت ، وتاكد من ان كل شيء فيها على ما يرام ، ثم الزمها .. لان الفريق الآخر سيصل بدوره بعد قليل .

وظهرت رؤوس الجياد التي تحمل الزائرين فوق التل ، حيث كان شهدى واقفا ، كان عددهم حوالى اثنى عشر فارسا ، يمتطون صهوات جياد مختلفة الالوان ، وقد تبين وهم مقبلون نحو الخيمة الكبرى انهم في مختلف الاعمار . ثم طالب ومن معه من الرجال مسافة تبعد عن الخيمة عشرين ياردة ثم ما لبث ان لحق الحاج ابراهيم بهم لاستقبال الضيوف ، واتجه كل رجل من المستقبلين نحو فارس من الزائرين فامسك بزمام جواده . ولكن احدا منهم لم يترجل قبل ان يترجل شيخ مسن ذو لحية ناصعة البياض كان الحاج ابراهيم هو الذي يمسك بعنان فرسه ويستقبله . وتصافح الرجلان بعد ان ترجل ذو اللحية البيضاء . ثم اقتاد طالب فرسه الى مربط الخيل كما اقتيدت ايضا بقية الخيول .

ودخل الضيوف الى الخيمة الكبرى بين ترحيب الحاج ابراهيم وشيوخنا الاخرين . وجلس الشيخ الابيض اللحية في الوسط بالقرب من الحاجز الذي يفصل بين قسم الرجال والنساء في الخيمة . واحاط به رجاله من كلا الجانبين ، وقد استند بمرفقه الايسر الى كومة الوسائد بجانبه . اما الضيوف الذين وفدوا منذ الصباح الباكر لهذه المناسبة من مختلف القبائل ، فقد جلس بعضهم الى يمين مجموعة ذى اللحية البيضاء ، وجلس البعض الآخر الى يسارها . وقدمت القهوة وراح الجميع يحتسونها وهم يتحدثون ولكن دون ان يتعرضوا للقضية التي حضروا من اجلها .

واقبلت من الناحية الشرقية بعد نصف ساعة تقريبا ، مجموعة اخرى من الفرسان لا يقل عددهم عن افراد المجموعة الاولى . وقد استقبلوا بنفس الطريقة التي استقبلنا بها تلك المجموعة ، ثم قادهم شهدى الى خيمة نصر الله . وما لبث بعض رجالنا ان ذهبوا اليهم للترحيب بهم .

ولما سئمت انا ومن معى من صبية من الجلوس في الخيمة الرئيسية ، اتجهنا الى خيمة نصر الله لنرى الضيوف الجدد . ولم يكن الصبية والاطفال يمنعون في مثل هذه المناسبات من الحضور . بل كانت تقاليد القبيلة تحبذ تواجدنا دائما في الخيمة الكبرى ومتابعة ما يجرى بها باعتبارها مدرسة عملية للصغار والكبار على حد سواء .

وظل نصر الله ، ومعه عدد من الضيوف الذين حضروا مبكرين من مختلف القبائل ، يتنقلون ما بين خيمته والخيمة الرئيسية وقتا طويلا ، وهم يحاولون حمل اقوال وآراء كل من الطرفين الى الطرف الآخر . والتقريب بين وجهتى نظرهما ، والسعى الى وضع الشروط التي على اساسها يمكن للفريقين ان يجتمعا في خيمة واحدة .

واخيرا نجحت المفاوضات . واجتمع الخصوم معا في الخيمة الرئيسية . فجلست مجموعة ابن راشد وهو الرجل ذو اللحية البيضاء ، في القسم الجنوبي من الخيمة ، اما مجموعة عرب الطواحطة وهى المجموعة التي حضرت بعد مجموعة ابن راشد فقد جلست في القسم الشمالى . وجلس رجال قبيلتنا ومن معهم من الضيوف الوافدين منذ الصباح المبكر من قبائل مختلفة في الجهتين الشرقية والغربية . وجلس الحاج ابراهيم وسط الرجال الذين في الجهة الشرقية .

وظل السكون العميق يسود الخيمة الكبرى لفترة غير قصيرة ، واتجهت الابصار كلها الى الحاج ابراهيم الذي بدأ الجلسة قائلا :

– طاب يومكم جميعا ايها الضيوف .. انتم تعلمون ولا شك قواعد التحكيم وتقاليدها . ثم التفت الى يساره واستمر قائلا :

– من هو ضامنك يا ابن راشد ؟

واخذ الرجل الوقور ينظر الى الذين على يمينه ويساره برهة من الزمن كما لو كان يبحث بينهم عن ضامن .. واخيرا قال :

– ابن رافعى هو ضامنى .

واتجهت الابصار نحو ابن رافعى الذي كان يجلس قباله الحاج ابراهيم . وظل الرجل صامتا وقد خفض بصره عندما سمع اسمه ، ويبدو أنه كان يتوقع ان احد الطرفين سوف يختاره ضامنا له ، فقد اجاب دون تردد :

– اقبل ان اكون ضامنا بدين راشد واتحمل جميع النتائج .

بعد ذلك التفت الحاج ابراهيم نحو الطواحطة قائلا :

– الديكم اى اعتراض ايها الطواحطة ؟

والقى رجل في متوسط العمر من بين الطواحطة نظرة خاطفة على افراد جماعته ثم قال :

– كلا .. ليس لدى إعتراض ، فهو اهل للثقة .

وبعد ذلك اختار الرجل المتوسط العمر ضامنه الذي لم يجد بدوره اعتراضا من الطرف الآخر . ثم جاء دور التأمين . فتقدم الطواحطة بمبلغ مائة جنيه . وعلى ذلك فقد اضطر ابن راشد ان يقدم مبلغا مماثلا له . ووضع المبلغان فوق السجادة امام الحاج ابراهيم . وكان يعرف ان قانون القبائل يقضي بان الطرف الخاسر للقضية يفقد تامينه ويمنح هذا التامين للقاضى كاتعاب له . اما الفريق الذي يربح القضية فانه يسترد تأمينه . وقال الحاج ابراهيم :

– والآن ، دعنا نسمع اقوالك اولا يا ابن راشد لانك قد وصلت اولا .

وتحولت الانظار كلها نحو ابن راشد الذي بدأ بالمقدمة التقليدية التي لم تكن تزيد عن تقديم تحيته واحترامه للقاضي ثم بدأ في ذكر تفاصيل قضيته قائلا :

ـ أن أبن أخى ، وهذا هو أبوه (واشار الى الرجل الثالث الى يساره) خرج ذات يوم كالمعتاد ليرعى بقراته . وكان شابا صغيرا في العشرين من عمره . ولقد غادر القبيلة ، وهو سعيد ومعافى كاى شاب من هؤلاء الشبان الجالسين بقرب الموقد ، وكنا طوال هذا الصيف نعد العدة لزواجه .

وصمت الشيخ لفترة من الوقت ، ثم استمر يقول :

اتجه عند الظهيرة نحو السهل الاسفل في وادى الحيسى ليسقى الابقار ، وكان هناك رعاة كثيرون من الفتية والفتيات يسقون ايضا حيواناتهم ، ولم يكونوا جميعا من قبيلتنا ، بل كان منهم اشخاص من الطواحطة وبعض القبائل الاخرى . واخذ يرفع الماء من البئر، الصغيرة التي بها ماء افضل من المياه التي تجرى في القناة الصغيرة التي تجرى هناك . وعلى مسافة قصيرة منه كانت توجد مجموعة من الغلمان والفتيات كان يجالسهم قبل ان يتجه الى البئر . وبينما هو يرفع الماء من البئر نادى عليه خليل ، وهو غلام من قبيلة الطواحطة كان ضمن المجموعة . وما كاد يلتفت نحو الشجرة حتى دوى طلق نارى وسقط فهد في البئر . واسرع الفتية جميعا نحوه وهناك وجدوا فهد ملقى في ماء البئر الملوثة بدمائه وعندما اخرجوه كان قد فقد الحياة .

وصمت ابن راشد هنيهة . وقام احد افراد قبيلة الطواحطة بالتعليق على ما قيل . ولكن الرجل المتوسط العمر الذي يتزعمهم والذي كان يدعى ابن ثابت ، اسكته في الحال ، قبل ان يفعل الحاج ابراهيم ذلك . واستمر ابن راشد قائلا :

ـ وقد ظل خليل جالسا تحت الشجرة مبهوتا لا يتحرك كأنما قد تحول الى تمثال . واعلن رجل متقدم في السن من الطواحطة كان موجودا ان خليل في حماية ابى جابر وعلى ذلك فان احدا لم يصب خليلا بسوء .

وكنت اتوقع وانا استمع الى حديث ابن راشد انه سيقول ان الشبان قد تهجموا على خليل عقب فعلته تحت تاثير غضبهم مما فعل . وقد ادركت رغم صغر سنى وقتذاك ، لماذا لم يهاجم احد خليل . فما دام قد اصبح معروفا انه في حماية احد الشيوخ البارزين ، فان احدا لن يجرؤ على مهاجمته او الحاق اى اذى به والا كان ذلك الاذى موجها الى الشيخ الذي هو في حمايته .

واستمر ابن راشد قائلا :

– وفي الليل بعدما انتهينا من جنازة فهد وقمنا بدفنه جاءنا رجلان وطلبا منا هدنة قدرها اسبوعان . ولم نرفض ، لان ما طلباه يتفق مع قوانين القبائل ، ولسنا ممن يحبون مخالفة تلك القوانين . وقبل مضي هذين الأسبوعين حضر الرجلان مرة اخرى وطلبا منا ترشيح ثلاثة قضاة ليفصلوا في القضية ، وقد فعلنا ذلك . ولكن قبيلة الطواطحة اعترضت على احدهما كما اعترضت قبيلتنا على الثاني ، ولم يبق سواك .

واتجهت الانظار جميعها نحو الحاج ابراهيم .

واستطرد ابن راشد قائلا وهو يختتم اقواله :

– اننا واثقون من انك خير من يفصل في القضية . وارجو ، وقد حضرنا الى ارضكم وخيامكم ، ان نحصل على حقوقنا كاملة كما ينص القانون .

وكان الحاج ابراهيم قد ظل طوال الوقت صامتا . ولكنه التفت الآن نحو الرجل المتوسط العمر قائلا :

– وما هي اقوالك يا ابن ثابت ؟

وبدأ أبن ثابت حديثه بفصاحة كما لو كان حافظا اياه عن ظهر قلب قائلا :

– لا اريد أن ازيد شيئا عما قاله ابن راشد ، سوى ما حدث تحت الشجرة قبل ذلك . ان البندقية لم تكن بندقية خليل ولكنها كانت بندقية شخص اخر .. بندقية محمد ، وهو شاب من قبيلتنا . وقد سأله خليل قبل ان يضغط على الزناد ان كانت محشوة ، فاجابه محمد الذي كان مشغولا وقتذاك باللعب مع بعض رفاقه بانها ليست كذلك ، وعندما اراد خليل ان يمزح مع فهد الذي كان صديقه ، صوب نحوه وضغط على الزناد ، وحدث المكروه . ولكن ما حدث كان عن طريق الخطأ ولم يكن متعمدا على الاطلاق .

ثم التفت نحو الحاج ابراهيم واضاف :

– ولعلك سألت بعض من كانوا هناك من فتيان قبيلتكم ، ولا شك ان اجاباتهم لم تخرج عما اوضحته ، كما لا شك انهم ذكروا لك ان فهدا وخليلا كانا صديقين حميمين ، ومع ذلك فقد حضرنا الى هنا ونحن على استعداد ان نقبل ما تحكم به .

واتجهت كل الانظار مرة اخرى نحو الحاج ابراهيم ، الذي جاء دوره الآن ليتكلم ، وقد بدا حديثه باعادة كل ما قاله ابن راشد ، مضيفا الى ذلك

بعض التعليقات والتوضيحات ، ذلك ان قواعد المحاكمة تقضي بان يردد القاضي قبل نطقه بالحكم كل ما قاله الخصمان ، ولعل السبب في ذلك هو توضيح النقط الغامضة في اقوالهما او لعله ان يثبت القاضي انه ملم قبل الحكم بكل وقائع القضية . ثم راح بعد ذلك يردد اقوال ابن ثابت بحذافيرها مراعيا الدقة التامة الى حد انه كان يستعمل احيانا نفس الكلمات .

وعندما انتهى من ذكر كل احداث القضية قال :

ــ والان قد حل دوركم في التفاوض سويا .

وبدأ الرجال يغادرون الخيمة ، ويجلسون على بعد امتار منه ليتناقشوا . وظل الوسطاء من رجالنا ورجال القبائل الاخرى يعقدون اجتماعات قصيرة بينهم وبين هذا الطرف احيانا ، وذاك الطرف احيانا اخرى ، بينما كان الحاج ابراهيم يحاط علما بنتائج محاولاتهم خطوة خطوة .

وكان وقت الغداء قد حل وتم اعداد كل شيء ، ولكن الظروف استلزمت ارجاء تناول الطعام حتى يصدر الحكم .

واستعد الحاج ابراهيم للحديث مرة اخرى ، بعد ان عاد الجميع واستقروا في امكنتهم ، ثم قال :

ــ واضح مما جاءني من ان الطرفين على استعداد للصلح . ولكن ابن راشد يصر على ان يسمع الحكم اولا ، فان رآه في صالحه ، فهو حر في ان يصفح او لا يصفح ، وعلى الرغم مما يقال من ان الحق لا يعجب دائما كلا الخصمين ، الا أنه لا مفر أمامي من ان أقول ما يمليه على ضميري .. في قضية مثل قضيتكم هذه ، يصعب جدا على المرء ان يصدر حكما .. فقد كان الشابان صديقين ، ولكن احدهما قتل الآخر . وثمة ثلاثة اشياء تحرم شريعة قبائلنا استعادتها او اعطائها لاحد . وهى النساء والجياد والاسلحة . ونحن جميعا نعلم ايضا ان الاسلحة لا ينبغى ان يعبث بها احد ، او يتخذ منها لعبة يلعب بها وهكذا ترون الى اى مدى يصعب الفصل في هذه القضية . ولكن من واجبي رغم ذلك أن انطق بالحكم . وبناء على ما اؤمن به . وهو مبنى على تقاليدنا الموروثة ، يمكننى ان اعلن ان القتل قد تم دون عمد او سبق اصرار .. ومع ذلك فان ارواح الناس لا ينبغي ان تترك هكذا .. لعبة في ايدى من لا يقدرون المسئولية من الناس . ان ابن راشد صاحب حق في المطالبة بما يشاء في حدود ما نصت عليه شرائعنا ثمنا لحياة القتيل . ان من حقه ان يطلب ، وعلى ابن مشرف ، والد القاتل ان يدفع .

وابدى ابن مشرف استعداده للقيام بالتزاماته وقال ابن ثابت :

ـ فليطالب ابن راشد بحقوقه ، ونحن على استعداد لسدادها . وحتى ابننا خليل .. وها هو .. على استعداد لتلقى اية عقوبة يرغبها ابو القتيل .

وما كاد يقول ذلك ، حتى دخل فتى صغير قادما من خيمة نصر الله .. وكان يقوده من يده رجل من رجال الطواطحه ، ويحيط به نفر منهم . وما كادوا يتركونه حتى تقدم بين الحاضرين بثبات الى ان وصل امام الشيخ الثالث الى يسار ابن راشد وهو والد فهد ، فركع امامه . وظل هكذا لا يتحرك .

وبدت الحيرة على وجه الشيخ . وبهت من هذه المفاجأة . ونهضت واقفا على قدمي ،انا ومن معي من صبية صغار ، لنرى ما سوف يفعله الاب بمن قتل ابنه . بعد ان اصبح من حقه ان يفعل به ما يشاء . ولمحت الستائر التي تفصل بين قسمي الرجال والنساء وهي تتحرك وعرفت ان من ورائها من نساء يحاولن وهن منفعلات في تلك اللحظة الحرجة ان يسترقن النظر الى ما سوف يجرى . وساد الخيمة سكون عميق . وابصار الجميع تنتقل ما بين الفتى الراكع والشيخ الجالس امامه . الذي ظل يحدق فترة طويلة في وجه الفتى ، ثم قال له

ـ لا النقود ولا العقاب سوف يعيدان فهدا الى الحياة . انه ليس الآن في حاجة اليهما .. ولكنه في حاجة الى شيء آخر .. هو رحمة الله . لقد قتلت فهدا .. ومن اجل فهد اصفح عنك . انهض يا بني .. فانت مطلق السراح .

ومد يده نحو الفتى وساعده على النهوض .. ونهض الفتى وهو ينفجر باكيا .

واندفع ابن ثابت ورجاله جميعا نحو الشيخ الوقور يقبلون يده ويصافحون من حوله . واحضروا الطعام ، وجلس الجميع حول صحاف الارز واللحم الهائلة الحجم . وقال الحاج ابراهيم قبل ان يبدأ أحد الطعام :

ـ باسم قبيلتنا اقدم الشكر لأبن راشد على نخوته واريحيته ، اما من ناحيتي فانني اعلن تنازلي عما استحق من اجر ، وقد قررت اعادة مبلغي التامين الى كلا المتقاضيين ،لان ما تم ايها الاصدقاء من صلح بينكما على ارض قبيلتي وتحت سقف خيمتها الكبرى اثمن لدى من اى نقود .

ذات يوم ...

انه مجرد يوم .. يوم عادى ، لم تحدث خلاله احداث تستحق الذكر .. ولكنه مع ذلك كان .. يوما :

لقد استيقظت يومذاك عند الفجر ، مثل ، اولئك الذين كنت اعيش بينهم ، وهم افراد قبيلتي . وكنا في اوائل فصل الصيف ، وهو موسم الحصاد المبكر . وقد بدأ الكثيرون في حصــــاد حقولــهم منذ اسبوعين تقريبا .

كان لا بد من حصاد العدس والشعير قبل القمح ، لانهما ينضجان اولا ، ثم لانهما يفقدان الكثير من ثمارهما اذا ما تركا قائمين في الحقل بعد النضج دون حصاد .. وهكذا اصبحت المبادرة الى حصادهما امرا واجبا .

وقد اعتاد العمال الزراعيون في هذا الوقت من السنة ان يتوافدوا علينا من القرى المجاورة . فتعرفوا بمرور الوقت الى افراد قبيلتنا ، ونشأ بينهم نوع من الصداقة ، وقد اعتاد بعض اولئك العمال ان يصطحبوا معهم زوجاتهم . مع ان معظمهن لم يكن ليساهمن في العمل الا بقدر طفيف . كأن يجهزن الطعام والماء مثلا . وفي مناسبات قليلة كن يساعدن في حمل الاكوام الصغيرة التي تم حصادها ونقلها الى الكومة الرئيسية الكبيرة . ومع انهن لم يكن يؤدين اعمالا شاقة ، الا اننا كنا ندفع لكل امرأة منهن مثلما ندفعه لزوجها .

واستيقظ الجميع ، وسمعنا صوت آلة طحن البن والمحباش ، وهو يتصاعد من كل الخيام . واتجه ابى نحو الخيمة الكبرى ليتناول كالمعتاد قهوته هناك ، قبل ان يرحل الى « الغراب » ، وهو اسم حقل لنا كنا بدأنا في حصاده منذ ثلاثة ايام . وكان معظم الرجال في تلك الفترة يتوجهون بعد استيقاظهم الى الخيمة الكبرى او « خيمة القبيلة » ، لا يجلسون بل يتناولون قهوتهم في دقائق ثم ينصرفون الى اعمالهم . لهذا اعتاد الحاج

ابراهيم ان يستيقظ مبكرا جدا قبل الجميع . فيشعل النار ويعد القهوة . وكان البعض يستيقظون احيانا اثناء قيامه بذلك فيبادرون الى مساعدته . ولم يكن الحاج ابراهيم يخرج مبكرا مثل الباقين . فقد كان عليه ان يبقى في خيمة القبيلة إذ قد يحضر بعض الضيوف ، فيكون حاضرا لاستقبالهم . ولكنه كان في هذا الفصل يغادر الخيام احيانا لمتابعة اعمال الحصاد في الحقول.ولم اره قط يشترك بنفسه في الحصاد. ولكن لعله كان يمارس تلك العملية عندما كان في سن حفيده شهدى ، الذي كان في تلك اللحظة يسوق عربته التي تجرها بغلتان مغادرا الخيام . ولقد تمنيت لو ان شهدى كان قاصدا الجهة التي بها حقلنا الغراب . ولكنه كان في طريقه الى جهة اخرى . الامر الذي لم استطع معه ان اركب عربته ، واصبح من المحتم ان اذهب سائرا على قدمى .

لم يكن احد يكلف الاطفال في مثل سنى وقتذاك بأى عمل شاق . ولكنهم كانوا يكلفون بتبليغ الرسائل من مكان لآخر ، او باحضار الماء لمن يظمأ من الرجال القائمين بالحصاد . او باحضار فأس او منجل لشخص من العمال ، اوليطردوا الحيوانات بعيدا عن الحقول التي لم تنضج بعد وعما تم حصاده من نباتات ملقاة في اكوام صغيرة متناثرة حتى لا تأكلها . وعندما لا يكون لدى الاطفال او الصبية الصغار شيء يفعلونه ، فانهم كانوا يشتركون احيانا مع القائمين بالحصاد ، ولكنهم غالبا ما كانوا يمنعون عن القيام بتلك العملية ، لانهم اعتادوا ان يتركوا وراءهم كثيرا من النباتات قائمة دون حصاد . ولكنهم على اية حال كانوا يذهبون مع الرجال الى الحقول اثناء عطلاتهم المدرسية ليقوموا بما ذكرت من اعمال خفيفة

وسرت على قدمى نحو الطريق الرئيسي بين افراد قبيلتنا ، وكان بعضهم يسير مثلى على قدميه ، بينما كان الآخرون يركبون حيواناتهم من حمير او خيول او جمال . وعندما بدأنا المسيرة علا الصياح والحديث ، فهذا رجل ينادى على ابنه ليعود فيحضر شيئا ما كانا قد نسياه . وهذا أحد الرعاة يسأل زميله الى اين سوف يذهبان ذلك اليوم . وهذا طفل صغير في الرابعة من عمره يبكى محاولا ان يلحق بوالديه بينما اخذت امرأة عجوز هى في الغالب جدته تاخذه بالحيلة لكى تمنعه . وقد شعرت وقتذاك بالغبطة لاننى لم اكن صغيرا جدا مثل ذلك الطفل ، والا لمنعونى مثله من الذهاب الى الحقل ،

وابقونى دائما في الخيام . ولكنني شعرت مع ذلك بفضاضة لانى لا استطيع ان افعل كل شيء . ولقد آثرت ذلك الصباح ان ارافق الذاهبين الى حقل جدى ، لأنني ساكون اكثر حرية وانا معهم . فلقد اعتاد اخى ابراهيم ان يكلفني انا وشقيقنا حسن باعمال كثيرة . واعتاد ان يقول لنا « عندما تكونان في الحقل فعليكما ان تنسيا تماما انكما تلميذان » .

كان ابى اكثر تسامحا معى من ابراهيم . ولكنه كان في اغلب الوقت متعبا ، لان الحكومة اختارته ليعمل محصلا للضرائب ، وقد قبل تلك الوظيفة مشترطا ان يكون عمله في حدود المنطقة التي تقيم فيها قبائل عرب الجبارات ، التي تعتبر قبيلتنا واحدة منها ، وليس خارجها ، وقبلوا شرطه . وعلى ذلك فانه قد اعتاد ان يظل متغيبا ثلاثة او اربعة ايام ثم يعود الى القبيلة فيمكث يوما او يومين . وكان ابراهيم اخى بصفته ابنه الاكبر يتولى كل مسئولياته اثناء غيابه . يساعده احيانا بعض اعمامنا . ولقد كان ابراهيم لدى قيامه بمسئوليات ابى يفتقد ذلك الشعور الذي يختلج في قلب كل اب نحو اولاده ، واحسسنا نحن الاطفال بانه يعاملنا بخشونة . ولعلنا لم نكن على حق .. ولعل مرجع ذلك الاحساس هو اننا كنا نقارن معاملته لنا بمعاملة ابى الذي كان بحكم غيابه ، وعدم تواجده بيننا سوى يوم او يومين طول الاسبوع ، يبالغ في رقته وتسامحه معنا . ومع اننى ادرك الآن أن ابراهيم لم يكن من الخشونة كما تصورناه ونحن اطفال ، وانه رجل طيب القلب تماما ، الا اننى ما زلت اتساءل : هل كان لحقيقة انه اقل منا تعليما تاثير ما على تصرفاته ؟

لهذا فانني ما كدت المح ابى عندما نظرت خلفى قادما وقد امتطى جواده الاسود . حتى وقفت مكانى ، وعولت على ان اساله الذهاب الى حقل جدى بدلا من حقلنا ، عندما اقترب منى سالني قائلا :

ــ ماذا تنتظر ؟ تعال : اعطنى يدك واصعد خلفى . واوقف الجواد ولكننى لم امد يدى وقلت :

ــ اريد الذهاب الى حقل جدى .

وضحك وهو يميل نحوى محاولا الامساك بيدى قائلا :

ــ هات يدك ، وسوف انزلك عند تقاطع الطرق .

وركبت وراءه ، وراح اثناء الطريق يوجه الى اسئلة في الحساب ، فأجبت على معظمها ، ثم طلب منى ان اتلو عليه ابياتا من الشعر كان قد علمها لى ولأخى حسن ثــم علمها فيما بعد لمن هم اصغر منا من اخواتنا ، وهى تقول :

العلم بناء .. على مر العصور
والجهل .. يهدم ما تشامخ من قصور
والادب .. يبقى خالدا عبر الدهور
اما الاديب .. فحسبه احد القبور :

ثم اخذ يتلو على قصيدة « عليه وعصام » وهى قصيدة غرامية طويلة تروى قصة فتاة بدوية قتل حبيبها اباها . ووعدنى بان يكتبها لى ، ووعدته بان احفظها عن ظهر قلب .

وعندما ادركنا تقاطع الطرق ، قفزت من فوق الجواد قبل ان يوقفه ، ومضيت في الطريق المؤدي الى زناد ، وهو احد حقول جدى ، وهو حقل ذو تربة رملية جيرية تجود فيه احسن ما تجود زراعة القمح . وكنت ارى من حولى اثناء سيرى اسرابا من طيور الحمام الازرق ذات المناقير والسيقان الحمراء ، وهى نوع من الطيور اعتاد ان ياتى الى الحقول عند شروق الشمس فقط . وكنت اعلم انها لن تمكث طويلا وانها لن تلبث بعد ان تتناول طعام افطارها من بين الحبوب المختلفة المتوفرة في هذا الوقت في الحقول ، حتى ترحل فتشرب من الينابيع الموجودة في وادى الحيسى ولقد كنت ملما بمواعيد اكلها وشربها لانني كثيرا ما خرجت مع ابى لاصطيادها . وهى طيور شجاعة ، لا تطير من فوق الارض الا اذا اصبح المرء شديد القرب منها .

ورأيت على مبعدة قليلة داخل الحقول بعض افراد قبيلتنا ، وهم يحصدون ، وميزت فيهم اسرة ابى سماحة وشاهدت من خلفهم في المساحات التي تم حصادها قطعا من اغنامهم وبعض بقرات تتغذى على مخلفات المحصول ، وهو محصول العدس .

وما لبثت ان ادركت اثناء سيرى بقعة يطلقون عليها اسم « ام النور » تحيط بها من ثلاث جهات ثلاث هضاب مرتفعة ، وفي وسطها تقريبا شجرة

هائلة ذات اشواك . وكنا ونحن اطفال صغار قد عرفنا مما قيل لنا ان تلك البقعة قد سميت « ام النور » لان ثمة ضوءا كان يرى بها ليلا . ولقد رايت بنفسى هذا الضوء مرارا . ولكننى لم اعلم ما اذا كان مبعثه هو الديدان الزاحفة ذات الاشعاع ، والفراشات الليلية المضيئة التي تنتشر احيانا في بعض الاماكن ، ام ان مبعثها عفريت من الجان يسكن في ذلك المكان :

ولقد حدث مرتين خلال عمري القصير ، ان انتقلت قبيلتنا بخيامها الى ذلك المكان ، ولم اكن اشعر بالخوف من تلك البقعة التي تضيء حول الشجرة ما دام الناس من حولى ، اما اذا وجدت نفسي وحيدا ، فان الخوف كان يدب الى قلبي خصوصا اثناء الليل . وما زلت اذكر تلك الليلة التي كنا نسير فيها صحبة عمى في الطريق القريب من الشجرة ذات الاشواك . عندما حلا لعمى ان يسبر غورنا ، فسألنا عمن يستطيع منا ان يتجه نحو الشجرة ، ويضع في اسفل جذعها علامة مكونة من ثلاثة احجار ؟ ولم يقبل احد منا القيام بهذه المجازفة سوى اخى حسن الذي يكبرني بقليل ، فقد تقدم بشجاعة وانجز ما تحدانا به عمنا .. وكان اول ما فعلناه صباحا ان اتجهنا نحو الشجرة لنرى ان كان العفريت المزعوم قد اخذ الحجارة الثلاث او نقلها من مكانها .. ولكنها كانت هناك كما هى . وعندما اصبحت ذلك الصباح الذي كنت اقصد فيه حقل جدى امام الشجرة الضخمة ذات الاشواك . لم اشعر بخوف ما ، ولمست في نفسى الشجاعة لان اذهب اليها .. ولكننى لم اكن متأكدا من اننى سأشعر بنفس الشعور ، اذا ما كان الوقت ليلا :

كانت تمر بى اثناء سيري بعض العربات التي تجرها الحيوانات ، وشاهدت على مبعدة قليلة منى منازل الزيادين ، وهم بعض اسر من قبيلتنا كانت تقيم في ذلك المكان . ورأيت بالقرب من تلك المنازل اكواما هائلة من لقمح المحصود حديثا ، والذي لم يدرس بعد ، لأن ميعاد الدراس لم يكن قد حان . ثم ما لبثت ان رأيت رجلا مقبلا من الحقول نحو المنازل وهو يقود جملا لا يكاد يظهر من جسمه شيء لضخامة الحمل الذي فوق ظهره . واتجه الرجل نحو كومة هائلة من القمح المحصود حديثا ، وعندما ادرك الكومة امسك بعنان الجمل وحركه قليلا فبرك هذا في الحال على الارض . ثم صاح الرجل صيحة واحدة نهض الجمل على اثرها واقفا مخلفا حمله الثقيل ليصبح جزءا من الكومة الكبيرة الحجم . ومضيت في طريقى الى حقل جدى . ولحق بى ذلك الرجل ، ولكنه كان في تلك المرة راكبا فوق الجمل غير المحمل وهو يغني اغنية

لم استطع تمييز كل كلماتها ولكن الذي ما زلت اذكره ان الجمل كان يتولى مهمة الايقاع . فكل خطواته وحركاته كانت منسجمة تماما مع نغمة الغناء .

ورأيت على البعد منى في احد الحقول الخضراء التي لم تنضج سنابلها ولم يحن موعد حصادها بعد لأنها زرعت متأخرة ، بقرة ترعى ، وقد اخذت بين حين واخر ترفع رأسها وتنظر يمينا ويسارا ، ثم تعود الى الاكل مما لا يجعل مجالا للشك في انها تعرف انها ترتكب بأكلها من هذا الحقل الذي لم يحصد بعد جريمة محرمة عليها ، ولكن البقرة المسكينة لم تستمتع طويلا بجريمتها ، فما لبث ان برز شخص واندفع نحوها .. وطردها بعيدا . وقد كنا ونحن اطفال نحب هذه الحقول الخضراء التي لم تتحول بعد الى اللون الاصفر ، ولم تجف سنابلها وتتيبس حبوبها . فقد كنا نقطع تلك السنابل ونشويها على النار . ونأكل حبوبها فنجد لها طعما لذيذا ، واكثر ما كنا نفعل ذلك في ايام الخميس اثناء الدراسة ، عندما نخرج مبكرين عن باقى ايام الاسبوع .

وعندما وصلت الى قمة هضبة مرتفعة . استطعت ان ارى حقل جدى المسمى « بالزناد » . كان به حشد كبير من الناس ومن الحيوانات ايضا . ما بين جمال وابقار واغنام . فقد كان زناد حقلا كبيرا ، يقع الى يسار الطريق الزراعى الرئيسي الذي كنت اسير فيه . وكان يحتاج حصاده دائما الى اكبر عدد من الرجال والنساء ، قلما يرى المرء مثل عددهم في حقل من الحقول في ارجاء المنطقة . كان « الزناد » يمتد في السهل الى مساحة شاسعة ، بطول تلين يتاخمانه من الجهة الشرقية ، وكان الحصاد قد بدأ فيه منذ ايام ، ومن اجل ذلك فان القائمين بالعمل كانوا ما يزالون قريبين من الطريق ولم يتوغلوا داخل الحقل الى مسافة طويلة .

وعندما ازددت اقترابا رأيت صفا طويلا من الحاصدين ، وسمعت غناءهم يعلو على الاصوات الاخرى لما عداهم من أناس وحيوانات .

وعندما اصبحت بينهم لمحت ابن عمى شهادى واقفا بالقرب من بقراته على مبعدة قليلة وراء الحاصدين وهو يعزف على مزماره . ولكن عزفه لم يكن ذا قيمة ، لان غناء القائمين بالحصاد كان مرتفعا ويكاد يحجب صوت المزمار . وكانت بقراته التي احاطت به اثناء نومه ليلة ذهب الى تلال اشباح الجنود القتلى ورفضت العودة بدونه .. كانت تلك البقرات ترعى في الاماكن

التي تم حصادها ، وقد بدا عليها انها راضية مسرورة ، وعندما اقتربت منه كف عن العزف حتى يرد على تحيتى ، ثم ثبت المزمار تحت حزامه بعد ان شعر على ما اعتقد بان اللحظة غير مناسبة لاستمراره في العزف . اما شهدى الذي لم اركب معه عربته لدى رحيلنا صباحا من الخيام ظنا منى قبل مقابلتي لأبي انني ذاهب الى حقلنا الغراب ، فقد شاهدته وقد فصل البغلتين عن العربة فراحتا تأكلان بينما كان هو ومعه رجلان ، قد اخذوا يحملون العربة باكوام من المحصول المحصود للعودة به الى مضاربنا ، واسرعت الى مساعدتهم ، ليس بهدف المساعدة ، ولكن املا منى في ان يدعنى اعود معه في العربة واجلس فوق قمة المحصول الذي سوف ينقل عليها . ولكنه بعد ان انتهينا من تحميل العربة قال لى انه في عجلة من امره ، ولا يستطيع ان يأخذني معه ، وانه سيأخذني في المرة القادمة ، عندما يعود لينقل حملا اخر ، واستوى جالسا فوق العربة وصاح في البغلتين وهو ممسك بعنانهما ، فتحركتا وسارتا في بطء وتثاقل بادىء ذى بدء ، ثم ما لبثتا عندما ابتعدتا ان راحتا تعدوان سريعا . واخذت اتنقل في الحقل بين الكومات الصغيرة المحصودة والمتناثرة هنا وهناك والتي كان بعض النساء يحملنها وينقلنها الى الكومة الكبيرة . ورايت « ذهب » الفتاة القروية الصغيرة بينهن وهى شقيقة مطر الذي كان احد القائمين بالحصاد ، وعندما نظرت الى بشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين . تذكرت ما قصته علينا جدتى عن رجل يدعى جمعة ، كان مغرما بمغازلة صغار القرويات ، ولكنه كان لسوء الحظ ضعيف البصر . وذات مرة احضر على ابو سلامة وهو شاب من اخف رجال القبيلة ظلا ، احدى الجرار وغطاها ببعض قطع من القماش من النوع الذي تلبسه الفتيات ، وراح ينسقها بحيث تبدو لمن لا يرى جيدا وكأنها فتاة صغيرة جالسة على الارض . ووضعها مثبتا اياها جيدا قرب كومة كبيرة من الحنطة . وعندما اقبل جمعة ممتطيا جواده ، وقع بصره على الفتاة الصناعية ، فتوقف ثم اخذ يروح ويجيء امامها اكثر من مرة ، في كل مرة يزداد اقترابا منها . كل ذلك وعلى وبعض رفاقه يراقبونه خلسة عن كثب دون ان يبدوا حراكا ، وأخيرا ترجل جمعة عن جواده واتجه نحو الفتاة .. واكتشف الخدعة فثار غضبا ، وضرب الجرة بعصا في يده فحطمها ، بينما اقبل نحوه على ورفاقه وهم يضحكون ويصخبون . واحسست وانا اتحقق في (ذهب) انه لا ملامة على جمعة .. اذ كانت مخيلته قد صورت له ان الجرة فتاة صغيرة في مثل جمال ذهب .

ورأيت حمار احد القائمين بعملية الحصاد ينظر نحـو الجهـة الشمالية ، ثم يبتسم ، وعندما القيت ببصري حيث كان ينظر ، رأيت جدى مقبلا من بعيد ممتطيا صهوة فرسه الحمراء وعندما تنبه الحاضرون الى قدومه ، ازدادوا همة ونشاطا ، وضاعفوا من جهدهم ، كما تضاعفت سرعة النساء اللاتى كن ينقلن الاكوام الصغيرة الى الكومة الكبيرة . كنت اعرف انهم لا يخافون من جدى الحاج ابراهيم .. فلماذا اذن يعملون بنشاط اكثر عندما يكون موجودا ؟ وقد عرفت الان بعدما كبرت الاجابة على هذا السؤال . لقد كانوا يحترمونه ويوقرونه .. وفي الوقت نفسه يحبونه . لهذا فان تواجده احيانا في الحقل اثناء عملهم كان يشعل حماسهم ويشجعهم فيبذلون دون ان يشعروا جهدا اكبر . وعندما أصبح على مقربة من القائمين بالحصاد الذين كان يشرف عليهم ويشترك معهم في العمل ، ابنه طالب . القى عليهم التحية بصوت مرتفع فردوا جميعا عليه بصوت مرتفع ايضا . ثم نزل من فوق ظهر فرسه واصلح عنانها وربت على رقبتها فانطلقت بعيدا لترعى اينما ارادت ، ولم يكن احدا كما كنت اعرف ، ليقدم على منعها او طردها بعيدا ، فالخيول الاصيلة ذات الشهرة ينبغي احترامها اسوة باصحابها .

واخذ الحاج ابراهيم يتمشى وراء الحاصدين وكنت قد انضممت اليهم فلما رآنى ، قال :

– يبدو ان تلاميذ المدارس قد أصبحوا يجيدون عملية الحصاد في هذه الايام .. ما رأيك في هذه العملية يا بنى ؟

وكنت اشعر في ذلك الوقت بان اى شيء افضل من الذهاب الى المدرسة والبقاء ثماني ساعات بين جدرانها : والمرء يحملق خلالها في وجه المدرس . فاجبته قائلا :

– احسن من المدرسة يا جدى .

واقبلت العربة بعد قليل وهى فارغة ليتم تحميلها مرة اخرى ، فما كدت اراها حتى تركت مكانى في الصف ، وجريت نحوها . وكانت تعدو وهى بعيدة بسرعة خاطفة ، ولكنها حين دخلت الحقل اخذ شهدى يسير ببطء لكى يتفادى الحيوانات المتناثرة في كل مكان . وهكذا استطعت ان اقفز متسلقا اياها دون ان تقف . واستمر شهدى يقود بنفس البطء حتى وصلت الى كومة المحصول الهائلة ، وهناك وجدنا جملا يقوم ثلاثة رجال بتحميله ، وعندما انتهوا من ذلك ومضوا ، جاء دور العربة ، فما لبثت ان حملت ايضا ، ومضت بنا نحو

مضاربنا ، وقد جلست كما كنت اتمنى في قمة الحمل الكبير . وحاول شهدى ان يجعلني اجلس بجانبه ، ولكننى صممت على ان اظل كما انا ، مما اضطره الا يسرع اكثر مما ينبغي ، خوفا على من السقوط . وعندما وصلنا اتجهنا نحو مكان الدراس ، وامسك شهدى بشوكة واخذ يؤدى عملية دراسة الكمية التي احضرناها ببراعة ، وحاولت ان اساعده . ولكننى لم اعرف . ثم اتجهنا بعد ان انتهينا الى الخيام .

كان على شهدى في هذه المرة ان يعود الى الحقل وعربته محملة بالطعام الذي سيتناوله القائمون بالحصاد . وقد عاونته جدتى في وضعه بالعربة وبعد ان شربنا كفايتنا من الماء عدنا ادراجنا الى زناد حيث وجدنا كل الحاصدين ما بين رجال ونساء جالسين بالقرب من الكومة الكبيرة من الحصاد يتوسطهم جدى متكئا فوق كومة من المحصول . ونقل الطعام من العربة ، وتم تقسيم الحصادين الى قسمين ، قسم الرجال وقسم النساء ، ونودى على الرعاة القريبين من المكان ليشاركوا في تناول الطعام فلبى الدعوة نفر قليل منهم ، واعتذر الباقون .

ولم يستغرق تناولنا الطعام وقتا طويلا . ولكن الرجال ظلوا جالسين وهم يتحدثون ويدخنون ، كذلك ظل النساء يتحدثن ، ولكن بصوت منخفض . واثرت ان اجلس مع النساء ، فقد كانت عمتى بينهن وكان حديثها ممتعا .

وبعد ان مضت نصف ساعة على انتهاء تناول الطعام ، بدأ العمل مرة اخرى ولكنه كان اشق من المرة الاولى بعد ان امتلأت البطون ، وحمى وطيس الشمس .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية عندما حان وقت العودة ، وعندما غادرنا الحقل وقبل ان نبعد عنه كثيرا ، شاهدت اسراب الحمام الازرق تحلق فوق رؤوسنا ، ثم رايتها وهى تحط جميعها في المنطقة التي تم حصادها ، وفي المكان الذي غادرناه لتونا .

ذلك هو يوم واحد من ايام حياتى خلال عهد الصبا بالبادية .. وهو يوم عادى .. لم تتخلله احداث تثير الاهتمام .. ولكنه مع ذلك محبب الى نفسى ، يغمرني الحنين كلما تذكرت وقائعه البسيطة التافهة .

لماذا ؟

لانه حلقة من تلك السلسلة الذهبية البراقة التي تربطنى بأهلى وعشيرتي وتربطنا انا وهى ، بالأرض والوطن .

الطيور الصغيرة

وددت لو كانت لى ابنة .. إذن لكانت خير عون لى .. ان البنات أكثر رأفة وحنانا من الأولاد .

سمعت أمى تردد هذه الكلمات دائما في مناسبات عدة ، وخاصة عندما يكون لديها عمل شاق . وقد اعتادت ان تقول ذلك بلهجة اكثر صدقا وتأكيدا عندما تجلس أمام الاناء الكبير لتغسل ملابس الاسرة ، وقد أحمر وجهها من التعب ، وراح العرق يتصبب من ذقنها ليتساقط في الأناء مختلطا بالماء والصابون .

ما زلت حتى الآن اتخيلها وهى تغسل الملابس ، ثم تقوم متثاقلة من الارهاق ، لتنشرها اولا فوق حبال الخيمة ثم فوق حبل طويل أحد طرفيه مربوط في شجرة والطرف الآخر مربوط في حلقة بأحد الجدران . كانت تسير وهى تؤدي هذه العملية منهكة ، وتقف أحيانا من فرط التعب لتستريح قبل أن تصل الى الحبل . ولم يخطر ببالى ذات مرة أن أساعد أمى المسكينة ، حتى بدأت أبتعد عنها اوقاتا طويلة .. فأدركت مدى ما تعانيه من مشقة في الاعمال المنزلية ، واكتشفت صدق كلمتها التي كانت قبل أن أبتعد عن الأسرة مجرد شكاة عادية ، لا اقيم لها وزنا ولا التفت اليها ، أما بعد أن أبتعدت عنها فاننى ايقنت أن ما كانت تقوله لم يكن تذمرا عاديا . لهذا فقد ظللت أكثر من مرة في الفترات التي كنت امضيها مع الأسرة بعد ابتعادى عنها ، ان اشترك معها في غسيل الملابس ، ولكنها كانت ترفض .

ولست انسى ذلك اليوم من ايام الجمعة الذي استيقظت فيه أمي مبكرة جدا ، واعدت لنا الافطار ، ثم اتجهت بعد ذلك نحو الشجرة الضخمة ذات الأفرع المتكاثفة ، لتجلس تحتها وتشرع في تلك العملية الشاقة .. عملية غسل ملابس جميع افراد الأسرة . لقد شعرت وقتها انها في حاجة ماسة الى المساعدة ، فقد ظلت تشكو منذ يومين من صداع حاد في رأسها . وقلت لها في اصرار :

ـ هذه المرة سوف اساعدك يا اماه .
ولكنها ابتسمت قائلة :
ـ انت رجل ، وهذا العمل لا يلائم الرجال . ثم انك على كل حال لا تعرف كيف تؤديه . لو ان عبلة لا زالت معنا لساعدتني . ان على ان اقوم بكل اعباء المنزل حتى اراك وقد تزوجت . وقد تساعدني زوجتك وقتذاك .

وحاولت بشتى الطرق اقناعها بانني اجيد هذا العمل ، واوضحت لها اننى ظللت طوال العام الماضي الذي تغيبته اغسل ملابسى بنفسى . ولكنها اصرت على الرفض وابدت حزنها لانني تحملت مشقة غسيل ملابسي أثناء غيابي .

لم تكن عبلة موجودة معنا لكى تساعد امى .. وهى لن تعود ذات يوم لتفعل ذلك . كانت في الرابعة من عمرها عندما رأيتها لآخر مرة . وكانت لها نفس تقاطيع وجه يحيى أخى الأصغر ، وكانت لها منزلة خاصة في قلب كل من أبى وأمى ، لأنها الانثى الوحيدة بين اخوتى . وقد اعتاد اخوها الاكبر منها مباشرة أن يغار منها .. ولكنها على الرغم من ذلك كانت محبوبة من جميع افراد العائلة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم من ايام الخميس ، الذي انصرفت فيه من المدرسة ومعى نفر من اصدقائي التلاميذ ، ونحن في طريقنا الى مضارب خيامنا . وكنا سعداء لأن الخميس يتبعه يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة ، ولاننا انصرفنا كما هى العادة في ايام الخميس مبكرين ، ولم نكن نحضر معنا في هذا اليوم من الاسبوع طعامنا لعلمنا باننا سننصرف في الحادية عشرة . وعلى الرغم من احساسنا بالجوع ونحن في طريق العودة الى الخيـــــام ، لم نترك فرصة للعب الا وانتهزناها ، فاحيانا نتسابق عدوا واحيانا نتبارى في القفز ، الى أن ادركنا اخدودا جافا به حجر مستطيل تكون بفعل تآكل التربة فاصبح يشبه النفق ، وقد اعتاد بعضنا أن يدخل من فتحته ويخرج من الفتحة الاخرى ، التي تبعد عن الاولى حوالى اربع ياردات هى طول ذلك الحجر . ولما كان حماد نحيف الجسد جدا فانه اعتاد أن يلعب تلك اللعبة ببراعة ولم يكن يجد صعوبة في ذلك . وقد حاول اربعة منا في ذلك اليوم اختراق ذلك النفق فنجح اثنان ، وفشل الاخران نظرا لضيق الفجوة . وعندما جاء دور حسن ، وكان صبيا بدينا ، تردد اولا ، ولكن حمادا راح يفخر عليه ويتحداه ، فما كان

من الصبى البدين الا ان دخل براسه في فتحة الخندق وراح يدفع بجسده داخله بكل قوته فمضى قليلا ولكنه ما لبث وهو في وسط المسافة ان عجز عن المضي ،وانحشر جسمه البدين حيث هو ولم يعد قادرا على الحركة لا الى الامام ولا إلى الخلف . وارتفع صوته مستغيثا يطلب النجدة . وراح بعضنا يضحك ، ولكن البعض الآخر استولى عليهم القلق ، وادركوا خطورة الامر . وكان حماد ممن استولى عليهم القلق فقال :

– سأزج بنفسى خلفه واحاول ان امسك بقدمه ، ثم عليكم بعد ذلك ان تجذبوني الى الخارج .

دون أن ينتظر اجابة منا ، دخل النفق ، واستطاع أن يمسك حسنا من قدميه ، وبدأنا نحن نجذب حمادا من كلتى قدميه ايضا . ولم تستغرق المحاولة سوى دقائق قليلة ، خرج بعدها حسن سالما ، ولكن بملابس متسخة وسحجات صغيرة في وجهه وذراعيه . ورحنا هذه المرة نضحك جميعا فيما عدا الصبي البدين ، فقد كان مشغولا في تحسس وجهه وتنظيف ملابسه . وما لبث ان نظر نحو حماد قائلا :

– انى أتحداك في السباحة ، غدا في البركة .

وقبل حماد هذا التحدي وهو لا يكف عن الضحك . ووافق الجميع على الذهاب غدا الى البركة التي في وادى الحيسى ليروا نتيجة هذا التحدى . فيما عداى . فقد كنت على موعد مع ابى للذهاب في يوم الجمعة للصيد .

كان والدى قد اعتاد في الايام التي لا يكون لديه فيها عمل ان يحمل معه بندقيته ذات الماسورتين ، ويمتطى جوادنا الاسود ، ثم يذهب للصيد بمفرده وقد يصطحبني معه او يصطحب احد اشقائي .. وقد اعتاد أن يذهب الى وادى الحيسى لاصطياد البط وغيره من الطيور المائية . أو الى المستنقعات حيث توجد أسراب كبيرة من طيور القطاذات السيقان الحمراء . وكان جواده مدربا على الوقوف ساكنا عندما يرى الطيور ليمكن راكبه من احكام التصويب

ولاحظنا جميعا عندما أشرفنا على أرض قبيلتنا أن ثمة شيئا غير عادى هناك ، وان بعض الناس قد تجمعوا امام احدى الخيام . واكتشفنا عندما اقتربنا أن تلك الخيمة هي خيمة اسرتي . راينا اناسا يدخلونها واناسا يخرجون منها . ورحنا نخمن السبب في ذلك واجمعت آراؤنا على ان احد

الباعة المتجولين ممن يبيعون ضمن ما يبيعون تلك الحلوى الملوثة اللذيذة لا بد قد وصل الى الخيام . ولكن حماد ما لبث ان قال :

– لست ارى عربة البائع او حماره .. انهم اناس فقط قد تجمعوا .. رجال ونساء واطفال .

فأجابه احدنا .

– لا شك انه شيء آخر غير البائع .

وهرولنا جميعا عندما وصلنا نحو خيمتنا . وهناك رايت لفيفا من افراد القبيلة ، بعضهم جالسون ، والبعض الآخر واقف على قدميه . وشعرت بانهم ينظرون إلي وقبل ان ادخل الخيمة ناداني على . وهو احد افراد القبيلة الذين عرفوا بحضور الذهن وطلاوة الحديث . واخذ يحدثني دون ان اطلب منه عن اشياء اعتدت ان اساله عنها فادركت انه يحاول ان يلهيني عن دخول الخيمة . وتسارعت دقات قلبي ، واندفعت تاركا اياه الى داخل الخيمة . على الرغم من مناداته علي ورجائه لي بعدم الدخول .

كانت امى جالسة بجوار فراش شقيقتى عبلة ومعها بعض النسوة . وكان عمى ايضا واقفا هناك ، علاوة على عدد من الاطفال الذين كانوا يحاولون معرفة ما يحدث . وزججت بنفسي بين من احاطوا بالفراش ، فرايت والدتي تضع يدها فوق جبين عبلة وكانت الطفلة الصغيرة ذات الاربع سنوات مسجاه على الفراش ، ولا حراك بها .

كنت أعلم انها شكت من بعض الالم منذ يومين ولكن الامر لم يبد من الخطورة بمكان . والقت امى ببصرها نحوى . ولكنها ظلت صامته لا تتكلم . وادركت في الحال ان عبلة تموت ، وان المحيطين بالخيمة في الخارج ينتظرون نبأ موتها بين حين وآخر . لم يكن الوقت يسمح باستدعاء طبيب ، ليخفف على الاقل عنها آلام النزع الاخير . وتحملت المسكينة تلك الآلام بمفردها .. حتى لفظت انفاسها الاخيرة بعد قليل .

لم يبك احد سوى امى وجدتى .. وانا .

ولم تمض ساعة واحدة حتى كانت عبلة جاهزة للدفن .. وبعد أن لفوها في ملاءة جديدة ، صلوا عليها . ثم حملها ابى امامه فوق جواده الاسود متجها بها نحو المقابر . وكان قد سبقه الى هناك بعض الرجال حاملين ما يلزم من ادوات . وتبعتهم امى مع عدد من النساء . وعندما حاول اخوتى الصغار

الذهاب معهن ، منعتهم عمتى وظلت معهم في الخيام ، اما انا فقد ذهبت دون ان يمنعنى احد .

وعندما وصلنا ، رايت القبور المبعثرة هنا وهناك بين اشجار كثيفة تنمو دون عناية او نظام . ووضعوا عبلة داخل القبر الذي كان قد تم حفره . وراحوا يهيلون عليها الرمال . ثم رشوا سطح القبر بالماء ووضعوا حجرا على كل من طرفيه .

وعدنا جميعا تاركين عبلة بمفردها .

وتذكرت اثناء عودتى ما قاله مدرسنا ذات مرة ، عما يحدث للأنسان بعد الموت . وكان مما ذكره لنا «ان صغار الاطفال عندما يموتون يذهبون جميعا مباشرة الى الجنة دون حساب ، لانهم لم يرتكبوا ذنوبا يستحقون من اجلها العقاب . كما أكد لنا انهم يصبحون عندما يذهبون الى الجنة طيورا صغيرة جميلة .. كعصافير الجنة » . وعندما وصلت الى هذا الحد من تفكيري ، اخذت اتخيل شقيقتي عبلة وقد تحولت الى طائر صغير احمر الذيل ، يطير متنقلاً هنا وهناك في ارجاء حديقة خضراء . فقد اعتدت بعدما سمعته اكثر من مرة ، من المدرس ، ومن عجائز نساء القبيلة خلال اقاصيصهن ، ان اتصور الجنة حديقة خضراء .

وعندما وصلنا بعد عودتنا الى مضاربنا ، وجدت احد اشقائي الصغار ينتظرنا على مبعدة من الخيام ، وراح يعدو نحونا ، وعندما رأى أمى سألها قائلا :

– اين عبلة .. ؟
– رحلت بعيدا .
– ومتى تعود يا اماه ؟
– انها لن تعود .. فقد ماتت .

ولما لم يكن لدى الطفل فكرة ما عن الموت ، فانه قد اجابها غاضبا :

– كلا .. سأذهب الى ابى .. واجعله يحضرها ..

في صباح اليوم التالى .. وهو يوم الجمعة . لم اذهب مع ابى للصيد .. كما لم اذهب مع رفاقي للسباحة في بركة وادى الحيسى .

العودة

فوق تل من التلال ، وبين مجموعة من الاشجار الباسقة ، كان يقوم مبني مكون من حجرة واحدة لا غير . وكان هذا المبنى هو مدرسة الجبارات .. والجبارات هو اسم قبائلنا التي يبلغ عددها اربعة عشرة قبيلة تعيش على جانبي وادى الحيسى ، ويستطيع من يقف فوق قمة ذلك التل ان يرى خيامها مبعثرة في الوادي هنا وهناك على مسافات متفاوتة من المدرسة . وكان صبية القبائل البعيدة يأتون لتلقي الدراسة على ظهور الجياد او الحمير ، اما نحن فقد كنا نذهب ونعود سيرا على الاقدام ، لأن المدرسة قريبة منا ، بل وتقع في ارض قبيلتنا .

ولكن كان علينا ان نستيقظ ، على الرغم من قرب المدرسة مبكرين جدا ، وان نتناول بعض اللبن المحلوب لتوه ، ثم نضع غذاءنا البسيط في حقائبنا الصغيرة المصنوعة من القماش ومعه كتبنا ، ونغادر الخيام قبل شروق الشمس يوميا فيما عدا يوم الجمعة . وقد اعتدنا ان نذهب الى المدرسة على هيئه جماعة واحدة . لذلك كنا ننادى بعضنا البعض من خارج الخيام . وكنا ونحن في طريقنا الى المدرسة نحسد الرعاة عند مرورنا عليهم ، معتقدين انهم سعداء لانهم لا يذهبون إلى المدرسة ، ولا يمضون الوقت الطويل الذي نمضيه مع ذلك المدرس الشيخ الصارم ، والذي كان يعاقب الكسالى من تلاميذه عن طريق تكليفهم بجمع الحشائش وتقديمها لحماره ، وكنت أعرف ان كثيرين من رفاقي قد اعتادوا ان يتكاسلوا عمدا ، ليكلفهم بذلك فتسنح لهم فرصة مغادرة المدرسة لوقت طويل .. بل أننى في الحقيقة كنت أنا أفعل ذلك أيضا في بعض الاحيان :

وذات ليلة ، أعلن أبى أن المدرس مدعو لتناول الطعام عندنا في مساء الغد . وقد استولى السرور على لهذه الدعوة المفاجئة . استيقظت في الصباح مبكرا عن المعتاد ، وحملت حقيبتي ، ومضيت مع رفاقي الذين كانوا لا يقلون عنى فرحا بهذه الدعوة التي وجهها ابى الى مدرسنا العجوز . واخذنا في ذلك

الصباح نحث الخطا اكثر من كل يوم نحو المدرسة لنبشر المدرس بهذا النبأ السعيد .

ووجدنا المدرس جالسا في الجهة الشرقية للمدرسة وهو مشغول باطعام حماره تحت شجرة كثيفة . وعندما قرأ الدعوة الخطية التي ارسلها أبى اليه معي . لانت أسارير وجهه ، وابتسم ، واختارني لدق الناقوس النحاسى الكبير ايذانا ببدء الدراسة .

وبعد الظهر ، ركب المدرس حماره ، وتبعناه جميعا . وكان الرعاة ونحن نجتاز السهول الخضراء ، يقبلون نحوه ويحيونه . فقد كانوا تلاميذه قبلنا . وعندما اقتربنا من الخيام . عدوت نحوها لأعلن نبأ وصول معلمنا ، ولكن حماره عندما لمح حمير القبيلة سبقني في الاعلان عن مقدمه بنهيق حاد . وأقبل الناس مسرعين لاستقبال المدرس ، فقد كانت التقاليد تقضى باستقبال الضيوف ذوى الشأن قبل وصولهم الى الخيام بمسافة كافية . واقتياد دوابهم لربطها واطعامها .

وسمعت في تلك الليلة أبى يتحدث في حضور المدرس عن مدرسة رائعة ، في مدينة بير السبع ، وهى مدينة اعتاد ان يذهب اليها ثلاث مرات في العام من أجل مناقشة شئون قبائلنا مع المسئولين الحكوميين . وقد قال أبى :

ـ انها مدرسة عظيمة ، مبنية بالطوب الأحمر وتحوطها اشجار كثيرة ، ويذهب اليها معظم أبناء مشايخ البدو ، وهم يرتدون نفس الملابس العربية التي نرتديها، وهم يتعلمون فيها أشياء كثيرة .

وقد وافق المدرس على ما قاله ابى ، وعندما أعلن هذا انه قرر ان يبعث بى الى تلك المدرسة حبذ المدرس الفكرة . ووافق بعض الحاضرين على فكرة ابى . اما البعض الآخر فقد رأوا انه من العسير على صبى صغير مثلى ان يغترب وهو في تلك السن ، وان يرسل به إلى مدينة نائية مثل تلك المدينة ليعيش بين أناس غرباء عنه . ولكن والدى استطاع اقناعهم بفائدة هذا الاتجاه الجديد في تعليم أبناء القبيلة ، واعرب عن رجائه في ان يحذو الآخرون حذوه فيبعثوا بأولادهم الى تلك المدرسة ، ليصبحوا في المستقبل اطباء ومهندسين ، وضرب لهم مثلا بعلى ، وهو احد ابناء شيوخ القبائل ، الذي اصبح طبيبا ذائع الصيت .

وفي نهاية صيف ذلك العام ، ركبت ذات صباح خلف والدى جوادنا الادهم . وغادرنا الخيام ، ومعنا ابن عمى فوق جواد آخر . لكى يعود بجوادنا بعد أن نصل الى اقرب محطة للأوتوبيس ، وكانت تقع على بعد خمسة اميال من مضاربنا . وكان عدد كبير من افراد القبيلة في وداعى ، اذ انني كنت اول صبى في القبيلة ، يترك والديه ويغترب من أجل أن يتعلم . وشعرت بالحزن عندما لكز والدى الجواد بركابه فمضى يحملنا بعيدا عن الخيام . وازددت حزنا عندما رأيت امى تلوح لى باحدى يديها وتمسك في اليد الاخرى احد أشقائي الصغار ، الذي كان يحاول اللحاق بنا ظنا منه اننا ذاهبان للصيد . وتبعنا كلبنا الأبيض دون ان يكترث بتهديدات ابن عمى له واصر على ملازمتنا حتى وصلنا الى محطة اللأوتوبيس .

وعندما وصلنا بئر السبع ، كان المساء قد حل ، واشار ابى الى المدرسة عندما مررنا بها . وقضينا الليلة في المدينة وقد نمت في الحال لشدة تعبى . وعندما استيقظت صباحا استولت على دهشة شديدة ، عندما سمعت ما لم اسمعه من قبل من ضجة ناشئة عن اجهزة التنبيه في السيارات ونداء الباعة ، وغيرها من اصوات لم اعتدها .. وكان كل شيء اسمعه او أراه جديدا وغريبا بالنسبة لى ، فيما عدا والدي الذي ظل بالقرب منى طوال الوقت وهو يؤكد لى اننى سأعتاد كل شيء عما قريب ، وانه سرعان ما سوف تعجبنى تلك المدينة الجميلة . وبعد ان تناولنا طعام الافطار : ذهبنا الى المدرسة . ودخلنا من بوابة ضخمة ذات قضبان حديدية خضراء . وشاهدت في فناء المدرسة عددا من الاولاد يرتدون ملابس البدو ، وقد كانوا اكثر نظافة وهدوءا من رفاقي في مدرستى الاولى .

وفي داخل المدرسة ، رايت عددا كبيرا من المدرسين ، الذين يختلفون اختلافا كبيرا عن مدرسي السابق ، فقد كانوا شبانا صغارا ذوى رؤوس عارية وسترات انيقة . وعندما قادونا الى حجرة ناظر المدرسة ، وجدته رجلا اسمر متجهم الوجه يرتدى فوق رأسه طربوشا احمر . وكان يجلس الى مكتب ضخم وبعد ان رحب بنا نادي على احد المدرسين ليريني سرير نومى في احدى القاعات الكبيرة بالمدرسة . وليريني حجرة الدراسة الخاصة بى ، وليعطيني مفتاح خزانتي في قاعة النوم . وبعد ان تم ذلك عاد بى المدرس مرة اخرى لأودع ابى الذي سرت معه حتى البوابة الحديدية الخضراء حيث قبلني ، واوصاني ان أكون مؤدبا ، وان اعمل بجد حتى اكون مفخرة لقبيلتنا .

ودق ناقوس المدرسة ، فأسرعت وانضممت الى الصف الخاص بفرقتي ، بين الصفوف المتراصة من التلاميذ وسط الفناء .

وفي الظهر دق جرس الغذاء فذهبنا الى قاعة الطعام ، التي كان يسودها النظام التام ، والسكون الشامل . وشعرت بحنين الى رفاقي في البادية ، وتذكرت الشجرة الخضراء الكبيرة التي اعتدنا ان نتناول الطعام تحتها بجوار المدرسة التي فوق التل .

وبعد ان انتهت الدراسة ، اخذ التلاميذ فيما عداى واثنين او ثلاثة آخرين من بين الجدد ، يمارسون العابا مختلفة . وكنت اعرف معظمها ولكنني لم استطع الاشتراك معهم لانني كنت مرتبكا ومشوش الذهن تماما ، لا اكف عن التفكير .

وعندما دق جرس العشاء اسرع التلاميذ الى الوقوف في صف طويل . ولم اكن لكثرة ما كنت افكر في ابى وامى واخوتى ورفاقي متحمسا لتناول الطعام ، فلم اسرع مثلهم ووجدت نفسي واقفا في آخر الصف .

ويبدو ان كل اولئك التلاميذ القادمين من البادية قد مروا بمثل تجربتي وانتابهم في اول الامر مثلما انتابني من حزن .. بل ووجدوا انفسهم واقفين ايضا في اخر الصف لانني ما كدت امضي اسبوعا او نحوه في المدرسة حتى أقلعت عن كثرة التفكير في اهلى وعشيرتي ، وانضممت الى التلاميذ ، ورحت اشاركهم لعبهم ومرحهم . والعب كرة السلة وارافقهم في رحلاتهم خارج المدرسة .

ومضت شهور اربعة ، حلت بعدها اجازة نصف السنة واصبحنا على وشك ان نعود الى عائلاتنا . وعمت الفرحة قلوبنا . واخذ كل منا يجهز حاجياته . ونحن ننتظر يوم الخميس بفارغ الصبر . وفي مساء الاربعاء ، سمحوا لنا بالتوجه للمدينة لابتياع ما نريد وهكذا اشتريت بنقودي القليلة التي كنت قد اقتصدتها لهذا الغرض ، بعض اللعب الصغيرة لأخوتى . وفي تلك الليلة لم نستطع النوم ، وظللنا نرقص ونغنى طوال الليل وفي الصباح ذهبت دون انتظار لتناول طعام الافطار الى محطة الاوتوبيس الذي كنت قد حضرت فيه مع ابى . وكنت اعرف المكان الذي سوف انزل فيه ، فطلبت من السائق ان يتوقف به .

وعندما هبطت من السيارة ومضت في طريقها وجدت نفسي وحيدا ، انظر بشوق الى حقول القمح ، والطيور وهى تطير وتغني في مرح وسعادة . ورايت رجلا يقود جملا فلحقت به وسألته عن موقع ارض قبيلتنا ، فارشدني وعرض على مرافقتى فشكرته ، ومضيت بمفردي .

وعندما ادركت التلال المتاخمة لأرض القبيلة رآني بعض افرادها من الرعاة ، واقترب منى بعضهم ، فعرفني وصاح برفاقه فجاء معظمهم ، واخذوا يعبرون عن فرحهم بوصولى ، واحسست بسعادة غامرة وهم يلتفون حولى . ولم اكن قد تبينت حتى تلك اللحظة الطريق الى الخيام ، فارشدوني الى موضعها ، واصر سالم على ان يصحبني اليها وعلى ان يحمل عنى حقيبتى .

وزودني سالم اثناء سيرنا بأنباء مختصرة عما حدث اثناء غيابي . وقال ضمن ما قال :

ـ لقد تزوج أخوك ابراهيم من فاطمة . وكان يوما عظيما حقا اقاموا فيه سباقا للخيل .

وذكر لى ان فرسنا السوداء قد ولدت مهرة صغيرة جميلة الشكل ، واكد لى ان احدا من افراد القبيلة لم يمت ، وان الجميع على ما يرام . واضاف انه يعرف مكان عش طائر من طيور القطابه افراخ صغيرة . ووعدني بان يريني اياه في اول مرة اخرج معهم فيها خلال الايام القادمة .

وادركنا تلا مرتفعا استطعت من فوق قمته ان ارى خيامنا الحبيبة قائمة وسط سهل اخضر مزهر جميل . وتسارعت دقات قلبي من الفرح ، واوشكت ان اترك سالما واعود نحوها ولكنى تحكمت في عواطفي . وظللت اسير معه .

وقال سالم مشيرا باصبعه :

ـ هذه خيمتكم .. انها الواقعة بجوار خيمة جدك .. الكبيرة .

وعندما شعرت الكلاب بقدومنا اخذت تجرى نحونا وهى تنبح .. ولكنها عندما اقتربت منا وتعرفت علينا ، كفت عن النباح وراحت تهز أذنابها . وكنا ما زلنا على مبعدة قليلة من الخيام . وخرج رجل عندما سمع نباح الكلاب من خيمة القبيلة الكبرى . وظلل عينيه بيده ناظرا نحونا ، وبدا

انه عرفنا . اذ ما لبث ان دخل الخيمة مرة اخرى وخرج ثانية ومعه عدد من الرجال والنساء والاطفال . اقبلوا جميعا نحونا لاستقبالى واخذ اخى الاصغر يجرى نحوى وهو يصيح فرحا .. وعندما ادركنى احاط عنقى بذراعيه واخذ يقبلني بشغف ، ورايتنى بعد قليل محاطا بأبى وامى وبقية اخوتى وهم يستقبلوننى جميعا بشوق شديد . وكانت ليلة سعيدة لم أكد انام خلالها على الرغم من شدة تعبي .

ومرت فترة العطلة ، وهى ثلاثة اسابيع وكانها ثلاثة ايام ، وعدت بعدها الى مدرستى وانا حزين .

ومضى عامان .. ظللت اثناءهما اتردد على القبيلة في العطلات المدرسية

وذات مرة . وكانت الأخيرة .. عدت في احدى العطلات من المدرسة . وغادرت سيارة الأوتوبيس في البقعة التي اعتدت النزول فيها دائما اتحرق شوقا للوصول الى الخيام .

كنا في اول فصل الصيف ، وكان الوقت عصرا .. وشعرت بعد ان سرت قليلا بهدوء غريب يحيط بى ..

كانت حقول القمح والعدس والشعير قد نضجت واصفر لونها .. ورأيت بعض مساحات منها قد تم حصادها واصبحت ارضها عارية الا من كومة المحصول العالية التي تتوسط كل حقل في انتظار من ينقلها فوق ظهور الجمال او بالعربات التي تجرها البغال الى مكان الدراس . ولم اتنبه في اول الامر الى ان بقاء تلك الاكوام هكذا دون ان تنقل وعدم وجود احد بالقرب منها .. امر غير طبيعي . وظللت اسير على قدمى واسير .. واسير ، دون ان ارى احدا : لم يكن يصادفني اثناء سيرى الا اسراب الطيور الصغيرة . والحمام الازرق وهى تتغذى على فضلات المحصول في الحقول المحصودة .. واستولت على الدهشة المصحوبة بشيء من الرهبة ، عندما اكتشفت اننى قد سرت كل هذه المسافة دون ان يصادفني إنسان أو حتى حيوان ..

وتذكرت على حين فجأة ما كنت قد سمعته وانا في المدرسة من غارة شنها الاسرائيليون على احدى القرى المجاورة ، وعما سببته تلك الغارة من خسائر في الاموال والارواح .. أيكون قد حدث مثل هذا الشيء هنا ؟

كانت الشمس تنحدر سريعا نحو الغروب . وتمنيت ألا تغرب ، فقد

احسست عندما خالجتنى تلك الافكار بوحدة قاسية .. فحتى الطيور والحمامات الزرقاء قد بدأت عندما دنا قرص الشمس من الافق ترحل ، واخذ معظمها يحلق في الجو متجها الى ما وراء التلال ، وعندما لم يبق لى شيء ينبض بالحياة بدأت احث الخطا في سيرى حتى اصل قبل غروب الشمس الى حيث تضرب قبيلتى خيامها في فصل الصيف بالقرب من المساكن الجديدة التي كان بعض افراد القبيلة قد بدأوا تلك الفترة في بنائها .

وعندما اقتربت من المكان .. رأيت المساكن قائمة مكانها ، ولكنها كانت ساكنة كالقبور ، ولم ار أثرا للخيام . وكل الذي رأيته مكانها رقع ممهدة من الأرض اكثر بياضا مما حولها ، وفوق هذه الرقع كانت توجد بضع قطع من الحجارة السوداء . وعرفت في الحال ان تلك الرقع البيضاء هى آثار الخيام التي نقلت من مكانها حديثا . وان الحجارة السوداء هى بقايا المواقد التي لا تخلو في العادة منها خيمة ، وتحطم قلبي لهذا المنظر ، ولكننى تقدمت مع ذلك حتى اصبحت في وسط تلك الأطلال .

لم يكن هناك شيء سوى بعض الخرق البالية والحبال والاوتاد ، والاوانى المهشمة . وعلى مقربة من اكبر تلك الرقع البيضاء – وهى كما استنتجت الرقعة المنخفضة عن خيمة جدى – رأيت كلبته البيضاء .. واخذتنى الدهشة لتمسكها بعد رحيل سيدها بالبقاء ، ولكنى ما لبثت ان عرفت السبب عندما رأيت جروا صغيرا بجوارها . ثم ميزت حولها ثلاثة آخرين ، واخذت الأم تنظر نحوى في سكون دون ان تنبح ، وهى تهز ذيلها .. ثم اقتربت منى هى وصغارها ، كما لو كانوا قد وجدوا في رفيقا جديدا لهم ، او لعلهم ظنوا ان القبيلة عائدة عما قريب .

وغمرنى حزن شديد .. ونظرت الى الغرب فرأيت قرص الشمس وقد اختفى معظمه وراء التلال .. تلك التلال التي كانت ذات يوم مهدا لحياة رغدة هنيئة . وموطنا للحب والسعادة ، والكرم والرخاء .

وناديت على الكلبة لعلها تتبعنى ، وانا اتمنى لو فعلت . فقد بدأت وقد اخذ الظلام يرخى سدوله ، اشعر بالخوف ، ولكنها ظلت مكانها تنظر حينا الى صغارها وحينا الى ، وما لبثت ان تبعتنى . وانصرفت مغادرا المكان وهى ورائي . غير انها لم تكن تكف عن النظر خلفها ، وفجأة رأيتها قد وقفت مكانها

لا تتقدم او تتأخر شبرا على شبر ، على الرغم من مناداتى عليها بالحاح . وعندما تبين لى انها لن تتبعنى ، مضيت في طريقى وحيدا ، وانا اكثر حزنا .. وخوفا .

وحزمت رأيى على ان اسلك في عودتى الطريق الرئيسي الذي يخترق وادى الحيسي باعتباره اكثر الطرق أمانا . وبعد مسافة قليلة طرق اذني صوت الكلبة ، لم تكن تنبح بل كانت تعوى عواءا محزنا اليما . كما لو كانت تنادينى ومضيت في طريقي وقد امتلأت عيناى دموعا .

وشعرت فجأة بعطش شديد عندما أدركت الوادى ، حيث يوجد مجرى من الماء كنت اعرفه ، وعندما اتجهت اليه لأشرب انتابني خوف شديد اذ تذكرت ما قيل لنا ونحن اطفال من ان كثيرا من الوحوش تزور ذلك المجرى في جنح الليل من اجل ان تشرب ، وكان لا بد من ان أروى ظمأى .. فلم اجد امامى سوى ان اتقدم نحو المجرى ، بعد ان اخرجت مطواة صغيرة كانت في جيبي وفتحتها . وكان نقيق الضفادع يملأ المكان من حولى وانا اقترب من الماء .

وسمعت اثناء شربي صوتا يصيح في الظلام قائلا :

ـ من هناك .. ؟

واخذني الرعب ، وذكرت اسمى في الحال دون اى تفكير . وسمعت صوتا مألوفا لدى يقول :

ـ لا تخف .. : انا ابراهيم .

ولم اكد اصدق نفسى عندما رأيت اخى الاكبر ابراهيم ومعه ثلاثة رجال آخرون ، وعلمت منه انهم قد جاءوا خفية في الليل ومعهم جمالهم ليحملوا بعض القمح الذي خلفته القبيلة وراءها مضطرة قبل ان ينزح افرادها عن ارضهم .

واحاطوني علما وانا اسير بينهم بأنباء مختلفة زادتنى حزنا . وقال شهدى ، الذي كان احد المرافقين لأخى :

ـ لن تمضى ايام حتى نكون قد عدنا .

ولكن .. ها هى ثمانى عشرة سنة قد مضت ولم نعد .. : وها آنذا ، كلما انفردت بنفسى وخصوصا في المساء آتذكر آثار الخيام .. والرقع البيضاء .. وفوقها الحجارة السوداء .. وكلبة جدى وهى تنظر الى مع صغارها في ساعة الغسق بتوسل ورجاء .. ها أنذا .. كلما اشتد بى الحنين في المساء وضقت ذرعا بالوحدة والاغتراب .. يدوى في اذنى ذلك البكاء والعواء ..

عواء الكلبة البيضاء ..

البيت الذي على مقربة منا

على بعد اميال قليلة من وادى الحيسى ، وفي الجهة الغربية منه يقع واد اخر كبير ، وياخذ هذا الوادى في الاتساع شيئا فشيئا كلما اتجه غربا . حتى يصل الى شواطىء البحر الابيض المتوسط . ولست اعرف من اين يبدأ هذا الوادى وكل ما اعرفه انه يمر وسط الاراضي التي تقطنها قبائل الجبارات ، وانه يخترق ارض قبيلتي (قبيلة الدقس) . وقد اعتاد كثيرون من افراد تلك القبيلة زراعة ، اشجار الفاكهة في ارض ذلك الوادى . وفيما عدا المساحات الخضراء التي تحتوى هذه الاشجار فان الوادى كان قفرا تماما .

وفي بقعة من بقاع هذا الوادى ، وفي النقطة التي يتفرع منها الاخدود الممتد من ارضنا الى ارض قبيلة السوارقة ، اختار ابى قطعة ارض ، وزرعها باشجار التين والعنب . ولست اذكر متى بدأ ابى بزراعة ذلك البستان . فقد اعتدت منذ صغرى ان ارى اشجاره الخضراء البالغ عددها بضع مئات ، على جانبي الاخدود الذي يخترق منطقة من ارضنا تبلغ مساحتها حوالى عشرة دونم . وكانت الارض في ذلك المكان خصبة وجيدة الامر الذي ادى الى ان ذلك العدد القليل من اشجار التين والكروم ، كان كفيلا لكثرة ما تحمله كل شجرة من ثمار ، بسد احتياجات اسرتنا ، علاوة على الهدايا التي كان ابى يرسلها من حين لآخر لاصدقائه من البدو الذين لا يملكون بساتين للفاكهة .

وقد اعتاد ابى ان يتولى بنفسه هذه الاشجار طوال العام في الاوقات التي يجد نفسه فيها غير مقيد بعمل آخر . وعلى الرغم من ان تلك البقعة كانت بعيدة عن مضارب خيامنا ، الا ان افراد الاسرة كانو يترددون دائما عليها . وقد اعتدت خلال عطلتي الصيفية ان اذهب الى هناك معظم الايام . ولم يكن البستان محاطا بجدار او سياج ، الامر الذي كان يستدعى ان نتردد انا واخى حسن ، الذي يكبرني ، بقدر ما نستطيع على تلك الاشجار لصيانتها . وابعاد الحيوانات الضالة عنها .

وفي الجزء الشمالى من الاخدود وعلى مقربة من اشجارنا ، كان يقع بستان آخر ، هو بستان ابو زيد . الذي يحتوى ضمن ما يحتوى صفا من اشجار الكمثرى الشائكة تتدلى بعض فروعها فوق ارضنا ، والبعض الآخر فوق ارض ابو زيد ومع ان الرجل هو الذي زرع تلك الاشجار ، الا انه كان من الكرم بحيث طلب منا ان نقتطف ما نشاء من ثمار من الافرع المطلة علينا ، كما انه كان يملك ثلاث كرمات يتاخر نضج العنب فيها الى ما بعد انتهاء الانواع الاخرى ، وقد اعتاد اهداءنا بعض سلال من عنبها في الوقت الذي تكون فيه الانواع الاخرى قد انتهت .

كان يدعى ابو زيد بسبب سمرته الشديدة ، وقوته البدنية . وطبيعته الانطوائية . إذ كل هذه الاوصاف تنطبق على ابى زيد « الهلالى » احد ابطال العرب الغابرين ، وكان ابو زيد يعيش بصفة دائمة في بستانه المنعزل داخل منزل من الطمى له سقف خشبي . ونظرا لان العيش بعيدا عن الناس امر لا يتفق مع طبائع البدو وتقاليدهم فان أبا زيد كان يبدو لنا رجلا غريب الاطوار ، وقد اعتدت انا نفسى ان اشعر بشيء من الخوف كلما مشيت بالقرب من بستانه . وكان يملك ثلاث بقرات وجملا وحمارا اسود علاوة على كلبين شرسين

عندما بدأت معرفتي بابى زيد ، كانت زوجته قد ماتت منذ فترة ، تاركة له ابنتين وولدين . وكانت الفتاة الكبرى في السابعة عشر من عمرها تقريبا ، غير انها كانت كما شاهدت طوال معرفتي لهم ، بمثابة الام لاخوتها . وقد لاحظت ان اباها لا يعاملها كابنته ، بل كصديق .. صديق رأى ما هو فيه من متاعب بعد موت زوجته ، فخفت الى تقديم يد العون له ، ومساعدته في تربية اولاده الاصغر منها ، ورعايتهم ، والحقيقة ان الفتاة كانت خير من يقوم بذلك ، لان قلبها كان يزخر على الرغم من صغر سنها بتلك العاطفة السامية التي يتميز بها بعض الاناث منذ صغرهن ، وحتى قبل ان يتزوجن .. وهى عاطفة الامومة . وهكذا اعتاد ابو زيد ان يترك كل شئون المنزل لابنته وكثيرا ما كان يرد علينا ، عندما نسأله عن شيء قائلا :

ـ اذهبوا اليها واسألوها .

كان الاب يلازم بيته دائما ان لم يكن لديه عمل في الخارج . ولم يحدث قط ان رأيت احدا من قبيلته يزوره او يساعده في عمله . وكنت اعلل ذلك بانه

يقيم على مبعدة اميال قليلة منهم . واقول في نفسي : « لعلهم قد نسوه » ومع انني لم اره قط في الخيمة الكبرى لقبيلتنا ، الا انه كان اكثر اختلاطا على العموم بافرادها من اي افراد آخرين ، حتى ان بعض الاطفال كانوا يظنونه من قبيلتنا . وكنت اراه وهو يتحدث الى ابي عندما يحضر هذا في اوقات فراغه الى بستان فاكهته المجاور لمنزل ابي زيد ولم تكن العلاقة بينهما ، كما خيل لي ، مجرد علاقة جار لجاره ، بل كانت تتجاوز ذلك الى شبه صداقة بينهما . فقد اعتاد الرجل كلما شاهد ابي ان يدعوه باصرار لتناول القهوة في منزله . ولكن ابي كان يعتذر في معظم الاحيان بما بين يديه من عمل في البستان . فيتركه ابو زيد عائدا الى بيته ، ويظهر بعد قليل حاملا اناء القهوة وفنجانين ويضطر ابي الى ترك ما بين يديه ، ويكتفي بملاحظة القائمين بالعمل ، ويجلس على مقربة منهم مع ابي زيد ليحتسيا القهوة معا ، ويتبادلا الحديث . وكان هذا وحده دليلا على ان صداقة ما تربطهما . فنادرا ما كنا نرى ابا زيد يحدث احدا ، كما اننا لم نره قط يتناول القهوة مع غير ابي . بل لقد اعتاد اذا ما مر احد ببيته ألا يدعوه الى الدخول ، حتى اصبح ذلك امرا معروفا لدى الجميع ، ولما كان هذا التصرف غير مالوف في البادية ، بل ان البعض يستهجنونه ، فقد راح الناس يقولون ان ابا زيد يؤثر البقاء في بيته دائما ولا يحب ان يستقبل الناس فيه ، بل ان بعض اصدقاء ابي كانوا يصفون ابا زيد بانه رجل لانفع فيه .. ولا اصدقاء له ، فيكتفي ابي في الرد عليهم ، بترديد للمثل القائل « ومن لا يعجبك قد يعجب الآخرين » :

وقد حدث قبل ان يحتل العدو الغادر ارضنا بعامين تقريبا ، ان ذهبت ومعي اخي حسن الذي يكبرني ، الى بستان فاكهتنا لنؤدي فيه بعض الاعمال ، فرحب بنا اولاد ابي زيد كالمعتاد ، وكانت معهم اختهم الكبرى وقد بلغت وقتذاك العشرين من عمرها وزادادت جمالا عما كانت عليه وهي في السابعة عشرة . وراحت كثرة ـ وهذا هو اسمها . تسألنا عن بعض نساء وفتيات الاسرة فاجبنا إنهن بخير ، وكانت تنظر وهي تتحدث الينا صوب الغرب كأنما تبحث عن شيء . واقبل احد الرعاة بعد قليل وبعد ان قدم لنا التحية ، سألنا عما اذا كان لدينا بعض الفاكهة للبيع . واجابه حسن وهو يبتسم إننا لسنا تجار فاكهة . وفي الوقت نفسه سألني ان احضر له عنقودي عنب او ثلاثة على سبيل الهدية ، ولكن الراعي رفض ان يأخذ شيئا دون ان يدفع ثمنه ومضى في الحال قبل ان استطيع احضار العنب .

وظل هذا الراعى يحضر الى تلك البقعة يوميا ، بل وبدأ يمضى معظم اليوم بها ومع انه لم يكن من افراد قبيلتنا ، الا اننا آلفناه لكثرة زياراته . كما اعتدنا على نغمات مزماره .

وتخلفنا ذات يوم انا واخى عن الحضور ، ولم نحضر في اليوم الذي يليه الا في وقت متأخر ، وجلسنا كما اعتدنا تحت شجرة التين الكبيرة ، وكنا على وشك ان ننهض لجمع بعض العنب لنحمله معنا في عودتنا ، عندما شاهدنا كثرة تبرز فجأة امامنا خارجة من الاخدود الذي لم يكن يبعد كثيرا عنا ، وكان يبدو عليها التعب والانفعال ، وقد كست وجهها حمرة شديدة ، ولكنها كانت مع ذلك سعيدة كما دلت على ذلك ابتسامتها العريضة لنا وهى تحيينا قبل ان تتجه الى منزلها وتدخله . ولم تمض دقائق حتى راينا الراعى الشاب خارجا من الاخدود ، وما لبث ان لوح بيده لغنمه فتبعته ، ثم اولانا ظهره منصرفا وهو يعزف على مزماره .

وقال حسن وهو يتابعه بنظره :

ــ اعتقد انهما كانا معا .

واجبته قائلا :

ــ كلا .. لا اظن ذلك . لعلها كانت تبحث عن احد حيواناتهم الضالة .

ولم يقنع حسن بما قلت اذ اجابنى :

ــ الم تر وجهها الاحمر ؟ يبدو انك ستظل طفلا مهما كبرت . وما الذي كان يفعله الراعى في الاخدود ؟

وابتسم حسن ، وقمنا لنجمع العنب .

وبعد ايام حضرنا الى بستاننا كالمعتاد فوجدنا رجلا مجهولا جالسا تحت شجرة من الاشجار وقد غطى رأسه بعباءته وهو مستند بظهره الى جذع الشجرة . وعندما رآنا نهض واقفا واقبل نحونا ، والقينا عليه السلام فرد علينا ثم قال بجد واهتمام وقد تجهم وجهه :

اين ابوكما ؟

واجابه حسن :

ــ انه في الخيام .

ــ هل استطيع ان اجده غدا هناك ؟

واجابه اخى :

ـ لست متأكدا .

ـ قولا له من فضلكما ان ابن رافعى سيحضر لزيارته غدا في امر هام .

ووعدناه بذلك ، فشكرنا وانصرف .

وجاءت كثرة بعد انصرافه ومعها اخوها الاصغر وكانت جميلة اكثر من اى وقت مضى . واقترحت علينا ان نلعب لعبة معينة فوق الرمل قريبة الشبه بالشطرنج ، ولم تشترك معنا فيها واكتفت بمتابعة اللعب وهى تنظر بين حين وآخر نحو الجهة الشمالية ، حيث كان الراعى جالسا ، ولم يستسغ حسن اللعبة ، وراح يرتكب من الاخطاء ما عرفت معه انه يلاحظ كثرة .. والراعى الشاب .

وفي اليوم التالى حضر ابن رافعى الى خيامنا ، واستقبله ابى على انفراد وتبادلا الحديث فترة غير قصيرة ، ثم انصرف .

وفي اليوم الذي يليه ذكر لنا ابى قبيل اتجاهنا الى البستان انه سوف يلحق بنا . وبعد وصولنا بساعتين جاء ابى واتجه على الفور الى منزل أبي زيد وكان ذلك تصرفا غير مألوف منه ، فقد اعتاد دائما ان يتفقد اشجاره المحبوبة اولا عند وصوله ولا يدخل منزل ابى زيد الا بعد ذلك .

وخرج الينا ابى بعد فترة طويلة ، وجمعنا له بعض العنب حمله معه فوق جواده وعاد الى الخيام دون ان يقول لنا شيئا . وكنا نتوقع بعد ان مضى ابى ان تحضر الينا كثرة كالمعتاد . ولكنها لم تحضر . وشعرت بان شيئا ما قد حدث اثناء تلك المقابلة بين ابيها وابى . ولكننى لم اعرف ما هو ، وعندما سألت حسن لم يحر جوابا ، وما لبثنا ان لحقنا بابى عائدين الى مضاربنا .

في تلك الليلة سمعت ابى وانا استرق السمع يقول لجدى وقد انفردا ببعضهما في ركن من اركان خيمة القبيلة :

ـ ان قلبه قد قد من صخر : فلقد رفض بقسوة ان يوافق على زواج ابنته من ذلك الراعى ، مع انه ابن اخيه .

وسأله جدى في رزانة وهدوء :

ـ ألم يبد لك اسباب رفضه ؟

ـ ابداها .. وقد عرفت منها اسباب عزلته ومقاطعته لكل افراد قبيلته ، فقد حدث ذات مرة ان اخاه ابن رافعى وافراد القبيلة جميعهم .. هى قبيلة

السوارقة .. حلوا خيامهم ، وانتقلوا الى مكان آخر . وكان ابو زيد متغيبا في ذلك اليوم . فقد ذهب الى القرية يبتاع لامرأته التي كان قد تزوجها حديثا بعض اشياء . وعندما عاد في المساء وجد ان الخيام جميعها قد نقلت فيما عدا خيمته ، فاستولت عليه الدهشة . وسأل زوجته التي ذكرت له انهم تركوها على ان يعودوا فياخذونها ، وانها ظلت حتى مجيئه في انتظارهم . ولم يمض على وصوله وقت طويل حتى حضر بعض الرجال فعلا ومعهم جمالهم ، ولكن ابا زيد رفض رفضا باتا ان يذهب معهم . ومنعهم من الاقتراب من خيمته ، وحاول الرجال ان يزحزحوه عن رايه ولكنه اصر عليه . وفي الصباح غادر ارض قبيلته وجاء الى هذا المكان الذي يعيش فيه منذ تلك الحادثة . ولقد حاول شقيقه ابن رافعي عبثا ان يقنعه بالعودة الى قبيلتهم ، كما حاول بعض رجال القبائل الاخرى ذلك ايضا ولكنهم فشلوا جميعا . وحدث بعد ذلك ان ابن اخيه وهو ابن « ابن رافعي » رأى ابنة عمه ذات مرة ، فهام بها حبا . ولكن الرجل القاسى رفض الموافقة على زواجه من ابنته . وقال ان ابنته لن ترضى بابن الرجل الذي اهان ذات مرة اباها وامها زوجا لها . ولكنه لم يسألها هل تحب ابن عمها ام لا تحبه ؟

وسكت ابى قليلا ثم اضاف :

ـ اننى احترم ذلك الرجل ، ولكننى اراه في هذا الامر قاسيا ومتصلب الراى اكثر مما ينبغى .

وقال جدى الذي تعرف سائر القبائل مقدار خبرته وحكمته :

ـ اطمئن .. لو كانت الفتاة تحب ابن عمها فان اباها سوف يتنازل عن عناده .

وقال ابى :

ـ ولكن كيف ؟ كيف يعرف مشاعرها نحو الشاب ما دام عازفا عن سؤالها ؟

ـ سوف يسألها .. ان عاجلا او آجلا .

ومرّت الايام .. واستمر الراعى يحضر يوميا ، ونحن نرقبه عن كثب . . وكنت قد ذكرت لاخى حسن كل ما سمعته من حديث بين ابى وجدى . ولم نعد نرى كثرة اذ لم تعد تغادر المنزل . واتفقت مع اخى اخيرا على ان نؤدي لها زيارة للاطمئنان عليها . ولم يكن ابو زيد يرحب باحد في منزله سوى ابى

وافراد اسرته . وعندما ذهبنا حز في نفسينا ان وجدناها ممتقعة الوجه حزينة .. وكان ابو زيد يجلس طوال زيارتنا لأولاده صامتا في مكان منعزل من داره .

وانتهت عطلتي الصيفية وعدت الى مدرستى ونسيت اثناء استعدادى لامتحان الفترة الثانية اسرة ابى زيد ، الى ان علمت كتابة من اخى حسن ان كثرة قد تزوجت من ابن عمها بعد شهور من رحيلى . بعد ان ارسل ابو زيد بعضهم الى اخيه واحاطه علما بانه يوافق على زواج ابنته من ابن عمها . وقد قيل ان رسول ابى زيد الذي حمل تلك البشرى الى ابن رافعى .. كان ابى .

وقد تحير الناس واخذتهم الدهشة عندما رأوا ابا زيد يوم زفاف ابنته في قمة السعادة والسرور ، وزادت دهشتهم عندما اكتشفوا اثناء السباق الذي اقيم في تلك المناسبة انه فارس لا يشق له غبار . وظل يرافق بعد ذلك موكب زفاف ابنته حتى اصبح على بعد ميل او نحوه من خيام قبيلته ، ثم استدار بفرسه عائدا ، فبهت الناس وحاول بعض الرجال اللحاق به واقناعه بالعودة ولكن اخاه ابن رافعى منعهم قائلا :

لا تحاولوا المستحيل .. انه لن يعود .

بعد سنوات طويلة ، وبعد ان اصبحت اشغل منصبا في المملكة العربية السعودية ، حان موعد اجازتى في الصيف الماضي . ولما كنت قد اصبحت بلا وطن اقضي اجازتى فيه ، فانه لم يكن امامى سوى المكان الذي يعيش فيه ابواى بعد اغترابنا عن موطننا واراضينا . وكانا يقيمان الآن بمفردهما في مكان ما . ويقيم بالقرب منهما بعض اقاربنا الذين كانوا يترددون عليهما من وقت لآخر . وذات ليلة . اثناء زيارتى لابى وامى خلال اجازتى ، وكنا نجلس في الهواء الطلق امام كوخهما الصغير ، حضر عمى عبد الملك . وعمى سالم (ذلك الذي امسك ذات مرة باحد اللصوص) . وبعض السيدات والاطفال . وتفرع بنا الحديث الى شتى الموضوعات وانتهى اخيرا كما هى العادة بارضنا المسلوبة . ووطننا المغتصب .. ووادى الحيسى وبستان فاكهتنا .. وهنا جاء ذكر ابى زيد .

وسأل سالم ابى قائلا :

ـ اصحيح ما سمعته من ان ابن ابى زيد قد ارسل اليك النقود التي كان ابوه قد اقترضها منك قبل ان نغترب عن اوطاننا ؟

واجابه ابى قائلا :

ـ كلا .. ولكنه بعث الى برسالة يتأكد فيها من عنوانى وينبئني انه قام بتجهيز المبلغ ، وسوف يرسله الى فور استلامه رد خطابه . ولكن يبدو اننى نسيت رسالته وتنهد ابى مضيفا :

ـ ما اسرع ما تمر الايام والاعوام : لقد مضت سنوات كثيرة منذ زوج ابو زيد ابنته .

وسألت والدى قائلا :

ـ الست محتفظا بتلك الرسالة يا ابى ؟

ـ نعم . انها في صندوق الاوراق الهامة والمستندات ، وشهاداتكم الدراسية ، وغير ذلك .

ودخلت الكوخ ، وكنت اعرف ذلك الصندوق جيدا فلم اجد صعوبة في العثور على رسالة ابن ابى زيد . وعندما عدت بها وفضضتها لاقرأها بمفردي . اصر سالم على ان اقرأها عليهم ، فنظـــرت نحو ابى ، الذي فهم نظرتي ، وقال :

اقرأها عليهم ان كانوا يرغبون في ذلك .

ورحت اقرأ الرسالة بصوت مرتفع ، وقد ذكر راسلها ان اسمه علي وانه ابن زيد وان ابى لن يتذكره غالبا لانه كان طفلا صغيرا عندما نزحت قبائلنا عن ارض الوطن وان اباه كان قد اصابه المرض منذ اربعة شهور فحاول هو واخوته ان يحضروا له طبيبا ولكنه رفض . وذات ليلة وكانت اخته كثرة اثناءها في زيارتهم . تفاقمت حالة ابيه وفي الصباح غادرت كثرة المنزل وعادت بعد قليل واعطته ثلاثة جنيهات قائلة له : « خذ هذه النقود واحضر طبيبا بها لابى » ولما كان يعرف انها لا تملك نقودا على الاطلاق لان ما يربحه زوجها من عمله لم يكن يكفى طعامهم ونفقات اطفالهما الثلاثة . فانه كان على وشك ان يسألها من اين جاءت النقود لولا انه لاحظ ان الحلية الذهبية التي اعتادت ان تعلقها في جيدها لم تكن في مكانها .

ومضى علي في رسالته فقال ان الطبيب قد وصف الدواء اللازم لابيه ، قائلا ان حالته قد تتحسن ، ولكنها ظلت تتدهور يوما بعد يوم . وذات ليلة ، طلب من علي ان يقترب منه ، وامسك بيده قائلا :

« ولدى : اننى اعرف اننى راحل ، وساقابل عما قريب وجه ربى الكريم . واريد ان اموت وانا طاهر امين ، ولما كنت قد اقترضت مبلغ اربعين جنيها من عبد العزيز الدقس قبل خروجنا من الوطن فانى اوصيك بسداد هذا المبلغ .. أعلم انك لا تملك حاليا شيئا من النقود . ولكننى اطالبك بان تبعث اليه بهذا المبلغ فور استطاعتك تدبيره » .

ثم اضاف عندما رأى ابنته كثرة واخوتها يبكون :

لا تبكوا يا احبائي .. فليس هناك ما يؤلمني من مغادرتي للحياة .. وانا سعيد تماما .. الا اننى كنت افضل الا اموت الا بعد ان ارى وادى الحيسى مرة اخرى . اما انتم ، فينبغى ان تكفوا عن بكائكم وتشعروا بالامل والسعادة لانكم ما زلتم في ريعانكم ، وستعودون حتما ، فاذكروني عندما تجلسون تحت الشجرة الكبيرة القائمة امام منزلنا.

ومضى على في رسالته فقال ان صوت ابيه اخذ ينخفض بعد ذلك شيئا فشيئا حتى اصبحوا لا يتبينون ما يقوله . وما لبثت عيناه ان اتسعتا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة ، ثم اسلم الروح .

واختتم على رسالته قائلا بالحرف الواحد :

« اننى اذكر كل هذا لاننى اريدكم ان تعرفـوا »
« آخر ما طلبه منى ابى وهو على فراش الموت واحمد»
« الله اننى استطعت ان انفذ وعدى له ، فلقد »
« عملت ليل نهار ، وساعدتنى شقيقتى كثرة حتى »
« استطعت تدبير المبلغ . ولسوف ابعث بها اليك »
« فور استلامى الرد على هذه الرسالة والتاكد من »
« عنوانكم . فلا تجعلنى انتظر طويلا من فضلك »
« واختتم رسالتي بالتعبير عن شكرى وعرفانـي »
« وعلى ما ابديتم نحو ابى من كرم ووفاء عندما »
« اقرضتموه هذه النقود »

المخلص ،
عـــلى

كان السكون مخيما على الجميع اثناء قراءتـــي للرسالة كما ظل فترة قصيرة مخيما بعد انتهائي من قراءتها .

واخيرا قطع سالم حبل السكون ، سائلا ابى :

ـ ماذا كتبتم اليه ؟

وتريث ابى برهة .. ثم اشاح بوجهه قائلا :

ـ كتبت اليه قائلا ان اباه قد اقترض منى تلك النقود ونحن في ارضنا وبين ربوعنا .. وانني لن اقبل منها قرشا واحدا الا بعد العودة الى تلك الربوع .

عندما ضللت الطريق

كنا في مساء يوم من ايام الاثنين . وقد اخذنا نجهز انفسنا لمبارحة المدرسة في اليوم التالى . عائدين الى ابائنا وامهاتنا ، واقاربنا واصدقائنا . وقد اشتد بنا السرور ، وعمت الفرحة قلوب الجميع ما بين تلاميذ ومدرسين . وارتدينا في صباح اليوم التالى اجمل ما لدينا من ثياب . ولما كان الزى الرسمى للمدرسة هو الملابس البيضاء ، فان الملابس الجديدة ذات الالوان الزاهية ، التي لا ترى في المدرسة الا في هذه المناسبة كانت تشيع البهجة في نفوسنا ، وتذكرنا باننا على وشك العودة الى بيوتنا . وتم اعداد طعام الافطار كالمعتاد ودق الجرس فوقفنا صفا واحدا ثم دخلنا قاعة الطعام .

وجاءني احدهم اثناء الافطار وقال لى أن عمى قد جاء . وأنه ينتظرني في الخارج . وقد ضاعف هذا النبأ من سروري ، فلسوف أجد رفيقا لى في عودتى ولسوف يقص على عمى أثناء الرحلة كل ما يتعلق بالقبيلة من أخبار .. ويرشدني الى المكان الذي تستقر عليه الخيام حاليا . ويطلعنى على كل ما جد من احداث .

وتركنا طعام الأفطار كما هو على الموائد المستطيلة فقد جعلنا سرورنا الشديد لا نمس شيئا سوى بعضا من الشاى واللبن ، وعندما دق الجرس مرة ثانية ، اندفعنا ونحن نتزاحم مغادرين قاعة الطعام . وأخذت أبحث وسط الزحام عن صديقي رباح . وهو صبى من قبيلة مجاورة لنا يكبرني بقليل وعندما رأيته جذبته من ملابسه قائلا :

ــ أن عمى ينتظرني عند بوابة المدرسة . فلا ترحل دون أن تأتى معنا سوف أذهب لمقابلته ، ثم أعود لاحضر حقيبتى . فأجابني قائلا :

ــ أذهب وقابله وانتظرني عند البوابة . وسأحضر لك أنا حقيبتك . اعطنى مفتاح خزانتك . واذهب الى عملك .

وأعطيته المفتاح ، فاندفع صاعدا السلم ليحضر لى حقيبتى التي كنت قد أعددتها وأغلقتها ، وأسرعت أنا الى عمى .

وقبل كل منا الآخر ، ثم تصافحنا ، وسألني عمى الذي تبين أن قدومه في تلك اللحظة كان بمحض الصدفة :

ـ ماذا هناك ؟ هل ستغادرون المدرسة .
ـ نعم ، انها العطلة السنوية .
ـ واين حقيبتك ؟ اليست لك حقيبة مثلهم ؟
ـ سوف يحضرها الآن صديقى رباح .

وتلفت خلفى فرايت رباحا مقبلا وهو لا يستطيع أن يحفظ توازنه ، اذ كان يحمل في كل من يديه حقيبة قد امتلأت عن آخرها .

واتجهت نحوه لاساعده ، ثم قدمته لعمى الذي تبين انه يعرف اباه وبعض اقاربه ومضينا نحن الثلاثة في طريقنا .. عمى في المقدمة ، وانا ورباح وراءه بقليل وشعرنا ببعض الاسف عندما ذكر لنا عمى اننا لن نرحل الا بعد الظهر ، لان معه قائمة طويلة من السلع التي يريد ابتياعها . وعندما وصلنا الى متجر « جميل تدرك » وهو احد التجار الذين اعتاد افراد قبيلتنا ان يشتروا منهم حاجياتهم . قال عمى :

ـ الآن تستطيعان أن تضعا حقيبتيكما هنا ، ولكما أن تبقيا حيث أنتما أو ترافقاني أثناء طوافى بالمتاجر لشراء ما في القائمة .

كان جميل مشغولا ببيع سلعة لجمهرة من الناس يتزاحمون امام « البنك » الذي يقف خلفه . ورأيت داخل المتجر كثيرين من البدو ما بين رجال ونساء ، يجلس بعضهم فوق مقاعد عتيقة منخفضة ، ويجلس البعض الآخر فوق اشولة الارز والسكر .

وأخرج عمى ورقة « مكرمشة » من جيبه واعطاها لى ، فرأيت قائمة من الأسماء وقد كتبت قرين كل اسم الاشياء التي يحتاجها .. على بن سلامة : سكر وبن ، صالح ابو سالمان : اربع ياردات من « البفتة البيضاء ، وقليل من الفلفل الاسود ودعد ابنته : زجاجة عطر ، الحاج ابراهيم : بن ، وسكر ، وارز .. ، طالب : (وهو شاب متزوج منذ ايام) ثوب لعروسه .. وهكذا اخذت اقرأ في القائمة اسماء الكثيرين من افراد قبيلتي ممن كنت اتوق الى العودة اليهم . واعطى عمى الورقة لجميل قائلا :

ـ أشر على السلع الموجودة في متجرك من بين المكتوب في هذه الورقة ، وجهزها وسنمر عليك بعد قليل لنأخذها .

وتناول جميل الورقة وراح يؤشر عليها ثم اعادها الى عمى الذي خرج من المتجر ونحن وراءه بعد أن تركنا حقيبتينا في مكان يفصله عن غيره في المتجر حاجز زجاجى .

وبعد أن طفنا بالمتاجر الأخرى لابتياع ما اشر جميل بعدم وجوده لديه..

وفي الساعة الثالثة ، كنا قد ابتعنا كل شيء وأودعت كل السلع في صندوق ضخم من الورق المقوى . قدمه لنا جميل ، واحتاج الامر لنقله الى محطة الأوتوبيس على عربة كبيرة .

وكانت المحطة مكتظة بالمسافرين الذين وقفوا في انتظار وصول سيارات الأوتوبيس وعندما وصلت سيارة ، اندفع الناس اليها وهم يتزاحمون بشدة ، ولكنهم ما لبثوا حتى ارتدوا عنها عندما اكتشفوا انها ليست السيارة المتجهة الى غزة ولم يدخلها الا نفر قليل .

كان تأخرنا الى ذلك الوقت سببا في أن فاتتنا السيارة التي تقصد الفالوجه مباشرة وتنزلنا على بعد اميال قليلة من ارض قبيلتنا ، ولم يبق الآن امامنا سوى ان نستقل السيارة التي تذهب الى غزة ثم نركب من هناك السيارة المتجهة الى الفالوجة ، على أن نترك بها الصندوق الضخم ليحضره أحد رجال القبيلة في اليوم التالى .

وقد تمنيت من صميم قلبي ، بعد أن ايقنت من أننا سوف نصل في وقت متأخر ، لو أن عمى لم يحضر في ذلك اليوم .. لانه لو لم يكن قد حضر لوصلنا منذ وقت ، ولكننا الآن بين أفراد اسرتي .

ووصلت سيارتان ثم مضتا دون أن نستطيع الركوب فيهما . وكان الصندوق الضخم هو السبب . فقد كان علينا آن ندخله السيارة قبل أن نركب . ولم تكن السيارة لتنتظر حتى نتم تلك العملية الشاقة . وجاءت السيارة الثالثة وقيل لنا أنها قد تكون الأخيرة فاتفقنا على ضرورة ركوبنا اياها على أى وجه ، وقال عمى :

ينبغى ان يركب احد كما فور وقوف السيارة ودون انتظار الآخر او انتظاري ويحاول ان يحجز مقعدا غير الذي سيجلس عليه . وسابادر انا بمساعدة من سيبقى معى منكما الى ادخال الصندوق .

وقد اختارني عمى للقيام بالمهمة الاولى ، نظرا لان رباحا اكثر قدرة منى على مساعدته .

كان دخولى السيارة عند وصولها امرا بالغ الصعوبة لشدة الزحام ، ولكنني وقفت وراء رجل بدين ، واشتد الضغط ولم البث ان وجدت نفسي داخل السيارة دون ان اعرف كيف تم ذلك : ونظرت حولى ، ولكننى لم استطع ان اجد مقعدا اجلس عليه .. ناهيك بالمقعد الآخر الذي اشار عمى باحتجازه : وعندما نظرت خلال النوافذ الى خارج السيارة ، شاهدت صندوقنا الكبير مرفوعا في الهواء عند سلم السيارة ولم اعد لشدة الزحام واحاطة الناس بى داخل السيارة ، ارى شيئا بعد ذلك ولكنى لمحت عمى وهو يصعد السيارة ، ولم ار رباحا فعللت ذلك بقصر قامته . وبعد لحظات ، انطلق الأوتوبيس الذي لم تكن الآته قد توقفت طوال وجوده في المحطة . واستطعت بعد ان استقر الناس في اماكنهم ما بين واقف وجالس ان ارى الاشجار التي تمر بها السيارة كما رأيت مبنى مدرستنا ، وعند اطراف المدينة مررنا بالمقابر .

كان عمى واقفا ومونيا اياى ظهره على مبعدة ستة او سبعة رجال منى وظننت ان رباحا امامه في مقدمة السيارة . ولم اشعر بتعب شديد من وقوفي اذ ان فرحتى بالعودة الى اسرتي كانت تتغلب على كل شيء اخر .

وبدأ الركاب الراغبون في النزول يجذبون حبلا ممتدا بطول سقف السيارة فيدق الجرس بالقرب من السائق ويتوقف لينزلوا ولا يكاد احد الجالسين ينزل من السيارة حتى يبادر ، اقرب الواقفين اليه بالجلوس مكانه ، وهكذا اخذ الزحام يخف تدريجيا كلما مضت السيارة في سيرها . واخيرا ، وفي منتصف المسافة تقريبا ، وجد عمى مقعدا وجلس عليه وبعد نصف الساعة تقريبا وجدت بدوري مقعدا ، وجلست ولكنني لم ار حتى تلك اللحظة رباحا فقلت في نفسى لعله وفق الى مقعد خال منذ وقت وجلس فيه وكنت حتى تلك اللحظة لم اشاهده منذ تحركت السيارة .

وعندما اقتربنا من غزة كانت الشمس قد بدأت في المغيب . وبدأ يستولى على العجب من ان عمى لم ينظر مرة واحدة الى الخلف ليلقى نظرة علي ، وقبل ان نصل الى غزة بحوالى ميلين رأيته يجذب الحبل وادهشني ان يفعل ذلك .. وفي تلك اللحظة ادار وجهه ليلتقط حقيبة من الورق من فوق رف السيارة .. وكانت مفاجأة شديدة لى عندما لم اجد انه عمى . بل لعلها كانت صدمة غير

متوقعة بالمرة ، والحقيقة اننى كنت معذورا في هذا الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه .. والذي قد يقع فيه اى شخص غيري نظرا للشبه الغريب بين الرجل وبين عمى ، ولست اقصد الشبه في الوجه ، لان وجهه كان مختلفا . ولكننى اقصد الشبه من الخلف . كان كل من ينظر الى ذلك الرجل من الخلف لا يشك لحظة في أنه عمى خصوصا في ملابس البدو المتشابهة .

وهبط الرجل من السيارة ، ونهضت ، لا لالحق به الآن بعد ان تبين انه ليس بعمى ، بل لا تفحص وجوه كل من في السيارة ، وكانوا قد اصبحوا الآن قلة بعد ان نزلت غالبيتهم ، واصبحت معظم المقاعد خالية ولكنني لم اعثر على عمى .. ولا على رباح .

وعدت الى مقعدى وقد إرتج على . وأصبحت في حيرة من أمرى . ورحت أتساءل ماذا سوف افعل ؟ كنت احمل بعض النقود ، ولكن ماذا عساها تفيدني ؟ لم أكن أفكر في صباح الغد . ولكن في تلك الليلة وكيف سوف أمضيها ؟ أين أذهب ؟ الى فندق ؟.. لست أدرى عن الفنادق شيئا ، سوى تلك الليلة التي كنت فيها مع أبى وامضيناها في أحد الفنادق .. وكان الوقت مساء كنت متعبا يومها فنمت في الحال .

لم يكن قد بقى من الراكبين البدو الا ثلاثة رجال ، نزل منهم اثنان بعد قليل . ولم يبق الا رجل واحد ، وكانت السيارة قد دخلت الآن غزة ، وما لبث البدوى الوحيد بها ان نهض واقفا وشد الحبل استعدادا للنزول . فنهضت انا ايضا ، ولم أتردد في النزول ، ومشيت وراء الرجل وانا أحمل حقيبتى . أما هو فلم يكن يحمل في يديه شيئا . وكان على ان احث الخطا حتى أظل على مقربة منه .

لقد سبق لى ان جئت الى غزة بضع مرات ولكننى كنت وقتذاك طفلا ، فلم أعرف سوى شارعا واحدا من شوارعها ولم يشعر الرجل بان احدا ما يتبعه . وعزمت على ان احدثه قبل ان يختفى عن نظري فجأة ، ورحت افكر فيما اقول له .. وفي الطريقة التي اخاطبه بها ولنفرض انه لم يكترث بى او بموقفى .. فماذا عساى أن اصنع ؟ ومع ذلك فاننى لم اجد بدا من التحدث اليه ، لانه لو مضى قبل ان احدثه فسأجد نفسى وحيدا وضالا في الطرقات لا أعرف الى أين اتجه .

وازددت منه اقترابا . ووجدتنى فجأة اقول له :

ـ مساء الخير يا عم .

والتفت الرجل خلفه ليرى ان كان هو المقصود بهذه التحية . وعندما رآنى انظر اليه ، اجابنى قائلا :

ـ مساء الخير يا بنى .

ـ لقد ضللت الطريق عن عمى .. ولست اعرف اين اذهب ؟

وسألني الرجل في شيء من الدهشة ؟

ـ ولكن .. من أنت ؟ ومن أين قدمت ؟

فذكرت له اسمى ، ورويت له باختصار كيف فقدت اثر عمى ، وصديقى رباح .

وسحبنى الرجل الى الرصيف عندما شاهد سيارة مقبلة وعاد يسألني :

ـ الا تعرف أحدا هنا ؟

ولم أستطع في تلك اللحظة أن أتذكر أحدا فاجبته :

ـ كلا .. لا أعرف أحدا .

ـ اتبعنى أذن يا ولدى .

وذكر لى اثناء سيرنا أننا ذاهبان الى أحد الفنادق وأنه سيأخذني في الصباح الى محطة الأوتوبيس ويدلني على السيارة المتجهة الى الفالوجة . وتذكرت فجأة أثناء سيرنا أن في غزة عائلة تعرف أبى وبعض أفراد القبيلة وقد قيل امامى أكثر من مرة أن أسم تلك العائلة هو « عائلة أبى حصيرة » فسألت الرجل قائلا :

ـ أتعرف شيئا عن عائلة أبى حصيرة ؟

ـ الا تعلم اين يقيمون ؟

ـ كلا .. ولكننى سمعت أنهم يقيمون بالقرب من البحر .

واخذ الرجل يفكر طويلا ثم قال :

ـ دعنا اذن نحاول .

وغير الرجل من اتجاه سيرنا . ورحنا نخترق عدة طرق جانبية دون أن أعلم أين نسير ، وبدأ يتوقف بين الحين والآخر مستفسرا من الناس فكان البعض يجيبونه بأدب قائلين انهم لا يعرفون هذا الاسم ، اما البعض الآخر فقد كانوا يضحكون ويمضون عنا ساخرين . واخيرا عثرنا على شخص يعرف

اسم العائلة . ووصف لنا الطريق الى المنزل الذي كان قريبا من البحر ، ومحاطا بالاشجار .

وعندما دق رفيقى الباب لم يرد أحد في أول الأمر ، ولكنه عندما عاد الى الدق بصوت أكثر ارتفاعا ، خرج الينا صبى صغير ، فما كاد يرى أننا غرباء حتى دخل الدار مرة اخرى ثم عاد ومعه رجل رحب بنا ودعانا الى الدخول وقادنا الى حجرة مفروشة بالسجاد فقط ، وليس بها مقاعد . وفي احد اركان تلك الحجرة ، رأينا رجلا كهلا أكتشفت وأنا اصافحه أنه كفيف البصر ، وبعد أن قدمت لنا القهوة ، ذكر رفيقى اسمه واسمى وروى قصتى وما كاد الرجل العجوز وولداه يسمعان اسمى وأسم أبى حتى ضاعفوا من ترحيبهم بى . ونهض رفيقى الكريم واقفا وهو يقول :

ــ الآن .. يجب أن أرحل .

وعبثا حاول اصحاب الدار ان يقنعوه بالبقاء وقضاء الليلة معهم ، فقد إصر على الاعتذار ، وصافحنا جميعا ثم خرج ، وشيعته حتى الباب وانا اشكره بحرارة على ما فعله من اجلى . اذ ادركت رغم صغر سنى وقتذاك ان سلوك الرجل حيالى منذ عثر على ضالا في الطريق ، حتى اسلمنى الى تلك العائلة التي تعرف ابى وقبيلتى كان سلوكا ينطوى على قدر كبير من الشهامة والاريحية اللتين قد لا تتوافران في جميع الناس .

وعندما انصرف ذلك الصديق النبيل ، نادى الرجل الكهل زوجته وقدمنى لها ، فقبلتنى السيدة العجوز وجلست بالقرب منى ، وقال زوجها لها

ــ الا تتذكرين يا خديجة تلك الزيارات السعيدة التي كنا نؤديها لجده وجدته ؟ انه لم يكن قد ولد بعد ، بل ان امه لم تكن وقتذاك سوى صغيرة تلعب مع الحملان امام الخيمة .

فاجابته السيدة العجوز :

ــ أجل أتذكر .. ولن انسى ابدا الايام الجميلة التي قضيناها معهم . انهم قوم على قدر كبير من الكرم والسخاء.

وحضر الاطفال الصغار من احفاد الرجل ، فجلسوا بجوار جدتهم ، واخذوا ينصتون الى حديث جدهم الذي راح يروى ذكرياته بصوت يغلب عليه الحنين . ومضت الليلة وانا اشعر كأننى في بيتى . وبين اهلى وعشيرتي .

وفي الصباح رافقني احد ابناء الشيخ الى محطة الاوتوبيس . بعد وداع حار بيني وبين اسرة « ابى حصيرة » حيث ركبت السيارة المتجهة الى الفالوجة ، وما كادت تمضي قليلا ، وقبل ان تخرج من المدينة ، اشار اليها شخصان ، فتوقفت ليصعدا اليها ، وكان هذان الشخصان هما عمى ، ورباح ، ومعهما الصندوق الضخم المصنوع من الورق المقوى .

الشيخ الذي في الحجرة رقم (٩)

ما زلت اذكر امي وهي تقول لابي كلما جاءه ضيوف واسرع كعادته في الانفاق عليهم :

ـ ان نصر الله ، اكرمه الله ، يقول دائما « لو عرفت انني لن احظى بضيوف غير مرة واحدة في الحياة ، لانفقت عليهم كل ما املك في تلك المرة

وكنت انا الذي قلت لها ذلك في الصيف الماضي عندما دعوت الى البيت بعض اصدقائي ، ولكنها اجابتني هذه المرة قائلة :

ـ فليرحمنا الله ، انه يرقد الآن قرير العين .. لانه اسعدنا حظا ، ولم يعش حتى يرى هذه المآسي المحيطة بنا . لقد عاش في الارض التي احبها .. ومات ودفن فيها :

وجعلني هذا الكلام من امي لا اكف طوال اليوم عن التفكير في نصر الله . ولم تبرح صورته مخيلتي إلى أن نمت ذلك المساء . لقد عادت بي الذكرى ثمانية عشر عاما الى الوراء ، وكأن ما حدث عبر تلك السنوات الطويلة .. قد حدث بالامس فقط ،

كان نصر الله شيخا متقدما في السن ، قصير القامة نحيل الجسد ، ولكنه مع هذا كان شعلة من الحيوية والنشاط . الامر الذي قد يتناقض مع لحيته البيضاء وكان رجلا مرحا خفيف الظل ، كنا معشر الاطفال نحبه ، ونحاول دائما ان نلوذ به ونحدثه ، فهو لا يكف عن المزاح كلما صادف احدنا . وكثيرا ما كان يمثل لنا دور الرجل الاصم ، فيجعل قلوبنا تكاد تنفجر من الضحك ، واحيانا يقلد لنا بعضا ممن نعرفهم من رجال شيوخ مثله عرفوا بالجد والصرامة والوقار .

كان يملك اشياء كثيرة عرفت باسمه .. بستان نصر الله .. واشجار نصر الله .. وكانت الفرس هي احب تلك الاشياء الينا لاننا كنا لا نكاد نراه الا مصحوبا بفرسه البيضاء الجميلة .

كان من بين ما يمتلكه من اراضي جزء لا فائدة منه ، ملىء بالاخاديد الجافة الصغيرة والنباتات البرية الشائكة ، فما زال به حتى جعله حديقة فاكهة تحوى اشجارا كثيرة تثمر تينا وعنبا ، واعتاد ان يعتمد على نفسه معظم الاحيان في اصلاح الارض ـ وفلاحتها ، وكان من المناظر العادية التي الفها افراد القبيلة واعتدنا عليها نحن الاطفال ، منظر نصر الله وهو يحفر الارض . وعلى مقربة منه فرسه البيضاء الاصيلة وهى ترعى الحشائش .

وكنا ذات مرة عائدين بعد الظهر من المدرسة ، عندما راينا فرس نصر الله البيضاء ، ذات الذيل الاسود الطويل وهى ترعى الحشائش على مبعدة قليلة من الطريق وبالقرب من اخدود من اكبر الاخاديد . ومع اننا كنا نمر يوميا بهذا الاخدود في ذهابنا الى المدرسة وعودتنا منها ، الا اننا كنا نشعر بشيء من الرهبة كلما اصبحنا في محاذاته لا سيما ان كنا بمفردنا ، فقد كان لا يذهب أحد الى هناك او ينزل الى الاخدود العميق الا لسبب قاهر، كالبحث عن بقرة ضائعة او شاة ضالة . ولما اقتربنا من المكان ، شاهدنا الفرس ، ففرحنا وتوقعنا ان نرى نصر الله ، على الرغم من ان وجوده في تلك البقعة يعتبر امرا غريبا . ومع اننا نعرف ان ذلك الاخدود يقع ضمن املاكه ، الا اننا عجبنا من حضوره الى مثل هذا المكان الذي لا يطرقه احد ، ولما كان الطريق الذي نسير فيه موازيا لحافة الاخدود فقد اتجهنا اليها ونظرنا الى اسفل ، ولكننا لم نجد لنصر الله اثرا وسمعنا صوت ضربات خفيفة ، فاتجهنا نحو مصدرها ورأينا نصر الله ممسكا بمعوله في يده وهو يحفر في الارض ، وعندما رآنا هتف بنا قائلا :

ـ لقد جئتم في الوقت المناسب ، تعالوا وساعدوا في تعميق هذه الحفرة

ـ واسرعنا الى مساعدته ، وكنا على وشك ان ندخل مع بعضنا في معركة من اجل المعول ، ومن منا الذي يبدأ الحفر ، بينما نصر الله يضحك تارة ويشجعنا تارة اخرى . وكانت النتيجة اننا لم نفعل شيئا من اجله . بل على العكس اتلفنا ما بذل فيه جهده ، وادى عدم درايتنا الى هدم جوانب الحفرة ، ومع ذلك فقد ظل وجهه بشوشا كعهدنا به ، وتناول المعول واخذ يصلح ما افسدنا : وكانت الشمس عند خروجنا من الاخدود مع نصر الله قد اوشكت على المغيب ، وقال لنا ونحن نتجه نحو فرسه : اننا سنجد هذه البقة المقفرة عندما نمر بها في العام القادم مزروعة بشجر الفاكهة . ثم صاح بنا :

ـ والان .. : ان من يصل منكم الى الفرس قبل الآخر سوف يركب خلفى حتى نصل الى الخيام .. قفوا صفا منتظما .. واحد .. اثنين .. ثلاثة . وانطلقنا وكان حسن اسرعنا . فقد وصل قبلنا ، وامسك وهو يلهث بعنان الفرس وهو يصيح :

ـ لقد سبقتهم جميعا يا جدى :

ولم يكن حسن حفيد نصر الله . ولكننا اعتدنا نحن الاطفال ان ندعوه بجدنا هو وغيره من شيوخ القبيلة ذوى الشأن على سبيل الادب والاحترام . وامتطى حسن ظهر الفرس خلف نصر الله . بينما ظل حفيده الحقيقي محمد يسير على قدميه معنا .

ومضت سنوات ثلاث على تلك الواقعة .. واصبحت في مدرسة بير السبع ، وكنت اعمل بجد في دروسي كى اكون اول الفصل ، واحقق امال ابى في ان اصير مهندسا شهيرا . وكنت متقدما في جميع المواد عن باقي تلاميذ الفصل فيما عدا الرسم ، الذي كان رسوبي فيه امرا محتملا . فقد حدث ذات مرة ان نسيت قلمى الرصاص في درس الرسم فعاقبنى المدرس ، فاصبحت منذ ذلك الوقت اكره تلك المادة ، هى ومدرسها بل اننى صرت اكره ايضا يوم الاثنين ، لانه اليوم الذي نتلقى فيه درس الرسم .

وفي صباح يوم من ايام الاثنين ، استيقظت وانا في هم شديد من اجل حصة الرسم المقرره علينا في ذلك اليوم . واخيرا هدانى تفكيري الى ان .. اتمارض : وتصنعت المرض وطلبت تحويلى على الطبيب .

وتسارعت دقات قلبي وانا ادخل حجرة الطبيب . فقد كنت خائفا أن يكتشف الرجل امر تمارضي ، فيكتب الى ناظر المدرسة ، ويوقع هذا على شر انواع العقاب .

وامرنى الطبيب ان اعرى صدرى ، ثم راح يتحسسه بالسماعة ، وكتب على ورقة امامه بضع كلمات بالانجليزي استرقت النظر اليها فلم افهمها لانها مكتوبة بخط سريع وبطريقة تختلف عما الفناه في المدرسة . ثم سمعت الطبيب يقول باقتضاب وهو يتحول الى تلميذ آخر لم اعرف ان كان مريضا او متمارضا هو الآخر :

ـ الى المستشفى .

ووقفت حائرا لا ادرى بعد ان فرغ الطبيب منى ، ماذا افعل . ونظرت الى ممرض يقف عند الباب في داخل الحجرة ، فرأيته يشير الى ، وما لبث ان سلمنى الى ممرضة شابة ، قادتنى الى المستشفى .

وفي المستشفى ، قادتنى الممرضة من يدى ، ودخلت بى حجرة كبيرة نظيفة بها مكتب ابيض كبير ، تجلس اليه ممرضة متقدمة في السن ، ذات نظارات ، فكتبت اسمى في دفتر امامها ، وذكرت لى انني سأقيم في الحجرة رقم (٦) واحسست بخوف وارتباك ، فقد كانت هذه هى المرة الاولى التي سانام فيها بمستشفى وملأت رائحة الادوية ، والممرضة الشابة تقودني الى الحجرة ، خياشيمى ، ورحت اتخيل المرضى وهم راقدون على اسرتهم .. يتألمون .. ويموتون . وتمنيت لو اننى لم اتصنع المرض ، وذهبت الى حصة الرسم ، فهى رغم كراهيتي لها افضل على كل حال من كل هذا ..

واخذت اؤكد للمرضة اننى تحسنت وشفيت تماما ، ولكنها ذكرت لى ان تلك هى اوامر الطبيب ولا مفر من تنفيذها وعندما دخلت الحجرة رقم (٦) وجدت بها ثلاثة اسرة يشغل اثنين منها صبيان مريضان ، اما الثالث فكان خاليا ونظيفا ومنسقا ، وناصع البياض . وامرتنى ان اخلع ملابسى في الحمام بعد ان دلتني عليه

وبدا السرور على الصبيين المريضين عندما شاهدانى . وعلمت منهما انهما سيبرحان المستشفى بعد ايام . وبدأت اشعر تحت تأثير رائحة الادوية والمطهرات اننى مريض حقا .. ورسخ في نفسى هذا الشعور عندما احسست أني سامضي ولا شك اياما في المستشفى .

ورايت في تلك الليلة احلاما مختلفة مخيفة . وعندما اســـتيقظت صبـــاحا استولى على السرور عندما اكتشفت ان كل ما رايت لم يكن الا اضغاث احلام . وبعد الافطار سألني راغب وهو احد زميلي في الحجرة ، ان اتبعه الى الحديقة لنقابل رجلا بدويا عجوزا اعتاد ان يقص عليه هو وغيره من الاطفال في المستشفى قصصا ونوادر طريفة عن الحياة البدوية . واضاف ان ذلك الرجل غير مصاب بمرض خطير ولا شيء به سوى جرح بسيط في قمة اصبع قدمه الاكبر . وان أحدا لا يحضر لزيارته فيما عدا فتى بدوى قصير القامة يرتدى ملابس بدوية انيقة ، اعتاد ان يؤدي له زيارة بين حين واخر

واسمه موسى ، وهو يعطف بدوره على الاطفال في المستشفى وقد اهداه لعبة لطيفة ، واطلعنى راغب على لعبته . ثم اضاف ان موسى هذا هو ابن البدوى العجوز .

واردف راغب قائلا :

ـ لم ار في حياتى خيام البدو . واشعر برغبة شديدة في زيارة ذلك البدوى الشيخ بعد خروجه من هنا . وانى اشعر بالاسف لانني ساخرج قبل ان يأتى موسى واراه مرة اخرى .. ولكننى سأحضر الى المستشفى مع ابى لزيارة الرجل الشيخ .

وشعرت بميل الى رؤية ذلك العجوز بعد كل ما سمعته من رفيقي في الحجرة فتوجهنا الى الحديقة ، وما لبث راغب ان اشار باصبعه قائلا :

ـ ها هوذا ..

ونظرت الى حيث اشار فرايت نصر الله جالسا فوق مقعد ، وقد ارتدى ملابس بيضاء . وكان وجهه ممتقعا ، ولم ار اثرا لابتسامته التي لم تكن تفارق وجهه ونظر الى وهو صامت ثم صاح بعد لحظات :

ـ اسحق : ولدى العزيز : ماذا جاء بك الى هنا ؟ قال ذلك ونهض واقفا ولكننى اسرعت نحوه اذ وجدته يعرج في سيره ، وامسك بيدى وقادنى الى اريكة قريبة واجلسنى بجواره ، ودعا ايضا رفيقى الى الجلوس معنا .

ورحت انظر الى قدمه اليمنى المحاطة باربطة بيضاء وعندما امعنت النظر في عينيه وجدتهما قد فقدتا بريقهما .. وتحولت زرقتهما الى لون اصفر باهت وخيل لى انهما عينان من زجاج ، فتمزق قلبي الما .

وراح يقص على في صوت مرهق كيف ان المعول قد اصاب اصبع قدمه الكبير اثناء عمله في ارضه . وذكر لى انه لم يقم للامر وزنا في اول الامر ، ولكن الجرح اخذ يتفاقم يوما بعد يوم ، واشتد به الالم . واشار عليه الحاج ابراهيم وابنه موسى بان يذهب الى المستوصف الصغير في القرية المجاورة للخيام لعلاج اصبعه ولكن المرض الذي يدير المستوصف اخبره ان حالة الجرح قد تطورت وانه لم يعد في استطاعته ان يفعل شيئا .. ومن الافضل ان يذهب في الحال الى غزة او بير السبع حيث يجد هناك العلاج الكافي والاطباء المهرة .

واستطرد نصر الله في صوت حزين منخفض :

– وعندما اصروا على الحضور معى منعتهم من ذلك ، حتى لا تتعطل اعمالهم ولما كان الامر يستدعى ان يرافقنى احد ، فقد اخترت شخصا واحدا . وهو ابنى موسى وسمحت له على كره منى ان يترك عمله . ولكننى امرته امس ان يتركني ويعود الى القبيلة ، ويزاول عمله ويقول للجميع اننى بخير . ولا اريد ان يكبد احد نفسه مشقة زيارتى . وقد طلب الحاج ابراهيم من ولدى موسى الا يحيطك علما بنبأ مرضى في حالة مقابلته لك . ولكن يبدو ان القدر اراد ان يرى كل منا الآخر وانا سعيد لرؤياك . ولكن هل تشكو شيئا ؟

قال الشيخ الطيب ذلك والقلق من اجلى باد على وجهه فخجلت من نفسى وانا ذلك المتمارض . ولو كنا في ظروف اخرى لذكرت له الحقيقة ، ولجعلت من الامر مزحة . ولكننى اكتفيت الآن بان اجبته قائلا :

– اننى الآن على ما يرام .. ولا اشكو شيئا .

وجاءت المرضة المبتسمة الوجه التي قادتنى امس الى حجـرة بالمستشفى وطلبت منى انا وراغب ان نعود الى حجرتنا حيث ان ميعاد زيارة الطبيب قد ازف .

وقال الطبيب بعد ان وقع الكشف على :
– يبدو انك اصبحت على ما يرام .. وتستطيع مغادرة المستشفى اليوم

وترك الحجرة وتبعته المرضة ، وما لبث ان عادت وطلبت منى ان ارتدى ملابسى واذهب معها لاعطائي خطابا من المستشفى الى ناظر مدرستى يوضحون فيه سبب غيابي . فسألتها ان كنت استطيع رؤية نصر الله لتوديعه قبل خروجى فقادتنى من يدى وذهبت بى الى الممر الخارجي وظللنا نسير حتى ادركنا الحجرة رقم (٩) .. فدخلت بى اليها .

كانت الحجرة رقم (٩) اكبر من تلك التي كنت بها ، ورأيتها تحتوى ستة اسرة كلها مشغولة بالمرضى ورأيت نصر الله جالسا فوق سريره ، فما كاد يرانى حتى اشرق وجهه . وابتسم عندما عرف اننى سأغادر المستشفى وقال :

ـ لعلك تحضر لرؤيتي في يوم الجمعة .. لانه على ما اعلم اليوم الذي يجعلونكم تخرجون فيه من المدرسة .

فوعدته بذلك . وحاولت جهدى ان امنعه من الوقوف وانا اودعه ، ولكنه اصر على ذلك .. بل انه خرج معى من الحجرة وشيعنى حتى اخر الممر على الرغم مما به .

وفي يوم الجمعة التالى غادرت المدرسة مبكرا ومعى صديقى احمد قاصدين الى المستشفى ، واصر احمد وهو اكثر اصدقائي من التلاميذ اخلاصا لى ان يحمل عنى اثناء سيرنا الهدايا الصغيرة التي ابتعتها من نقودى لنصر الله .

وكان اليوم يوم الزيارة العامة ، وما كدنا ندخل الحجرة رقم (٩) حتى وجدناها مكتظة بالناس . كان كل سرير من الاسرة الخمسة محاطا بعدد كبير من الافراد ، ما بين رجال ونساء واطفال . اما السرير السادس الذي يرقد عليه نصر الله وقد ثبت بصره على باب الحجرة فان احدا لم يكن بجانبه على الاطلاق . وما كاد يرانا ندخل انا وصديقى احمد حتى ظهرت علامات السرور على وجهه .

كان كل من في الحجرة فيما عدا نصر الله واحمد وانا من اهالى المدن ، ولم يكن فيها من البدو غيرنا نحن الثلاثة ، الامر الذي كنا نبدو معه مختلفين عمن هم حولنا .

وسألت نصر الله عن قدمه .. فاكتفى بان قال انه الآن سعيد برؤيتي ، ولكننى ادركت ان صحته ليست في تقدم . واخذ يبدى قلقه من عدم حضور ابنه موسى حتى الآن ، مع ان اليوم هو موعده . وكنت قد وصلت مع صديقى الى المستشفى في السابعة صباحا . وبعد ان مضت ثلاث ساعات وهى الفترة المحددة للزيارات ازف موعد انصراف الجميع واخذ الموجودون يغادرون الحجرة واحدا بعد الآخر . وقد اصبحت الساعة العاشرة تقريبا . وعندما خرج الزائرون جميعا ، وهممت انا واحمد بالانصراف ، سمعنا ضجة بالخارج ، وما لبثنا ان فوجئنا بفوج كبير من قبيلتنا يدخل الحجرة .

كان الفوج مكونا من عدد كبير من الرجال وبعض النساء وطفلين هما حفيدا نصر الله . وقد علمت فيما بعد ان الفوج قد منع اول الامر من دخول

المستشفى لانقضاء موعد الزيارة . ولكن طبيبا يدعى الدكتور على عطوه ، وهو بدوى الاصل وواحد من اطباء المستشفى ، توسط لدى الادارة واوضح حرج موقف قومنا الذين قطعوا كل تلك المسافة . من اجل ان يروا مريضهم ، فسمحوا لهم اخيرا بالدخول .

وظهرت على الوجوه علامات السرور والفرح لرؤية نصر الله ، ولكنها كانت ممزوجة بالحزن والالم من اجل مرضه .

وبعد ساعة من الزمن تقريبا ، حضر الدكتور على عطوه فعلم الزائرون ان فترة الزيارة المرخص بها قد انتهت وغادرنا جميعا الحجرة .. وتركنا نصر الله بمفرده .

وعندما اصبحنا خارج المستشفى بدأ افراد قبيلتنا ومن بينهم ابى وجدى الحاج ابراهيم يهتمون بالحديث الى ، فقد كان شغلهم الشاغل اثناء الزيارة هو نصر الله . واحاطنى ابى علما بانباء امى واخوتى . ودعانى جدى لتناول طعام الغداء معهم في المدينة . ولكننى لم استطع تلبية دعوته لان تلاميذ المدرسة كانوا مطالبين على الرغم من خروجهم يوم الجمعة ، بضرورة الحضور وقت الغداء والا اعتبروا غائبين فاعتذرت لجدى وشرحت له ذلك ، فنظر الى من حوله وهو يبتسم ، كانما يريد ان يقول لهم ان حياة المدينة مليئة بالقيود على العكس من حياة البادية ، وصافحتهم جميعا قبل انصرافي عائدا الى المدرسة ، ولكن ابى تبعنى ، وسألني على حدة ان كنت محتاجا الى نقود ، فاجبته بان معى ما فيه الكفاية ، ولكنه اصر على اعطائي اربعة جنيهات ، من بينها جنيهان ارسلتهما جدتى هدية لي .

وبعد ظهر يوم الاربعاء التالى جاءنى بعض التلاميذ قائلين ان رجلا يسأل عنى عند بوابة المدرسة ، فاسرعت الى هناك حيث وجدت موسى ابن نصر الله بعباءته السوداء وهو يحمل صندوقا صغيرا في يده . وذكر لى انه عندما توجه الى المستشفى لزيارة ابيه ، قيل له انه قد نقل الى مستشفى بيت لحم ، واضاف انه غير مطمئن لان القلق كان يبدو على وجوه الممرضين عندما ابلغوه ذلك . وذكر لى انه قرر العودة اولا الى القبيلة لاحاطتهم بنبأ نقله ، ثم يذهب للبحث عن ابيه في مستشفيات بيت لحم . وكان في عجلة من امره . فودعنى ثم رحل .

مضى على ذلك شهران حلت بعدها اجازة نصف السنة ، ولم تكن تزيد على ثلاثة اسابيع ولكننى كنت كالعادة في قمة الفرح ، لانني سارى خلال تلك الاسابيع القليلة اهلي وعشيرتي ، وارى الحملان الحديثة الولادة ، والعب وسط حقول القمح والشعير الخضراء ، واشارك من في سني من الرعاة مرحهم ولهوهم وأرافقهم عندما يخرجون الى التلال مع حيواناتهم .

وعندما وصلت وجدت كل شيء كما توقعت .. الطبيعة في ابهى حللها وجمال الربيع منعكس على كل ما حولي ، والخضرة هنا وهناك ، والطيور لا تكف عن زقزقتها وتغريدها .. وما من كائن حي الا وقد امتلأ حيوية ونشاطا .

واتجهت الى الخيمة الكبرى فاديت كالعادة واجب التحية اولا لابى وجدى وكبار شيوخ القبيلة . وعندما رايت موسى ، سألته وانا اصافحه عن ابيه فاجابنى وقد كست وجهه سحابة من الحزن :

ـ لقد توفي .. عليه رحمة الله .

واخذ معظم الحاضرين يرددون قول موسى « عليه رحمة الله .. عليه رحمة الله » .

وفهمت فيما بعد ان نصر الله قد مات في مستشفى ببيت لحم قبل ان يصل اليه ابنه .. مات هناك كرجل مجهول ، ودفن في قبر متواضع باحدى الجبانات الصغيرة .

وكلما مررت بعد ذلك على ذلك الاخدود الذي قابلت نصر الله يحفر فيه يوم اقام لنا سباقا فاز فيه حسن ، ورايت اشجارا باسقة خضراء .. تذكرت نصر الله الذي لم يعد موجودا ليراها .. فقد تركها لابنائه واحفاده .. وانتقل هو الى عالم آخر .

لست ادرى ، وقد مضت الآن على تلك الاحداث أعوام طويلة .. ثمانية عشر عاما .. ان كانت تلك الاشجار ما زالت ، بعد ان اصبحنا بعيدا عن الارض والوطن .. خضراء عالية ؟ ولكننى احب كلما عادت بى الذكرى الى الوراء ان اتخيلها كذلك .. احب ، بل واصر على ان اتخيلها خضراء يانعة باسقة .. كما تركها نصر الله :

الأرض الجرداء

منذ اربعة عشر عاما ، في سفح جبل كنار ، وعلى الطريق الموصل من درعا الى حبرون ، كانت هناك بعض خيام قديمة بالية . ولم تكن تلك الخيام تبتعد كثيرا عن الطريق المعروف الذي انشأه الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى ، والذي لم تعد السيارات تستعمله منذ انشيء الطريق الاخر الجديد ، وهو اكثر صلاحية وذو سطح مستوى ومغطى بالاسفلت وفي الجانب الاخر من ذلك الطريق وعلى مسافة ليست بعيدة كان يوجد نبع كـــفاء ، الذي كانت فـلول قطعان الاغنام والابقار تشرب منه .

كانت تلك الخيام القديمة البالية هى خيامنا .. كما كانت فلول الحيوانات المتبقية ، بعد ان هلك معظمها .. هى فلولنا . ومع ذلك فان الحياة في تلك الخيام المهلهلة ومع ذلك العدد القليل من الاغنام والابقار كانت افضل بكثير من الحياة داخل معسكرات اللاجئين . وكنا على الرغم مما نكابده من تعاسة وشقاء نشعر أننا على اية حال افضل من غيرنا .. لا سيما اولئك الذين كانوا قبل الكارثة ينعمون بالسكنى في المدن المتحضرة ، فوجدوا انفسهم فجأة يقيمون ، بعد المنازل المجهزة بكل وسائل المعيشة الحديثة ، في خيام لا ماء فيها ولا كهرباء .. ولا شيء على الاطلاق من ضروريات الحياة .

لقد هلكت اغنامنا وابقارنا تحت وطأة البرد القارص والجليد . وما زلت اذكر كيف كانت تنفق مواشينا بالعشرات امام اعين اصحابها دون ان يستطيعوا ان يفعلو لها شيئا .. واصبح الناس لكثرة مايموت من حيواناتهم لا يقيمون لموتها وزنا وانحصر كل همهم في البحث عن وسيلة للتخلص من جثثها المكدسة ولجأ بعض افراد القبيلة الى الاحتفاظ بما بقى من هذه المواشي داخل الكهوف الرومانية القديمة المحفورة في الجبال والتلال ، ليحولوا بينها وبين الجليد الذي ظل يتساقط بغزارة ولكن ذلك لم يجدهم نفعا ، فقد كان الموت يحصد الحيوانات حصدا حتى في داخل تلك الكهوف المهجورة .

وبعد ان مضى الشتاء واقبل الربيع لم يعد لدى قبيلتنا سوى بقية ضئيلة من الحيوانات ، وعرف القوم للمرة الاولى معنى الطقس البارد في المناطق الجبلية . ومع ان بعض الابقار والاغنام كانت قد بدأت تتأقلم مع ذلك المناخ القاسي الا ان العدد الباقي ، ظل مع هذا يتناقص عاما بعد آخر . ولذلك كان افراد القبيلة يجدون في البحث عن مكان اخر .

ان وادى الحيسى .. ذلك المكان الذي لم يعرفوا غيره من قبل ، اصبح دونه ودونهم الآن خرط القتاد ، ذلك الوادى السعيد ذو الارض الخصبة والمناخ اللطيف . لم يعد كما كان مهدا للحب والاخاء والحياة الرغدة الجميلة بل اصبح بعد ان سلبه منهم قوم اغراب معتدون ، موطنا لهؤلاء الاغراب .. فاضحت الحياة منذ ذلك الوقت شاقة عسيرة ، وبدأ افراد القبيلة يشعرون للمرة الاولى بان عليهم ان يتحملوا .. وان يكافحوا من اجل ان يظلوا احياء ، ان سفوح الجبال في تلك المنطقة الوعرة التي حلوا بها لا تلائمهم .. فعليهم اذن ان يجدوا في البحث عن مكان آخر .. مكان يستطيعون فيه ان يحصلوا على الزاد الضروري من اجل انفسهم واطفالهم وحيواناتهم .

وهكذا اصبح الحزن مخيما دائما على افراد القبيلة . وحتى نحن الصبية والاطفال ، لم نعد نلهو ونلعب كما كنا الا فيما ندر . وعلى الرغم من جهلنا بحقيقة الأوضاع ، الا ان ثمة شعورا كان يخالجنا ، بان هناك شيئا ليس على ما يرام . وبأن السعادة التي كنا نمارسها ليلا .. والعشب الاخضر الذي كنا نلهو ونعدو فوقه .. وحقول القمح والشعير وبساتين الفاكهة .. واشجار التين والموالح التي زرعها نصر الله .. كل ذلك قد انتهى وولى منذ اتينا الى هذه الارض الجرداء .

لقد اعتاد رجال القبيلة ان يتقابلوا في خيمة عمي لان جدى الحاج ابراهيم كان قد مات .. مات في نفس السنة التي اخرجونا فيها بالقهر والعدوان من وادى الحيسى .. وقد اصر رجال القبيلة احتراما لذكراه على ان يجعلوا من خيمته خيمة للقبيلة .

وكان من اهم الموضوعات التي يتناولها الرجال المناقشة كلما اجتمع شملهم في خيمة القبيلة ، موضوع انتقالهم . هل تبقى القبيلة في جمال كنار الجرداء ، بالقرب من درعا وحبرون ام تنتقل الى الجانب الشرقي من نابلس . حيث يستطيع افراد القبيلة ان يجدوا ارضا صالحة يعملون بها ، وحيث المناخ اكثر ملاءمة للحيوانات الباقية ، ولم يكن لبقاء القبيلة حيث هى من

ميزة سوى ان المدارس التي يمكن تعليم اطفال القبيلة بها متوفرة في المدن القريبة في شرق نابلس ، فان المدارس هناك بعيدة ولن تكون على مقربة من مكان القبيلة كما هو الحال في مكانها الراهن . وكانت تلك المشكلة هي محور المناقشة كل ليلة في خيمة القبيلة ، ولكن الرجال لم يصلوا بشأنها الى قرار .

كان ابى ، وعدد قليل من افراد القبيلة ، يحبذون فكرة بقائنا حيث نحن . اما معظم القبيلة فانها كانت ترى ضرورة رحيلنا . وكان كل فريق يحاول اقناع الآخر برأيه دون التمكن من الوصول الى قرار نهائي . وقد طال امر هذا الجدال الى درجة ان النسوة اصبحن يشفقن من حدوث خلاف يؤدي الى انشقاق بسبب هذا الرحيل المقترح .

وذات ليلة من ليالى الخريف ، اجتمع عدد كبير من رجال القبيلة في الخيمة الرئيسية ــ جميعهم تقريبا ــ وبعد ان احتسوا القهوة ظل السكون سائدا الا من كلمة هنا وكلمة هناك . ورأيت عددا من النساء وقد حضرن وجلسن في الجزء المخصص لهن . وكان ذلك الجو يدل على ان شيئا ما سوف يحدث . وقد ازددت تأكدا من ذلك عندما رأيت كل شيء متسما حولى بروح القلق والجدية . وحتى علي ذلك الرجل البشوش الذي لا تغادر الابتسامة وجهه ، كان متجهما ينعكس القلق على محياه في تلك الليلة . وقال صالح بن عقيل وهو احد شيوخ القبيلة المخضرمين وبعد فترة طويلة من السكون :

ــ ان الشتاء قد اصبح على الابواب .. وينبغى ان نقرر ما سوف نفعله .. ولو اننا تأخرنا في الوصول الى اتفاق .. فان ما بقى لدينا من حيوانات سوف ينفق .

وقال آخر :

ــ اجل .. لم تبق سوى ايام ، والاجدر بنا ان نقرر الليلة ما اعتزمناه .

ثم التفت نحو ابى وسأله قائلا :

ــ ماذا ترى يا عبد العزيز ؟

وظل ابى ساكنا ، وهو ــ كما بدا لى ــ يفكر تفكيرا عميقا .. ولكنه ما لبث ان رفع راسه قائلا :

ــ ليس لدى ما اقوله اكثر مما قلت في الليلة الماضية .. وهو ان لكل شخص ان يتصرف حسبما يشاء . انى ارى معظمكم يرغب في الرحيل ، وكنت اود لو رحلت معكم ، ولكننى سوف ابقى هنا . وسوف يرحل معكم ولدى

ابراهيم ، ومعه ما املك من اغنام وابقار ، اما انا فسأظل في هذا المكان من اجل ان يستمر اولادي في مدارسهم التي الحقتهم بها ، فلست احب ان اقطع عليهم حبل دراستهم .

فاجابه صالح قائلا :

ــ ان ما تقوله غير مقنع . فان في نابلس مدارس وسوف نلحق جميعا اولادنا بها .. اننا لا نريد فراقا بين افراد القبيلة .

فقال ابى :

ــ اننى على كل حال اشعر بتشاؤم من هذا الرحيل . وافضل البقاء في هذه الجبال الجرداء على الرحيل . وسوف يكون ابنى معكم . ويجدر بكم ان تذهبوا الى حبرون غدا وتدبروا وسائل النقل .

ثم تحول نحو اخى قائلا له :

ــ هذه هى المرة الاولى التي افترق فيها عن القبيلة ، اما انت فستذهب معهم ولتحضر سيارة نقل تحمل عليها خيمتك وحاجياتك .

وعندما رأى الرجال اصرار ابى على البقاء ، اتفقوا هم فيما بينهم على ان يرحلوا . وكانوا يعرفون ان ابى سوف يقيم في القرية المجاورة . وتم الاتفاق نهائيا على رحيل الجميع فيما عدا أبي . وتحدد يوم الاحد التالى موعدا لذلك .

وامضى افراد القبيلة بقية السهرة في الحديث حول الاستعداد للرحيل وما سوف يكون فيما بعد الانتقال ، وبعد قليل اخذ النساء والرجال يغادرون الخيمة الكبرى ، كل الى خيمته وما لبث السكون ان خيم تماما ، فيما عدا نباح الكلاب بين وقت واخر .. غير ان آلام الفراق كانت ملء قلوب الرجال .

ومرت الايام القليلة سريعا وحل يوم السبت . وجلس الرجال مع بعضهم جميعا في تلك الليلة حول النار . واخذ شهدى ابن عمى يدير الة طحن البن (المهباش) وكان معروفا عنه انه امهر فرد في القبيلة في هذه العملية ، وفي وسعه عند ادارته لهذه الالة ان يجعلها تصدر اصواتا شبه موسيقية . وقد ملأت تلك الاصوات المكان في تلك الليلة ، غير انها كانت اصواتا حزينة ، تعبر عما يخالج قلوب الرجال من حزن واسى . وقد اخذ شهدى يدير المهباش بوجه جامد كالتمثال ، وعينين لا اثر فيهما لمرحه المعتاد ، وقد ولى وجهه نحو الغرب ، حيث يقع وادى الحيسى . ولم يكن الرجال يتبادلون الا كلمات قليلة بين حين وآخر ، وقد سادهم الوجوم .

كانوا يشعرون جميعا بانها الليلة الاخيرة التي سوف يمضونها مع ابى .. ذلك الرجل الذي سلخ حياته كلها معهم وفي خدمتهم .. وابن زعيمهم الراحل الحاج ابراهيم .. ولكن ما حيلتهم .. ؟ لقد اختار ذلك ، ولم يكن في وسعهم ان يحملوه على العدول عما اختاره .

وجلسنا نحن الاطفال في تلك الليلة حول المصباح الخافت في خيمة ام مطير ، امرأة عجوز من نساء القبيلة لا ينضب لها في قص القصص والحكايات معين . فاخذت تروى علينا ما كان من شأن القبائل العربية القديمة ، وما كان ينشب احيانا بينهم من معارك وحروب . ولم نغادر خيمتها الا بعد ان اختفى القمر خلف جبل كنار الشاهق الارتفاع ، واخذت اخوى الصغيرين ادريس ويحيى وذهبنا نحو خيمتنا ، ولما شعرت جدتى ، وكانت سترحل في اليوم التالى مع القبيلة ، بعودتنا غادرت خيمتها ونادتنا ، وسألتنا ان نجلس معها قليلا .. ثم قالت :

ـ غدا سوف نفترق ، ولست اعتقد اننى سأراكم مرة اخرى لاننى عجوز وعلى وشك الموت .. ومع ذلك فانني سواء مت ، او ظللت على قيد الحياة فأني ساشعر بالفخر بكم ، عندما تكملون تعليمكم ، وتصبحون رجالا من ذوى الشأن والجاه .. واوصيكم ان تكونوا بارين بامكم التي قبلت ان تعيش وحيدة ، وغريبة عن قبيلتها واهلها وعشيرتها من اجلكم .

ثم تناولت صندوقا خشبيا صغيرا ، واخرجت منه ثلاث قطع ذهبية . واعطت كلا منا واحدة منها كهدية . وطبعت على خد كل منا قبلة حارة .. ثم انصرفنا .

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، علا الصياح هنا وهناك استعدادا للرحيل وكان كل شخص يفعل شيئا . وحتى نحن الذين سنبقى شاركنا في هذا الاستعداد . واخذ الرجال ينقلون الاشياء الثقيلة الوزن كالخيام وغيرها فوق سيارات النقل ، اما النساء والاطفال فقد راحوا ينقلون ما خف حمله ، كالصناديق الصغيرة والحصر ، واوانى المطبخ . وكانت تتخلل هذه الضجة اصوات الحيوانات الصغيرة التي ابقيت لتذهب في السيارات مع الرجال والنساء . اما الحيوانات الكبيرة التي تتحمل المشي ، فانها كانت قد رحلت فعلا منذ قليل قبل الفجر يقودها الرعاة لقطع تلك المسافة الطويلة ما بين جبل كنار ونابلس سيرا على الاقدام .

وامام احدى السيارات وقف ثلاثة من السائقين ، وهم يشربون الشاى الذي قدمته لهم بناء على امر ابي ، وعندما شاهد اولئك السائقون ام مطير ، المرأة العجوز التي قصت علينا قصصها في الليلة الماضية ، وهى تعدو وراء احدى دجاجاتها ، محاولة عبثا الامساك بها ، راحوا يضحكون واختفت الدجاجة تحت سيارة «اللوري» التي يقفون امامها ، وارتبكت المرأة عندما رأتهم يضحكون منها وخجلت . وتسمرت في مكانها وهى لا تدري ماذا تفعل ، فوضعت اناء الشاى على الارض ودخلت تحت السيارة ، واستطعت الامساك بالدجاجة بعد ان ساعدتني المرأة في ذلك وأحد السائقين انفسهم اذ يبدو انه قد خجل من نفسه لانه وزميليه اكتفوا بالضحك دون ان يساعدوها . واعطيت الدجاجة لام مطير فحملتها وصعدت الى السيارة التى بها باقي حاجياتها .

وحانت اخيرا لحظة الوداع . وما زلت اذكر ابى عندما وقف وسط الرقعة البيضاء من الارض التي كانت الخيمة الكبرى منصوبة فوقها قبل حلها . واخذ الرجال يعانقونه ويقبلونه وهو يبادلهم العناق والقبلات . . وعندما جاء دور علي ، وهو من اكرم رجال القبيلة واكثرهم حبا لابى ، أشاح بوجهه بعد ان عانق ابى خشية ان تخونه دموعه وراح ، لكى يخفي ذلك يتمتم ببعض كلمات لم يفهم احد منها شيئا . وعندما لاحظ ابى ذلك قال له معاتبا ومشجعا :

– عهدى بك غير ذلك يا علي : ان علينا ان نواجه الشدائد كما يواجهها الرجال . وان نؤمن بان الارض الطيبة هناك .. في وادى الحيسى سوف تجمع شملنا مرة اخرى في يوم ما .

ولكن عليا لم ينتظر حتى يسمع ما يقوله ابى ، اذ رفع ذيل عباءته والقى به فوق رأسه مغطيا وجهه ، كما يفعل البدو احيانا عندما يريدون اتقاء اشعة الشمس ، وولى ظهره متجها الى سيارته فادركت ان الدموع قد طفرت من عينيه فاراد ان يخفيها .

كانت تلك هى المرة الاولى التي ارى فيها خيمتنا قائمة بمفردها لا يحيط بها الا تلك الرقع البعيدة من الارض الممهدة ذات اللون الابيض التي تتخلف عادة بعد ازالة الخيام . ومضت اسرتنا الصغيرة المكونة منى ومن ابى وامى واخوتى فيما عدا ابراهيم ، نحو الخيمة ، بعد رحيل القبيلة .. يتقدمنا

ابى ، وجلسنا جميعا صامتين لفترة طويلة ، وما لبث ابى ان طلب من امى ان تصنع لنا شايا .

في تلك الليلة شعرت لاول مرة في حياتي بوحدة قاتلة وقد حاولت جهدى بعد ان نام الجميع ان انام بدوري .. لكننى لم استطع . وبدأ الخوف يتسرب الى قلبي ..

وكنت استمد بعض الشجاعة من ضوء القمر .. ولكن عندما غاب ، قبل ان يستولى علي النعاس ، اشتد جزعى حتى كدت اصرخ .. وفجأة سمعت صوتا صادرا من القسم المخصص في الخيمة لابى ، فامسكت بانفاسى مرهفا اذنى . وما لبثت ان سمعت اصواتا موسيقية يعزفها احدهم على الربابة فحاولت ان انهض لارى من الذي يلعب على الربابة في هذا الوقت من الليل . ولكن شجاعتى خانتنى ، ولم استطع ان احرك ساكنا .. واخذ صوت الربابة يرتفع تدريجيا حتى صار واضحا . واستجمعت اخيرا كل شجاعتى ورفعت جسدى قليلا ونظرت خلال ثقب صغير من الستار الذي يفصل بين المكان الذي انام به وبين حجرة ابى .. وهناك رايت ابى .. ذلك الرجل الجاد الذي لم اكن اعرف انه يستطيع العزف على الربابة ، جالسا في ضوء المصباح الخافت ، وقد اتجه بوجهه ناحية الغرب ، والربابة في يده .. كان في تلك اللحظة قد توقف عن العزف ، واخذ يحرك بقايا النار في الموقد ، ثم قرب الربابة منها كي يشد اوتارها .. واخذ بعد ذلك وقد تجهم وجهه وبدا عليه التفكير العميق ، يختبر الآلة الموسيقية مصدرا نغمات قصيرة سريعة .. وعلى حين بغتة ، رأيت .. وسمعت ابى ، وانا في دهشة .. يغني على نغمات الربابة.

كانت اغنية حزينة ، ظلت كلماتها عالقة في ذهنى وقتا طويلا .. ثم نسيت معظمها .. ولكننى ما زلت مع ذلك اذكر بعض عباراتها التي تقول :

ليت شعرى .. متى اراكم يا رجال ؟
يا من رحلتم خلف الجبال والتلال :
ليتنى ما تخلفت عن احبابى :
ان بى من الشجن والوحدة ما بى ..
عودوا .. فالتلال عليكم تنادى ..
من بعدكم .. ثم الظلاموالوادى .

واخذت الريح تعصف بالخيمة ، وانطفأ المصباح وخيم الظلام . واستيقظت امي في تلك اللحظة .. فشعرت بشيء من الاطمئنان . وغادرت فراشي واتجهت الى مكان ابى ، فكف عن العزف والغناء .. ولكنه استمر بعد قليل ، وجاءت امى فاشعلت المصباح . وانتهى ابى من عزفه وغنائه . وجلس ثلاثتنا حول النار الخامدة دون ان نتكلم . وفجأة اخذ كلبنا يصيح امام الخيمة .. لم يكن ينبح بل كان يعوى ذلك العواء الذي لا يختلف في شيء عن النحيب والبكاء ، وقامت امى نحوه تحاول اسكاته ، ولكنه لم يأبه لها ، وكل ما فعله انه انتقل الى مكان ابعد قليلا .. واستمر في عوائه .

لم يزر الكرى عينى في تلك الليلة ..

وفي الصباح ، ذهب ابى الى المدينة ، وعاد في سيارة زرقاء وانتقلنا الى بلدة درعا .. حيث اقمنا جميعا بالقرب من مدرستنا .

ولكننا عنـــدما ركبنا الســيارة الزرقاء .. لم يكن أحد نودعه او يودعنا هناك .

في أواخر الربيع .. منذ زمن مضى

– لا تنسى ان تزور عمتك ، فهي دائبة السؤال عنك ..
ذلك ما قالته لى امى عند رحيلى ، وقد وعدتها بان اؤدى تلك الزيارة

كنت في طريقي لزيارة عمر ، احد اصدقائي ، بعد ان عاد من رحلة له خارج الاردن . حاول فيها ان يبحث له عن عمل ، ولكنه لم يوفق ، فرجع ليقيم كغيره من مئات الشباب في عاروب ، وهو معسكر من معسكرات اللاجئين ، واخذ بعد عودته يحاول جاهدا ان يجد له عملا في الجهات المجاورة ، واخيرا ، استطاع بشق النفس ان يعثر على وظيفة متواضعة ككاتب في احد مطاعم بيت لحم ومع ذلك فقد اعتبره الجميع محظوظا ، اذ ان كثيرين غيره من الشبان لم تكن تسنح لهم مثل تلك الفرصة .

ولم تكن تلك هى المرة الاولى التي اذهب فيها الى معسكر عاروب ذى الخيام البيضاء الصغيرة .. ولم تكن تلك الخيام بالشيء الغريب علي بعد ان اصبحت منتشرة في كل مكان . والمرة الاخيرة التي زرت فيها معسكر عاروب ، كانت في الشتاء السابق لرحلتي هذه وقد شعرت وقتذاك بما يعانيه زوج عمتى علي من متاعب جسيمة وشظف العيش ، كواحد من ارباب الاسر التي تعيش في ذلك المعسكر .

وابديت لعمر بعد زيارتي له رغبتى في زيارة عمتى ، فرافقنى نحو خيمة علي .. وراح يقص علي ونحن في الطريق عن احوال اللاجئين ما يؤكد انهم في وضع بالغ السوء ، وحاول عمر ان يعود بعد ان وصلنا الى خيمة علي ، ولكن هذا كان قد شعر بنا ، فخرج الينا مرحبا ، واصر على دعوة عمر لدخول خيمته . وقبل ان ندخل ، كان كل افراد الاسرة خارج الخيمة يستقبلوننا بترحاب ، فيما عدا هدى ، ابنتهم الصغرى التي بقيت في الداخل لكى تعد مكانا لجلوسنا . وعلى الرغم من ان عمر ليس من الاسرة الا انه استقبل

اكراما لى كفرد منها ، ولكنهم ما لبثوا ان نسوه في غمرة اهتمامهم بسؤالى عن الاهل والاقارب . وذكرت ضمن ما ذكرت لهم اننى قابلت (راتب) ابنهم الاكبر ووجدته يعمل في عمان في احدى شركات الطيران ولم اذكر لهم انه يعمل حمالا ، واكتفيت بالقول بانه في حالة طيبة . وخيل لى ان عليا يعرف طبيعة عمل ابنه لانه لم يحاول ان يستفسر منى عنها . اما اولاده فقد ظلوا يمطرونني بوابل من اسئلتهم عن اخيهم الاكبر وانا احاول اجابتهم بما يرضيهم ويطمئنهم عليه .

وادركت مدى ما يرزحون تحته من فاقة وحاجة عندما قدمت لنا هدى الشاى في فناجين ثلاثة فقط على الرغم من كثرة عددنا .. وكان فنجان واحد فقط يحتفظ بمقبضه ، اما الاثنان الآخران فبدون مقبض . ولاحظت ما اعترى الفتاة من خجل وارتباك لدى تقديمها الشاى بهذه الفناجين . اما علي فقد كان كما عهدته منذ سنين طويلة ، وانا صغير .. بشوش الوجه .. كريما .. لطيفا مع كل من حوله .

وعندما انتهت زيارتى لعمر ، وتركت المعسكر بمن فيه من لاجئين ، ورحت وانا اسير في طريق محفوف بالاشجار افكر في علي ، تذكرت قصة تدور حوله طالما سمعتها في صغرى وجرت حوادثها في اثناء شبابه البكر .

فقد حدث ذات يوم مشمس في نهاية فصل الربيع ، وهى فترة عصيبة بالنسبة لقطعان البقر اذ تنتشر في ذلك الوقت من السنة حشرة غريبة تسمى ذبابة الماشية . ما تكاد تلسع بقرة ما ، حتى تشعر تلك البقرة بألم شديد يجعلها تعدو هنا وهناك في جنون في محاولة منها للتخلص من تلك الحشرة اللعينة ، ويزداد الامر خطورة اذا ما وصلت البقرة وهى في حالتها تلك الى قطيع هادىء من الابقار ، ودخلت ضمن افراده . عند ذلك يحدث بين القطيع هرج شديد ، وتتشتت الابقار جارية في جميع الاتجاهات دون ان يستطيع الراعى ان يفعل شيئا . فليس امامه اذا ما حدث ذلك سوى ان ينتظر الى ما بعد الظهر ، وهو الوقت الذي يتوقف عادة فيه نشاط تلك الحشرة . لينصرف باحثا هنا وهناك عن بقراته الشاردة .

وكان بعض الرعاة يجدون حلا لهذه المشكلة عن طريق اقتياد ابقارهم الى تلك الاخاديد العميقة التي تكونت على مر السنين بعوامل التعرية ، ويحتفظون بها في داخلها ويجلسون امام الفتحة الوحيدة للاخدود بحيث لا

تستطيع الابقار ان تخرج منه . وبذلك يأمنون شر ذبابة الماشية حتى يحين موعد كفها عن نشاطها .

حدث في ذلك اليوم المشمس في اواخر الربيع ان عليا فقد احدى ابقاره التي كان يرعاها بسبب تلك الذبابة وظل ملازما قطيعه ولم يحاول البحث عنها مرجئا ذلك الى ما بعد الظهر وهو الوقت الذي ينقطع فيه ظهور الذبابة . وعندما حان الوقت ، طلب من عبد الله ، وهو صديق له من الرعاة ان يحرس ابقاره حتى يعود ، ومضى يبحث بين السهول والوديان عن بقرته المفقودة . وبعد ان قطع مرحلة طويلة دون ان يجدها ، وصل الى واد فسيح لم يسبق له ان طرقه من قبل . وظل يبحث في ارجائه ، ولكن دون جدوى . وسمع فجأة صوتا .. فلما ارهف اذنيه تبين له انه صوت نسائي .. وكانت صاحبة الصوت تغني . واتجه نحو مصدر الصوت ، فما لبث ان رأى فتاة ذات جمال رائع حزين تجلس بالقرب من قطيع صغير من الابقار ، وكانت تغطى رأسها بطرحة سوداء . وتعمل اثناء غنائها في حياكة قطعة من قماش اسود . ولم تنتبه الفتاة لفرط انشغالها فيما بين يديها الى اقترابه منها ، لهذا فانها قد بوغتت واحمر وجهها البيضاوي الصغير عندما القى علي عليها التحية .. وسألها قائلا :

ـ الم تشاهدى بقرة سوداء ؟ لقد لدغتها الذبابة اللعينة ، فتركت القطيع وولت هاربة منذ قبل الظهر .

واجابته الفتاة والدهشة ما زالت مرتسمة على وجهها :
ـ كلا .. لم ارها ، لقد مضى علي هنا نحو من ثلاث ساعات .. ولم اشاهدها .

وظل علي يتامل الفتاة بضع لحظات ، ثم قال :
ـ شكرا لك .
وولى الفتاة ظهره وانصرف عائدا .

ولم تكن من فتيات قبيلته ، ولكنها كانت رائعة الجمال . فاصر في نفسه وهو مأخوذ اللب على ان يراها مرة اخرى .

واستطاع ان يعثر على البقرة الشاردة قبل غروب الشمس بنحو ساعتين ، فعاد بها الى عبد الله ، الذي كان يجلس بالقرب من الابقار « ونبلته » في يده يصوب بها الحصى نحو صخرة بعيدة جعل منها هدفا له .. وما ان رأى عليا .. حتى قال له :

لقد جئت اذن اخيرا .. هيا ارنا مهارتك في هذه اللعبة .

ولكن عليا كان مشتت الفكر منذ وقعت عيناه على تلك الفتاة . ولم يستطع عبد الله ان يعلل رفض علي مشاركته في لعبته .. ولكنه اعتقد انه متعب لكثرة ما بذله في السير بحثا عن بقرته ، واستمر منهمكا بمفرده في تصويب الحصى نحو الصخرة البعيدة ، وهو يتهلل فرحا كلما اصاب الهدف ، ويؤنب نفسه كلما اخطأه .

وفي صباح اليوم التالى ، اقتاد علي قطيعه ورافق اصدقاءه من الرعاة وذهب الى المكان الذي شاهد فيه الفتاة في اليوم السابق ، ولكنه لم ير لها اثرا ومضت ستة ايام ظل يتردد خلالها على المكان دون ان يشاهدها ، وفي اليوم السابع اوهم عبد الله أنهما سيغيران ذلك المكان بمكان اخر ، وتواعد معه على ان يتقابلا في المكان الجديد ، ولكنه لم يذهب اليه وقصد نفس المكان لكى يكون بمفرده .

وكانت البقعة التي شاهد الفتاة فيها وظل ستة ايام بعد ذلك لا يجدها بها ، تقع على بعد اميال قليلة من التلال المجهورة ، والتي يخاف الناس من الاقتراب منها نظرا لما يشاع من ان معركة حربية قد نشبت بها في الحرب العالمية الاولى وان اشباح الجنود القتلى تظهر فيها اثناء الليل ، وكان معروفا ان تلك التلال هى الحد الفاصل بين ارض قبيلتنا وارض قبيلة اخرى تعرف باسم قبيلة المشارفة وكان بين تلالها تل كبير يسمى تل النجيلة ، خطر لعلي ان ان يتجه اليه ، ويصعد الى قمته لعله يستطيع ان يرى الفتاة التي اصبح يرجح انها من قبيلة المشارفة التي تعتبر اقرب القبائل الى قبيلتنا وتقع خيامها خلف تلك السلسلة من التلال .

وعلى الرغم من ان الوقت كان متأخرا ، ولم يبق على غروب الشمس الا وقت قصير ، فانه اقدم على تنفيذ فكرته ، واسرع وهو يسوق ابقاره بعصاه متجها نحو تلك التلال التي يخشى الناس الاقتراب منها ، وعندما وصل اليها ، انتابه بعض الخوف ولكنه وجد في سفوحها بقعة مليئة بالحشائش الخضراء ، فترك الابقار ترعى فيها بمفردها واتجه هو الى تلك النجيلة وراح يصعد حتى وصل الى قمته . ومن ذلك الموقع استطاع ان يرى تحته مساحة شاسعة من اراضي قبائل البدو لم يسبق له ان تمكن من رؤيتها فقد شاهد ارض قبيلته جميعها وكل الاماكن التي يعرفها ، وعندما القى ببصره صوب الجنوب ، رأى

ارض المشارفة وشاهد مضارب خيامهم على بعد سحيق . كما استطاع ان يميز قطعان الاغنام والابقار المتناثرة فوق سهولهم الواسعة الخضراء ، وعلى منحدرات التلال الصغيرة القائمة في منطقتهم . وفي الارض الواقعة غرب مضاربهم رأى على البعد قطعانا صغيرة من البقر بالقرب من احد التلال يضم عددا من الابقار مماثلا تقريبا للعدد الذي كان مع الفتاة . ورأى شيئا اسود وسط القطيع لم يستطع ان يميز ان كان بقرة صغيرة ام انسانا فظل يراقب ذلك الشيء حتى تحرك اخيرا ، واكتشف انه الراعي او الراعية . ورجح انها ليست سوى الفتاة التي يحاول ان يجدها منذ سبعة ايام لمجرد القاء نظرة عليها بعد ان استولت على قلبه .

وكانت الشمس قد أنحدرت نحو الافق وبدأ قرصها في المغيب ، فراح يصوب النظر نحو الراعية وهى تجمع شمل ابقارها استعدادا للعودة بها وقد كست وجهه سحابة من الحزن الممزوج ببعض الامل . وما لبث ان استدار ، وهبط من فوق التل ثم جمع ابقاره وعاد ادراجه الى قبيلته .

وفي صباح اليوم التالى استيقظ علي قبل الفجر ، واصطحب قطيعه في وقت مبكر ، ومضى رأسا نحو تل النجيلة ، ولكنه لم يصعد هذه المرة الى قمته بل مضى في طريق يؤدي الى ارض المشارفة ، وقد وطد العزم على ان يصل الى البقعة التي رأى الفتاة بها في اليوم السابق ، او الى مكان قريب منها ، فلم يكد يمضي قليلا ، حتى شاهد قطيع الامس ذا البقرات القليلة يرعى على مسافة قصيرة منه في سهل مغطى بالاعشاب ، وعلى مبعدة قليلة منه رأى فتاة جالســة على احدى الصخور وهى تعمل بابرتها في قطعة من قماش ابيض .

كانت بقراته سيئة الحظ لم تذق طعم العشب منذ بدأ مسيرته في الصباح المبكر على الرغم مما مرت به من رقع خضراء كثيرة ذات اعشاب جيدة ، فتركها الآن ترعى في نفس الرقعة التي تأكل منها الابقار الاخرى ، واتجه نحو الفتاة التي اكتشف عندما اقترب منها انها هى .. ورأته الفتاة وهو في طريقه اليها فرفعت رأسها وظلت تنظر نحوه حتى اصبح علي بعد خطوات منها . واحس على بشيء من الخجل ، ولكنه اقترب من الفتاة وقال لها وقد تصاعد الدم الى وجهه :

– يؤسفني ان ازعجك . ولكننى جئت اسألك جرعة من الماء ..
واجابته الفتاة بلهجة متزنة لا اثر فيها للاضطراب :

ـ لا ماء معى .. ولكنك تستطيع ان تطفىء ظمأك من الغدير الازرق هناك .. واشارت له نحو الجهة التي يجرى فيها الغدير واستطردت :

ـ ان مياهه نقية رائقة .. يخيل لى اننى رايتك من قبل ، ألست انت الذي مررت بى منذ ايام في الجانب الغربي من وادى الحيسى ؟
ـ انه انا .. وكانت تلك هى المرة الاولى التي اراك فيها هناك . لا اظن انك من قبيلتنا ؟

ـ كلا .. انا من قبيلة المشارفة .. وقد ذهبت في هذا اليوم الى هناك لان ابقارى شردت منى بعد ان لدغتها تلك الذبابة ولم استطع جمع شملها الا في تلك البقعة التي رأيتنى فيها .

كان علي يعرف ككل بدوى انه ليس من المستحسن في هذا المكان ان يقف المرء ليتحدث وقتا طويلا الى فتاة من قبيلة اخرى . وعلى ذلك فانه وجه اليها بعض كلمات الشكر ، ثم استدار لينصرف وذكر لها قبل ان يمضي بعيدا ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، ان من عادته ان يحضر يوميا الى تل النجيلة لان المرعى هناك جيد ووفير .. ولان الذبابة غير منتشرة عند سفحه ، ثم مضى في طريقه وهو يتساءل بينه وبين نفسه ان كانت سوف تأتي الى المكان الذي اشار لها اليه والذي يقع تقريبا عند الحدود بين اراضي القبيلتين ..

وعندما وصل في اليوم التالى الى تل النجيلة ، لم يجد احدا فترك الابقار وصعد التل وشاهد عندما القى ببصره نحو الجنوب ما شاهده في المرة السابقة من خيام المشارفة وحيواناتهم ولكنه لم ير الفتاة وقطيعها الصغير في المكان الذي كانت فيه في المرة السابقة ، فراح يحول بعينيه في ارجاء الوادى الفسيح دون ان يهتدى اليها وظل ساعة او اكثر فوق قمة التل وهو متجه ببصره نحو ارض المشارفة علها تبرز من مكان ما فجأة ، ولكنها لم تفعل. واخيرا اخذ يهبط التل عائدا الى ابقاره ، ولفت نظره من بعيد ان عددهم اكثر مما هم عليه . فراح يدقق النظر حتى تبين له ان ثمة ابقارا غريبة مختلطة بقطيعه فخطر له انها ابقار صديقه عبدالله الذي ربما كان قد تبعه دون ان يشعر به . غير انه ما لبث ان فوجىء بالفتاة صاعدة التل نحوه وعلى بعد امتار منه فابتسم ابتسامة عريضة وقد رقص فؤاده ، سرورا . واعترف لها بانه كان يتوقع مجيئها وانه كان يحاول رؤيتها من فوق قمة التل ، وجلست الفتاة على بعد بضعة اقدام منه ، وراحا يتحدثان .

وذكر لها الكثير عن نفسه واسرته وحياته وكيف انه لم يكف عن التفكير فيها منذ ان رآها تغنى في وادى الحيسى ، اما نايفة (وهذا اسمها) فقد اخبرته انها يتيمة الاب وانها وامها تقومان بتربية ورعاية اخوتها الاصغر منها ، وهما بنتان وولد كما تحدثت اليه ضمن ما تحدثت به عن قريب لها يدعى راشد ، وذكرت انه يريد الزواج منها ولكنها لا تحبه .. وابدت خوفها منه لانه لا يكف عن مراقبتها وملاحقتها ثم اضافت قائلة :

ــ انه كسول لا يفعل شيئا سوى الجلوس في خيمة القبيلة طوال اليوم ، ملقيا عبء العمل على كاهل اخواته ، وانى لاشعر بالخجل اذ اتحدث هكذا عن فرد من اسرتى ، ولكن هذا هو الواقع .. ولا يبعد ان يحضر في اثرى الآن ويرانا فتسوء العاقبة ، لهذا ارى ان نفترق في الحال .

فوافق علي .. واستعد كلاهما للعودة وقال لها :

ولكن تذكرى اننى لن انقطع عن الحضور يوميا الى هذا المكان .. وسأنتظرك دائما مشوقا ..

ولايام كثيرة بعد ذلك كان المرء اذا ما قيض له المرور بتلك البقعة المهجورة يرى بها قطيعين من البقر كل منهما يرعى على مسافة من الاخر وهما لا يقتربان طول النهار من بعضهما .. حتى اذا ما بدأ الظلام يرخى سدوله ، اصبحا قطيعا واحدا ، ويبقيان هكذا مندمجين في بعضهما كقطيع واحد لمدة ساعتين او اكثر بعد غياب الشمس . واعتاد العاشقان على تلك التلال المجهورة حيث كان المكان مطمئنا وهادئا ، لان احدا من الرعاة او غير الرعاة لم يكن يفكر في ارتياده لا سيما بعد غروب الشمس ، بل ان عليا ونايفه اصبحا يشكان في صدق تلك الاشاعات التي تدور حول ارواح قتلى الحرب .

ولكن شكهما لم يدم طويلا ، فقد شاهدا ذات ليلة الابقار تتوقف فجأة عن الاكل وقد انتصبت اذانها واخذت تضرب الارض باظلافها ، واستولى الخوف الشديد على نايفه .. وللمرة الاولى منذ تعارفا التصقت بعلي وتعلقت ذراعاها به .. وشعر بدقات قلبها اثناء ذلك واستنشق اريج انفاسها . وهمست نايفة قائلة بصوت مرتعش :

ــ انه شبح .. لقد رأيته بعينى يمرق بجوار تلك البقرة .

ــ واجابها علي بصوت راسخ شجاع :

ولكننى لا ارى شيئا .. لا تخاف .. انه مجرد وهم .
واضطر في تلك الليلة الى مرافقتها اثناء عودتها وظلا صامتين اثناء الطريق وكان خاليا ، لان كل الاغنام والابقار عادت منذ وقت من التلال .
وامسك علي بيديها قبل ان يفترقا قائلا لها :
ــ هل تعدينى بانك لى ؟
وظلت فترة صامتة ثم اجابت في صوت خافت :
ــ نعم .. اعدك .

وشعر علي ببضع قطرات ساخنة تتساقط فوق يديه ، فعرف انها تبكى . وظلا واقفين هكذا وهما متشابكا الايدى فترة غير قصيرة . بينما كانت ابقارها تشق طريقها بمفردها نحو مأواها الذي تعرفه جيدا . ولم يطل وقوفها كثيرا حتى بدأت الكلاب تنبح عند الخيام ، فمضى كل منهما في طريقه وهو سعيد .. يراوده الامل في المستقبل .

وفي اليوم التالى ، ساق امامه القطيع وذهب الى نفس المكان .. فلم يجد احدا .. ولم ير نايفة ولا قطيعها . وامضى اليوم كله هناك .. بل وانتظر حتى غربت الشمس وبعد خروجها بقى وقتا كافيا .. ولكن احدا لم يحضر . فعاد ادراجه مع ابقاره الى الخيام . وفي اليوم التالى حدث نفس الشيء ..

ومر شهر او اكثر دون ان يقابلها ، او حتى يراها . واستبد به الشوق اليها .. وانتابه في الوقت نفسه قلق شديد عليها .
اين ذهبت ؟ ولماذا اختفت ؟
اتراها مريضة ؟ ولكن المرء لا يمرض هكذا فجأة : لقد تركها اخر مرة وهى في تمام صحتها .. ولم تكن تشكو شيئا . واتجهت افكاره اخيرا نحو راشد .. وتذكر ما قالته له من انه يحبها ويريد الزواج منها . وراح يعصر ذهنه محاولا الاهتداء الى وسيلة يتمكن بها من معرفة اخبارها .

وعلم اخيرا ان حفلة عرس سوف تقام في قبيلة المشارفة .. فقرر ان يقنع بعضا من اصدقائه ، على الرغم من بعد المسافة ، بان يذهبوا الى هناك معه ليلا . فقد كان من المألوف ان يذهب الشبان من اية قبيلة الى قبيلة اخرى في مناسبات الزواج ، وهم يغنون ويمرحون ، وعندما يقتربون من خيام القبيلة المقام بها الحفل ويشعر شبانها بقدومهم يخرجون الى ضيوفهم للترحيب بهم وهم يبادلونهم الاغاني .

وهكذا شهدت البقعة التي عند سفح تل النخيلة في الليلة التالية مجموعة من شباب البدو يمرون بها ، وهم يملأون الجو صياحا وتهليلا ، ويغنون اغاني الحب تارة ، وينشدون تارة اخرى اناشيد الفخر بقبيلتهم ، مرددين ما هى عليه من شدة بأس ، وعزة نفس وكرم . ولم يكن علي في حالة معنوية تسمح له بالغناء ، ولكنه وهو الذي اقترح عليهم المجيء ، كان مضطرا الى مجاراتهم ومشاركتهم الغناء على الرغم منه .

وعندما اقتربوا من مضارب المشارفة ، ضاعفوا من صياحهم وتهليلهم ، فدوت الاعيرة النارية عند خيام القبيلة علامة على الابتهاج ، واقبل نحوهم عدد كبير من الشبان ، الذين كانوا يعرفون بعضهم وسبق ان قابلوهم اثناء الرعى في التلال والوديان . واحتفى هؤلاء بهم . وقادوهم الى الخيمة الكبرى ، التي اجتمع الناس امامها ، وقد جلس الشيوخ الى اليمين واصطف بالقرب منهم عدد من الشبان يبلغ الثلاثين شابا او اكثر وهم يصفقون بايديهم ، ويرقصون على ايقاع ذلك التصفيق وامام الشبان المصطفين كان يقف رجلان يطارحان بعضهما شعرا يغنونه ، وبين هذين الرجلين وقفت امرأة ترقص وقد ارتدت ملابس طويلة كاملة ، وامسكت بيدها سيفا . ولم يكن احد يستطيع ان يمسها او حتى يقترب منها ، فقوانين القبائل تعطيها الحق في ان تضرب بالسيف اى شخص يحاول ان يمسها . وعندما سرى نبأ حضور افراد من قبيلة الدقس ، اخذ الرجلان الشاعران يرحبان شعرا بالضيوف .

اما النساء فكن جميعا داخل الخيمة الكبرى ، بعضهن يمارسن الرقص ، والاخريات يشاهدن ما يجرى خارج الخيمة .

وكانت اقداح القهوة والشاى واكواب اللبن تقدم طوال الوقت لمن يشاء . وقد انضم علي ورفاقه بعد ان وصلوا بقليل الى صف الشبان الذين يصفقون ويرقصون . وحاول علي جهده ان يرى نايفة بين النساء في الخيمة فلم يستطع ، فقد كان النور في الخارج اقوى بكثير منه داخل الخيمة . اذ اقيمت امام مدخلها سارية مرتفعة علق بها مصباح قوى ، كما كان على كل من جانبيها مصباح ايضا ، وهكذا كان النساء يرين الرجال بسهولة ،اما هؤلاء فلم يكن في وسعهم رؤية النساء لضالة النور داخل الخيمة .

وشعر علي وسط زحام الاطفال حوله ، بيد تلمسه من الخلف ، فلما التفت رأى صبية صغيرة تشير اليه برأسها ان يتبعها . وسارعت دقات قلبه ،

وانسحب من الصف وتبعها بعيدا عن الانوار ، ولما اصبحا في مكان يكاد يكون مظلما توقفت الصبية عن السير كما وقف هو ايضا بجانبها متلهفا الى سماع ما سوف تقوله له واخيرا قالت الفتاة الصغيرة :

ـ الشبح لم يكن شبحا .. بل كان شخصا حقيقيا وقد اصبح محظورا عليها الابتعاد عن الخيمة او الخروج مع الابقار .. انها عند وعدها الذي قطعته لك .. وعليك ان تقابلها عند الغدير الازرق الذي ارشدتك ذات مرة اليه لتطفىء منه ظمأك .. لا تنس .. غدا .. بعد الغروب بساعتين .. عند الغدير الازرق .. انها تريد ان تدلى اليك بانباء هامة ..

قالت ذلك ثم اولته ظهرها وابتعدت في الحال دون ان تعطيه اية فرصة ليقول لها شيئا .. او يستفسر عن أي أمر من الامور التي كان يود ان يستفسر عنها ، وعبثا حاول ان يتبعها او يراها بعد ذلك ، اذ اختفت في زحمة الاطفال.

ولم ينضم بعد ذلك الى الشبان الذين يصفقون ويرقصون بل اتجه نحو الجانب الايمن امام الخيمة حيث يجلس شيوخ القبيلة ، فظل واقفا بجانبهم ، يشاهد الرقص والغناء ولكنه في الحقيقة .. لم يكن يرى شيئا .. او حتى يشعر بما يدور حوله ..

كان السرور يبدو على الجميع اثناء عودتهم الى ارض قبيلتهم فيما عدا عليا. واخذ كل منهم يتحدث ويعلق على ما حدث في الحفل من امور مبهجة .. والبعض يؤكد انه استطاع ان يلمح بعض الفتيات الجميلات داخل الخيمة .. وبعد ان اشبعوا هذا الموضوع حديثا وتعليقا ، راحوا ينشدون ويغنون اثناء سيرهم ، دون ان يشترك علي معهم فقد كانت كل افكاره تدور حول الصبية الصغيرة .. وما قالته له وقد اخذ يستعيد في ذهنه كل كلمة .. بل كل حرف مما قالته ، وكان واضحا له ان السبب في كل ما حدث هو راشد . ومع ذلك فقد عقد العزم على ضرورة موافاتها في الموعد والمكان اللذين حددتهما له .

ولم يذق طعم النوم في تلك الليلة . وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالى جمع ابقاره ومضى بها تتبعه عينا امه القلقتان . بعدما لاحظت ما هو عليه في الايام الاخيرة.فما من احد اكثر من الامهات مقدرة على الالمام بمتاعب ابنائهن ، واكتشاف خواطرهم المبلبلة وقراءة افكارهم مهما حاول هؤلاء اخفاء ما في صدورهم .

وعندما وصل الى الجانب الشرقي لتل النخيلة ترك بقراته ترعى هناك وظل بالقرب منها طوال النهار . وكان يوما مليئا بالقلق والانتظار ، وكان يستطيع ان يرى من مكانه الوادى الذي به الغدير الازرق .

وبعد ان غربت الشمس واقترب الموعد . خلع عباءته وكومها فوق الصخرة التي كان جالسا عليها ليوهم الابقار بانه ما يزال هناك . ثم مضى في طريقه نحو الغدير .

وعندما وصل الى هناك ، وجد السكون مخيما تماما ولم يطرق سمعه اى صوت على الاطلاق . ظل برهة واقفا عند حافة الوادى وقد اتجه ببصره نحو خيام المشارفة ولكن احدا لم يكن قادما من هناك ، وكان الطريق الضيق خاليا تماما من كل انسان وحيوان . وراح ينادى بصوت خافت قائلا :

– نايفه .. نايفه .

لكن احدا لم يرد عليه .. وظل ينتظر حتى مضت ساعة من الزمن : عند ذلك خطر له ان شيئا ما لا بد قد حدث وترتب عليه منعها من الحضور . وهم بالانصراف ولكنه تذكر انها قد تأتى بعد انصرافه .. كما تذكر امانتها وصدقها فبقى ينتظر حتى مضت ساعة اخرى او اكثر .. واصبح الوقت متأخرا جدا . فاضطر الى العودة وهو حزين

ووجد ابقاره حيث تركها ، وقد كفت عن الرعى ورقدت وهى تجتر فوق الحشائش فاصدر صوتا فنهضت على اثره واقفة على قوائمها . ومضى بها نحو قبيلته .

وفي صباح اليوم التالى توجه الى تل النخيلة مصطحبا معه صديقه حسن ، فوجدا بعض رعاة من قبيلة المشارفة فوق التل .. ونقل هؤلاء اليهم النبأ المحزن

لقد عثروا على فتاة من اجمل فتيات قبيلتهم وافضلهن خلقا ، غريقة في الغدير الازرق .

وصعق علي .. واظلمت الدنيا في وجهه .. وقال احد الشبان الرعاة

– كان شعرها الجميل طافيا على سطح الماء .. ولقد عثروا على قطعة من قماش ابيض كانت تطرزها ملقاة فوق حافة الغدير ..

وقال فتى آخر :

ـ مسكينة نايفة : كانت احسن فتيات القبيلة واكملهن .. ان احدا لن يشرب بعد ذلك من مياه هذا الغدير اللعين .

ومنذ ذلك الوقت . اصبح الناس يطلقون على الغدير اسم « غدير نايفة » بدلا من الغدير الازرق ولم يعد احد فعلا يشرب من مائه .



شيبان

كنت قد امضيت عامين لم ار فيها احدا من اسرتي . وذات مساء وقد عدت من المملكة العربية السعودية في اجازة ، ولم يكن « التاكسى » الذي اقلني يستطيع الوصول حتى باب المنزل الصغير الذي اصبحت عائلتنا الآن تقيم به في بلدة تاركوميا فانزلت حقائبي . واعطيت السائق نقوده فمضى عائدا بسيارته . و رآني احد الصبية ممن كنت اقوم بالتدريس لهم فيما مضى فتقدم منى وسألنى ان يساعدني في حمل متاعى فقبلت منه ذلك شاكرا .

وبعد خمس دقائق كنت امام الباب الخارجي ولما كنت اريد مفاجأة ابى وامى واخوتى . فقد اوصيت الصبى ألا يصدر صوتا . وقد فعل .. ولكن كلبنا « شيبان » اكتشف امرنا . ونهض من المكان الرطب الظليل الذي كان راقدا به خلف الباب واخذ ينبح بشدة وقد اصر على مهاجمة القادمين . ولكنه ما كاد يرانى حتى توقف ، وراح يهز ذيله سريعا يمينا ويسارا ، ويرفع رأسه إلي ثم يخفضها . وعندما سمعت امال ابنة اخى حسن ، وهى طفلة ذات ستة اعوام الضجة التي اثارها الكلب فتحت الباب الداخلي ووقفت تنظر إلى برهة وما لبثت ان انفجرت صائحة .

– عمى .. : عمى .. :

وبدلا من ان تأتي نحوي قفلت عائدة الى الداخل وهى تصيح :

– عمى .. : عمى .. :

وقبل ان ادخل ، شاهدت ابى وامى وهما يسرعان نحوى . وقد شعرت وانا اعانق أبي انه قد تقدم في السن كثيرا عما تركته منذ عامين . اما امى فقد كانت دموعها تجرى على خديها سرورا وهى تقبلني .

وكان اللقاء سعيدا .. وجلسوا جميعا حولى في ظل الجدار الأمامي للمنزل وفوق الارض المرصوفة بالبلاط . يسألونني احيانا ويجيبون على ما اوجه اليهم من اسئلة احيانا خرى . وكان شيبان ما زال واقفا امامنا يهز

ذيله ، ويحدق النظر في وجهى ، كأنما يريد التأكد من اننى ما زلت اذكره وناديته باسمه فضاعف من سرعة هز ذيله واقترب منى .

كان شيبان واحدا من ابناء كلبة جدى ، وقد حصلت عليه هـــو واختــه « سمحة » كهدية من جدى خلال الايام السعيدة التي عشناها في وادى الحيسى . وكان شيبان واخته سمحة من عمر واحد ، ومتشابهين ايضا تقريبا في اللون ، فالظهر اسمر ، ومنطقة البطن بيضاء ، والرأس اسود داكن ، وهما من النوع الشائع لدى البدو ، والذي يعتمدون عليه في حراسة اغنامهم نهارا وخيامهم ليلا .

كنت احمل لهذين الكلبين حبا شديدا ، واعتز بهما . ومع انه لم يكن من المعتاد لدى البدو ان يدعى احد افراد الاسرة ملكيته لاحد الكلاب ، فهى ملك للاسرة جميعها ، الا اننى دأبت منذ صباى على التصريح بانهما كلباى ، وصممت دائما على ذلك ، حتى تقبل افراد الاسرة والجيران اخيرا ذلك واصبحوا كلما جاء ذكر الكلبين يتحدثون عنهما على انهما كلباى .

كانا مثالا للامانة والوفاء .. يتبعانى اينما ذهبت .. وكثيرا ما لامنى ابى من اجل ذلك ولم يكن يكف عن القول باننى افسدهما بتدليلى لهما ، وقد اعتاد ان يقول لى :

ـ ان من يريد الاحتفاظ بكلاب جيدة فعليه ان يربطها .

وما زلت اذكر كيف اننى استيقظت ذات مرة عند الفجر وكان الوقت ربيعا ، فغادرت الخيمة ، وسرت فوق الحشائش الخضراء التي بللها الندى وقد عزمت على ان الحق بقطيع ابقارنا الذي كان قد سبقنى نحو التل القريب من الخيام ، ولم اكن اشعر بالكلبين وهما يتبعانى حتى رأيتهما فجأة يمران بى ويتقدمانى وهما يعدوان بسرعة خاطفة ، وصوبت نظري الى حيث يعدوان كالريح ، فرأيت ثعلبا ذا ذيل ابيض امامهما . فرحت اعدو خلفهما وسط العشب الذي غطاه الندى حتى ابتلت ساقاى الى الركبتين ، وقد رأيت سمحة على مقربة من الثعلب تكاد تمسك به لولا انه كان كعادته يتحرك اثناء عدوه السريع يمينا ويسارا حتى لا يستطيع عدوه الامساك به ، وما لبث شيبان ان ادركه ايضا وكادا ينشبان فيه انيابهما لولا انه قفز في اللحظة الاخيرة داخل اخدود صغير . ولم يتردد الكلبان وتبعاه داخل الاخدود ، فلم اعد اراهما ، وكان التعب قد اخذ منى فجلست وانا الهث بشدة فوق صخرة موجها نظري

نحو الاخدود . وبعد دقائق عاد الكلبان وهما يلهثان وجلسا امامى وقد بسط كل منهما قائميه الاماميين وبرز لساناهما من شدة التعب . ورجحت انهما لم يستطيعا الفتك بالثعلب ، وانه تمكن من دخول جحره قبل ان يدركاه .

وعندما بعث بى ابى في الصيف التالى الى المدرسة الداخلية في بير السبع افتقدت شيبان وسمحة تماما في اول الامر ، وشعرت بحنين شديد اليهما . ولكنني ما لبثت في غمرة الحياة الجديدة التي بدأت اعيشها في مدرستى ان نسيتهما ومع ذلك فقد كانا هما اول من قابلني عند عودتى :

وقد فقدت شيبان ذات مرة ، وظننت اننى لن اراه بعد ذلك . وكان هذا عندما نزحنا عن ارضنا في وادى الحيسى ليلا تحت تهديد الدبابات الصهيونية . ولم اشعر بغيابه طوال اليوم التالي فقد كانت هناك امور اخرى ادعى الى الاهتمام والانزعاج ، من بينها من قتلوا او جرحوا من افراد القبيلة . واكتشفت غيابه في المساء ، وشعرت بحنين اليه عندما لم اسمع صوت نباحه بين نباح باقى كلاب القبيلة ليلا في المكان الجديد الذي انتقلنا اليه ، وكانت معظم الخيام ما زالت مكدسة لم يتم اقامتها جميعا بعد . كانت اخته سمحة وانا فقط اللذين شعرنا بالحزن لفقده فقد اخذت الكلبة الوفية تعوى طوال الليل بصوت اقرب الى البكاء . والجبلان المرتفعان المتاخمان للبقعة التي حلت القبيلة فيها يرددان صدى عوائها الحزين .

ومر اسبوعان دون ان نعرف شيئا عن شيبان وكان من الحماقة ان يسأل المرء عن كلب ، اثناء تلك الظروف الاليمة التي احاطت باسر القبيلة . ولكننى طفت مع ذلك على خيام العائلات التي لم تفجع اثناء اخلائنا عن وادى الحيسى ، في احد من افرادها ، وسألتهم عن شيبان ، ولكن احدا لم يستطع ان يدلني على الكلب المفقود ، ولم تكف سمحة منذ اختفى اخوها عن العواء في كل ليلة حتى ضاق بها بعض افراد القبيلة ووصفوا عواءها بانه نذير شؤم وعلامة سيئة ، ولما كان المفروض انني صاحبها فقد كنت اطالب من أبي واسرتي والجيران باسكاتها وقد حاولت ذلك مرارا ، ولكنها رفضت نهائيا ان تنقطع عن العواء على الرغم من الحجارة التي كنت القى بها نحوها . وعندما شعرت بانها اصبحت غير مرغوب فيها بالقرب من الخيام . اعتادت ان تلوذ بنفسها عندما يحل المساء فوق احد التلال القريبة ، وتمضى في عوائها بين حين وآخر .

وضاق ابى ذرعا بها .. وسمعته يقول اكثر من مرة بانه سيقتلها ، واحسست انه يعنى ما يقول فحفزني ذلك على ان اسأله ذات ليلة عما اذا كان في وسعى ان اذهب للبحث عن شيبان . ولما كان يعلم مقدار تعلقى بالكلب ، فانه ابدى موافقته وطلب من اخى الاكبر حسن ان يرافقني .

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالى . ركب كل منا حمارته البيضاء واتجهنا غربا ، فقد ادركنا ان افضل طريق للبحث هى ان نسلك الطريق الذي سلكته القبيلة في سيرها عندما غادرت وادى الحيسى . ومررنا بكثير من الابار والينابيع وشاهدنا كثيرا من الاغنام والابقار حولها ومعهم بعض الكلاب والتبس الامر على اكثر من مرة عندما كنت ارى كلبا شبيها بشيبان فاعتقد اننى قد عثرت عليه ، ولكننى لا البث عندما اقترب ، ان اكتشف خطأي . وعدنا آخر النهار دون ان نوفق الى شيء وعرفنا بعد عودتنا ان سمحة قد اعطيت لرجل في القرية المجاورة لنا فاستولى علي غضب شديد وسألت امى عما جرى فقالت :

ــ فلنحمد الله على انه لم يطلق الرصاص عليها ، لقد كان على وشك ان يفعل ذلك ، ولكن بكاء اخوتك جعله يقلع عن هذا .

وقد عرفت بعد هذا ان ابى امر صبيا يعمل راعيا لابقارنا بان يأخذ الكلبة ويتخلص منها ، وعندما مر الصبى الطيب القلب بالقرية وسأله احد رجالها ان يعطيه اياها فرح واعطاه اياها في الحال . وقد ذهبت في اليوم التالى الى القرية وقصدت بيت الرجل ، ورأيت الكلبة المسكينة مقيدة بسلسلة حديدية وعندما راتني نهضت على قوائمها واخذت تبصبص بذنبها وتقفز الى اعلى وكنت على وشك ان احررها من قيدها عندما اقبل نحوى رجل ضخم خارجا من المنزل وسألني في شراسة .

ــ ماذا تفعل هنا ؟

ولما كنت اعرف انه لا حق لى في الاستيلاء على الكلبة بعد ان اصبحت ملكا له فقد اجبته :

ــ لا شيء

وتركت سمحة وهى تحاول جهدها ان تتخلص من قيدها .

وبعد اسبوعين رافقت بعض رجال القبيلة لنحصل على الماء من نبع يسمى نبع الانجور ، على مبعدة قليلة من مضرب الخيام . وكان النبع يقع بين

جدارين من الاحجار ارتفاع كل منهما يبلغ مترا تقريبا . وبالقرب من هذين الجدارين وتحت بعض الاشجار الكثيفة تجمع عدد كبير من الحيوانات ما بين ابقار واغنام وحمير وجمال ، وكان الرعاة يجلسون فوق الجدارين المذكورين ، وهم يتناولون الطعام او يلعبون وعلى مقربة منه ، وتحت ظلال الاشجار كانت كلابهم راقدة على الارض . واخذ رجالنا يملأون الصفائح والقرب ويحملونها فوق ظهور الجمال والحمير . بينما انا اساعد احدهم رأيت الكلاب تنهض فجأة وتندفع سريعا نحو الجهة الجنوبية فنظرت لارى ما اثارهم وشاهدت كلبا اسمر هزيلا قد دفع بذيله بين ساقيه الخلفيتين ، قادما نحو النبع لكى يطفىء ظمأه .

ولما رأى الكلب الهزيل الكلاب الاخرى متجهة نحوه تنحى جانبا ، واستمر في السير بجانب الجدار ، ولكن احد الكلاب كان قد وصل اليه ، وراح يهاجمه فحاول هذا ان يدافع عن نفسه وكاد ينجح لولا ان الكلاب الاخرى وعددها اربعة انضمت الى الكلب المهاجم ، وراحت جميعها تسعى الى نهش الكلب الغريب بانيابها وهو يدور بسرعة حول نفسه محاولا ان يتفادى عضتها ولكنها اطبقت عليه من كل جانب وبدأت تعمل فيه انيابها . ولما شعر المسكين بألا حيلة له مع اعدائه حاول الفرار .. ولكن بعد فوات الوقت اذ ان الكلاب الخمسة كانت قد القته ارضا واخذت تعضه في وحشية وايقنت وانا ارى ذلك المنظر ان نهاية المسكين قد ازفت .

وعندما رأيت الرعاة لا يكترثون بما يحدث عدوت سريعا نحو المعركة ، وانا اجمع بعض الحجارة اثناء عدوى ـ وكان الفصل بين الكلاب المهاجمة وفريستهم امرا صعبا فقد كانوا جميعا متكالبين فوق الكلب الهزيل وقد ربض فوقه كلب اسود ضخم ، ولكنني استطعت مع ذلك ان اسبب بعض الارتباك للكلاب المهاجمة . كما استطعت اخيرا بمساعدة بعض الصبية من الرعاة ممن جاءوا اخيرا ان انحى الكلاب الخمسة عن الكلب الاسمر الهزيل .. ولشدة ما كانت دهشتى .. وما اعظم ما كان الى عندما اقتربت منه وتفرست فيه ووجدته .. شيبان .

كان راقدا فوق ظهره ، وقد تضرج جسده بالدماء وعندما رأى اعداءه قد تفرقوا من حوله وقف على قوائمه بصعوبة ثم مضى يريد الفرار وهو متهالك على نفسه ، فاخذت الكلاب تعدو خلفه مرة اخرى ، ولكنني وقد عرفت انه

شيبان لم ارحمها هذه المرة ، واخذت اعدو بدوري وراء الجمع وقد دبت في حمية شديدة ، وما زلت ارميها بقوة وعنف بالحجارة الكبيرة التي اصابت عددا منها حتى تراجعت كلها .. وصحت قائلا :

ـ شيبان : شيبان .

ومع انه لم يكن اثناء محاولته الفرار ينظر الى الخلف مطلقا الا انه عندما سمع صوتى ، التفت خلفه وعرفني والتف حول نفسه عائدا إلي غير عابىء بالكلاب الاخرى التي كانت ما زالت تترصده بالقرب منا .. وعندما وصل عندى رقد على الارض واخذ يتمسح في قدمى حتى تلوثتا بالدماء . وجلست بجواره واخذت اربت بكفى على ظهره ، ثم نهضت فوجدته ينهض ايضا وسرت مناديا عليه باسمه كي يتبعنى ، ولكنه سارامامي خوفا من الكلاب التي كانت ما تزال واقفة عن كثب .

وسرت به على طريقى الى خيامنا وقد بدى عليه بعض النشاط بعد ان ابتعدنا عن النبع ، وبدأ ذيله يبتعد عن ساقيه الخلفيتين بالتدريج . وهو يرفع رأسه بين حين وآخر ناظرا الى وجهى وفي عينيه نظرة مليئة بالوفاء والعرفان . فاطمأن قلبي وعرفت ان جراحه غير قاتلة وقد صدق حدسي بعد ذلك اذ ما لبث ان شفى من جراحه بعد ايام واخذ يستعيد قوته حتى عاد الى ما كان عليه فيما عدا بعض الندوب التي تخلفت عن جراحه .

وذات ليلة ، اثناء جلوسنا امام خيمتنا وكانت الشمس على وشك المغيب ، وقد اخذنا نتحدث عن الايام العصيبة التي نجتازها .. وعما ستكون عليه الايام المقبلة ، صاح اخى الاصغر ادريس قائلا :

ـ سمحة : انها سمحة :

والتفتنا جميعا ورأيت سمحة مقبلة وهى تسير ببطء نحو الخيمة . كانت تسير قليلا ثم تمشي كما لو كانت تخشى ألا تجد ترحيبا ، ولكننى عدوت نحوها مناديا على شيبان .. وما زلت اذكر ذلك اللقاء بينهما حتى الآن فقد راحا يتشممان بعضهما وكل منهما يمسح برأسه في رأس الآخر ، وعندما عدت الى الخيمة وجدت ابى ينظر الى الحيوانين بتأثر دون ان يتكلم .

ومع ان سمحة كفت عن العواء ، إلا انها كفت ايضا عن الطعام والشراب واصبحت كلما القت امى اليها برغيف من العيش تكتفى بشمه او باخذ قضمة صغيرة منه ولا تزدردهاالا بصعوبة . وسألت احمد وهو شيخ

عجوز من افراد القبيلة اشتهر بمهارته في علاج الحيوانات ، ولم يكن رأيه مشجعا فقد قال انه ما دامت الكلبة اصبحت لا تبتلع الطعام الطري او الماء الا بصعوبة فالامل اصبح ضعيفا في شفائها . وقد صدقت نبؤته .. اذ عثرنا بعد ثلاثة ايام على سمحة ميتة بجوار صخرة قريبة من خيمتنا . كانت ترقد كما اعتادت تماما ان ترقد طوال السنين الماضية .. ولكنها كانت الرقدة الاخيرة ، وكانت العادة ان تلقى القبيلة الحيوانات النافقة في مكان بعيد في الرمال بمنأى كاف عن ارض القبيلة . ولكننى حفرت لها وبمساعدة حسين راعى ابقارنا ، قبرا في الجانب الخلفى للتل ودفنتها فيه .

ولم يعد شيبان حزينا على اخته كما فعلت هى . وقد عللت ذلك بانه اكثر منها تجلدا لانه ذكر ، هذا من جهة ومن جهة اخرى تلك الآلام الشديدة التي تعرض لها اثناء فقدانه . وما لبث ان نسى شيبان سمحة . وعاودته بهجته واصبح انشط من اى وقت مضى ويؤدي واجبات الحراسة الموكولة اليه كأفضل كلب في القبيلة . وذات ليلة فقدنا حمارنا الابيض وخشينا ان يكون احد الوحوش المنتشرة في تلك الجهة بالجبل قد افترسه ، فرحنا نبحث عنه ، واخيرا ، وعلى بعد ميلين من مضاربنا عثر ابى على الحمار .. وكانت دهشته عظيمة عندما وجد شيبان واقفا بجواره .. يحرسه :

ومضت السنون .. واصبحت مدرسا ، وحملت على عاتقى مسئولياتي نحو ابوى اللذين تقدم بهما العمر ، ونحو اخوتى الاصغر منى . كنت اعيش في القرية التي بها مدرستى التي اعمل بها ولا اذهب الى اسرتي الا مرة في اول كل شهر لاعطى ابى العشرين جنيها التي اتقاضاها . وقد كنت مسرورا من عملى لانه يتيح لى ان افعل شيئا من اجل ابوى اللذين ضحيا بكل شيء في سبيلى انا واخوتى .

وعندما عدت الى البيت في احدى تلك المرات ، وكنت احمل بعض الهدايا لاشقائي الصغار ، قابلني زكريا اصغرهم وقد راح يقبل ملابسى لانه لا يستطيع الوصول الى وجهى ، وما كدت اجلس حتى سألني قائلا :

– لم لا تسأل عن شيبان .. : الم تعلم ما حدث ؟

وحاول ان يذكر لى ما حدث ، ولكنه وقد شعر بانه لن يستطيع ان يرسم صورة كاملة لما وقع ترك الامر لوالدتى التي قالت لى :

ـ منذ ثلاثة ايام ، وعند الظهر تقريبا كان ابوك في الخارج وكنت بمفردي في المنزل . وكان شيبان يرقد في الشمس كعادته في الفناء الخارجي من داخل البوابة . وعندما حضر زكريا من مدرسته دخل المنزل ونسى ان يغلق البوابة من خلفه . وراح يسألني عما اعددته له من غداء ، عندما سمعنا عيارا ناريا قريبا جدا ، كما لو كان داخل المنزل ، كما سمعنا صرخة كلب ، واندفع زكريا يجرى الى الخارج وما لبث ان راح يصيح .. شيبان : شيبان : وتبعت الصبى ، وهناك بالقرب من الباب كان شيبان مضرجا في دمائه .. وهو يزحف نحونا .. وما كاد يصل الى قدمى الصبى حتى سقط ميتا ، والقى زكريا بنفسه فوقه .. وراح ينتحب بشدة محاولا ان يجعله يتحرك ، ولكنه كان قد قضى نحبه . وذهبت الى البوابة ونظرت الى الطريق ، فرأيت شرطيا يحمل بندقية ، وادركت انه هو الذي قتله لانتشار داء الكلب في البلدة . وعندما عدت لم اجد زكريا ورحت ابحث عنه وما لبثت ان وجدته خارجا من غرفة ابيه وهو يحمل مسدسه . وكانت ملابسه ملوثة بدماء الكلب . واخذ يصيح قائلا « سأقتل هذا الرجل .. سأقتل هذا الوحش الذي قتل شيبان : » واندفع يجرى نحو البوابة ، ولكننى امسكت به ومنعتــه من الخــروج حتى حضــر ابوك واخوتك من الخارج .

ناظر المدرسة

كان ذلك في ليلة الجمعة من نهاية شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤ عندما كنت في طريقي من نابلس الى طولكرم . ومرت بنا سيارة الأوتوبيس خلال قرى عديدة صغيرة وقبل ان تصل السيارة الى طولكرم بحوالى ميلين . شاهدت من النافذه معسكر اللاجئين وكانت الشمس قد بدأت في المغيب اثناء مرورنا بالعدد الذي لا يحصى من تلك الخيام الصغيرة البيضاء التي ضمها المعسكر ، والتي كانت على هيئة صفوف متراصة ، وكل خيمة شديدة القرب من الأخرى . ولست ادرى ما الذي جعلني في تلك اللحظة افكر في يافا تلك المدينة الرائعة بشوارعها الجميلة . وبساتينها الخضراء ، ورمالها البيضاء ، حيث كان يعيش اولئك اللاجئون .

وكانت المدرسة في الجانب الغربي من طولكرم . بالقرب من الحدود ، وعندما دخلت من البوابة الخارجية ، وجدت نفسي أسير بين صفين من الاشجار الباسقة مجتازا مشاية عريضة تنتهى عند آخرها بسياج مرتفع جيد التقليم ، وعندما اصبحت في بداية هذا السياج .. رأيت المدرسة . وكنت قد تخيلتها قبل مجيئي مبنى شاهقا مرتفعا ، ولكن ما شاهدته كان يختلف كل الاختلاف عما تخيلته ، فقد وجدتنى انظر الى مبنى يشبه تماما طائرا ضخما ذا جناحين في وسطهما رقبة ورأس .

كان المبنى يتكون من طابقين فقط ، وهو مبنى بالحجارة وله سقف من القرميد الاحمر ، وتحيط به اشجار ضخمة شاهقة تتجاوزه في الارتفاع ، وتحف بمدخله من الجانبين نباتات الياسمين واشجار البوجنفيليا المتسلقة ذات الزهور الحمراء وقد تناثرت هنا وهناك تحت عدد قليل من الاشجار القائمة في الفناء الامامى كتل من الخشب الثابت في الارض يجلس التلاميذ عليها كمقاعد في أوقات فراغهم وعند الباب رأيت حارسا سمح لى بالدخول .

ولم تكن الحياة المدرسية بالشيء الغريب على فقد سبق أن أمضيت أكثر من ثلاث سنوات في مدرسة داخلية ببلدة بير السبع ، ولم أجد في ذلك مشقة ما

وكنت أعرف أننى يجب أن أمضى في هذه المدرسة التي أدخلها لأول مرة ثلاث سنوات ، لكى أحصل على دبلوم في العلوم الزراعية ، وهكذا كان دخولى اليها بداية طريق عقدت العزم أثناء اجتيازه على أن أبذل في دراستى جهدا شاقا كى احرز نتائج طيبة . اذ أن ثمة قانون يعفى المتقدمين في دراستهم من دفع المصروفات التي كانت تبلغ خمسة وثلاثين جنيها في السنة ، لهذا فاننى بدأت في الاجتهاد منذ اللحظة الاولى .

كانت قوانين المدرسة ولائحتها غاية في الصرامة ، فقد كان محظورا علينا النزول الى المدينة الا يوما واحدا في الاسبوع ، وهو يوم الجمعة . كما كانت الدراسة تتم يوما في حجرات الدراسة ويوما في الحقول . ومع ذلك فقد أعجبنى هذا النظام جدا ، وكنت أترقب اليوم الذي نتلقى فيه الدراسة في الحقل بصبر نافذ ، وكانوا يقسمون التلاميذ الى مجموعات تعمل كل مجموعة منها في جزء معين من المزرعة الشاسعة ، فالبعض منا يعمل في قسم الحيوانات ، والبعض الآخر في قسم المشاتل ، والبعض في قسم الدواجن وهكذا . وما زلت أذكر كيف أن جميل ـ رئيس العمال - قد كلفنا في أول يوم عملنا فيه بالحقل ، بعمل غاية في الارهاق ، إذ جعلنا نقسم الأرض الى مربعات ثم نمهدها استعدادا لزراعة النجيل كبساط أخضر . وقد علمت فيما بعد أن بالمدرسة ماكينة خاصة بانجاز هذا العمل . ولكنهم كانوا يتعمدون البدء فيه سنويا في أول أيام الدراسة على أن يقوم التلاميذ الجدد بممارسته بفؤوسهم حتى يعرفوا مدى جدية العمل الذي سيمارسونه طوال بقائهم في المدرسة ومشقته ، وهى طريقة قد ثبت لى أنها فعالة لأننى وجدت أحد التلاميذ غائبا في اول يوم ذهبنا فيه الى الحقل بعد ذلك . وعندما سألت عنه قيل لى انه قد ترك المدرسة وعاد الى إسرته قائلا :

ـ أننى لم أحضر الى هنا من أجل أن أكون فاعلا ؟

وكنت قد سمعت الكثير عن ناظر المدرسة ومدى ما كان التلاميذ يحملونه له من احترام وخوف . وقيل لى (وقد تبين لى فيما بعد صدق ما قيل) أنه إذا ما أصدر أمرا ، فان أحدا في هذا العالم لا يمكن ان يزحزحه عما أمر به . وعلى الرغم من ان المدرسة مدرسة حكومية الا انه كان يديرها بطريقته الخاصة ، ومع ذلك فان المسئولين في وزارة التعليم كانوا يقرونه على ذلك ، ويثقون به كل الثقة وما زلت انا حتى الآن اعتقد انه أصلح رجل يمكنه أن يدير تلك المدرسة .

ولم أر ناظر المدرسة الا في اليوم الثالث من وصولي ، وكان ذلك عندما مر علينا في قاعة الطعام . وشعرت بوجوده عندما خيمت السكينة فجأة على القاعة وحتى الملاعق والشوك لم أعد أسمع لها صوتا . وأدرت رأسي قليلا كي اشاهده فرأيت رجلا اصلع .. متوسط العمر ، في فمه غليون ، تنعكس شخصيته القوية على عينيه النافذتين . وعلى الرغم مما به من عرج خفيف فانه كان خفيف الحركة تلوح عليه مخايل القوة والنشاط . وكان يرتدى نفس الزي الموحد الذي نرتديه وهو القميص والسروال ذوى اللون الكاكى . ولم يتحدث طوال وجوده بالمطعم سوى بعض كلمات مقتضبة مع المدرس المكلف بحفظ النظام . وما لبث أن غادر القاعة . فعاد كل شيء الى ما كان عليه .

وقد أعجبني نظام المدرسة ، واستهوتني الدراسة بها سواء في الفصل أو الحقل ، وكان المدرسون جميعا على قدر واضح من الكفاءة والحيوية . فيما عدا أبو زهير ـ معلم الأدوات الميكانيكية ، فقد اعتدنا ان نتجمع حوله ونحن نصغى الى قصصه وحكاياته العادية التي لا تمت الى موضوع الدرس بصلة . وكان يعتقد انه ملم بكل شيء في الحياة . ولما اكتشف بعض التلاميذ الاشقياء فيه ذلك ، دأبوا على أن يوجهوا اليه من الأسئلة ما يجعله يسترسل في الأجابة عليها مضيعا الوقت في ارضاء نزعته .

وعلى الرغم من ان ناظر المدرسة لم يكن يزور المدرسة كثيرا اثناء القاء المدرسين الا انه كان يعرفهم جيدا ويحيط تماما بشخصية كل منهم ، وقد كانت أوامره تقضى عند تقسيم التلاميذ الى مجموعات ، الا يعطى ابو زهير سوى مجموعة قليلة منهم .

ولقد اعتدت أن أرى ناظر المدرسة في الحقل اكثر مما أراه في حجرات الدراسة . لم أكن أراه داخل المدرسة الا اثناء الدرسين اللذين اخذ على عاتقه ان يقوم بتدريسهما لنا بنفسه اسبوعيا . وقد اثبت فيهما انه على ثقافة واسعة ، وقد اعتدنا ان نستوعب طريقة شرحه للدرس اكثر من اى مدرس آخر في المدرسة . ولم يكن يترك كبيرة أو صغيرة في موضوع الدرس إلا ويفيها حقها من الشرح والتفسير . وكان يثق بهيئة التدريس وهم يثقون به ويحترمونه . ولكنه لم يكن كثير الاختلاط بهم ، فباب حجرته مغلق دائما . ولا يستطيع احد ان يرى شيئا من خلال النوافذ المغطاة من الخارج بنباتات متسلقة . كالياسمين وغيره .

وفي الجناح الجنوبي من المدرسة ،كان الناظر المدرسة يعيش مع إسرته الصغيرة المكونة من والدته وشقيقته اللتين لم يكن أحد يراهما الا نادرا ، فهما تمضيان معظم الوقت داخل المنزل فيما عدا المناسبات القليلة جدا التي كانت فيها تتمشيان في الحديقة المدرسية الرائعة الجمال . وكان من المعروف أن أحدا من التلاميذ لا يدخل منزل الناظر ، ولذلك فقد كان ذلك المنزل يبدو لنا محاطا بالغموض والرهبة ، كما لو كان ديرا أو كنيسة في قمة جبل . ولم يكن يختلف عن الجناح الشمالى الذي كانوا يسمحون لنا بارتياده والذي كان يشغله بعض المدرسين ولكن كان يهيأ لنا مع ذلك انه يحتوى على اشياء اخرى مختلفة .

وذات مرة كلفت بدخول حديقة ناظر المدرسة لأقوم بتقليم بعض نباتاتها فرأيتها تحتوى على انواع مختلفة من الازهار والشجيرات . ورأيت على مبعدة قليلة أم ناظر المدرسة في احدى الشرفات . كانت سيدة عجوزا جدا ، قد نسقت شعرها الأشيب ومشطته بعناية واهتمام ، وأقبلت نحوى وهى تسير بقامة منحنية .

كنت قد سمعت أنها تبدى عطفا دائما نحو التلاميذ كلما حدث وشاهدت أحدا منهم ، ولكننى لم أستطع أن أصدق ذلك كلما فكرت في ابنها ، وكيف أنه شخص يرهبه ويخشاه الجميع حتى رؤساؤه في وزارة التعليم .. وقالت لى السيدة العجوز :

ـ صباح الخير يا بنى .
ـ صباح الخير .
ـ إلى متى سوف تمكث في الحديقة ؟
ـ حتى انتهى من عملى ، وقد يكون ذلك قبيل جرس الغذاء .
ـ سارأك قبل خروجك .
كانت تحدثني بصوت خافت ، وفي رقة وعطف زائدين .

كنت قد سمعت ممن حولى في المدرسة أن الناظر ليس متزوجا . فرحت أتساءل في عجب بينى وبين نفسى عما يدعوه الى العيش مع أمه وأخته بدلا من أن يتزوج وينجب أطفالا صغارا يلعبون ويمرحون في هذه الحديقة الجميلة . ورحت ،لست ادرى لماذا ، اقارن بينه وبين معلم الميكانيكا أبى زهير ، الذي له حفنة من الأطفال ، والذي يأخذ الحياة مأخذ الهزل ، اذ لم أره مرة واحدة

جادا . وظلت هذه الأفكار تراودني وأنا أعمل بمقصي في تقليم الاشجار حتى انتبهت لنفس على صوت السيدة العجوز تقول لى وقد حملت بين يديها المرتعشتين احدى الصواني :

ـ إليك بعض الشاى والكعك .. اجلس واسترح وتناول قدحا من الشاى .

وكنت على وشك أن أرفض خوفا من مجيء ناظر المدرسة ـ ولكن السيدة وضعت الصينية على حافة الجدار وجلست على مقعد بالقرب منى ، فلم أجد في الأمر خيارا .. وأخذت تسألني وأنا أحتسى الشاى عن أمى وأبى وأخوتى ، وجعلني ذلك أشعر باطمئنان اليها وثقة بها ووجدت نفسى أروى لها كل ما يتعلق بحياتى وحياة اسرتي . وحتى التفاصيل التي لم أعتد أن أقصها على أحد من قبل ، رأيتنى أرويها جميعا على تلك السيدة الكريمة متأثرا بعطفها وحنانها اللذين ابدتهما نحوى . وبعد ان انتهيت من تناول الشاى شكرتها واستاذنت . ومضيت وهى ما زالت جالسة مكانها تشيعني بنظراتها .

وبعد أن مرت سنتان واصبحت ملما بالمدرسة وبكل ما يتعلق بمن فيها أدركت السبب في أن خريجيها يفخرون دائما أنهم قد تعلموا بها فقد كانت بفضل علي رؤوف ـ وهو اسم الناظر ـ تبث الرجولة في نفوس تلاميذها ، وتصقل من أخلاقهم علاوة على تعليمهم أحدث النظريات العلمية في الزراعة .

وذهبنا ذات مرة في رحلة الى الضفة الشرقية حيث تقع بلدة ناظر المدرسة ، واسمها العدسية . ولم نكن قبل هذه الرحلة نعرف شيئا عن موطن الناظر أو أسرته فيما عدا والدته وأخته المقيمتين معه في المدرسة .

كانت عائلته تقيم في قرية العدسية ، وهى قرية غاية في الجمال ، تحيط بها اشجار الموز والموالح . وكان الوقت ربيعا أثناء زيارتنا لتلك القرية ، فرأينا أزهار الورد والياسمين وغيرها تتوهج في حدائق المباني القليلة المتناثرة هنا وهناك بين الاشجار الخضراء الضخمة . واقتادونا الى قصر الضيافة . فأدهشنى أن يكون في هذه القرية الصغيرة قصر للضيافة أو أى قصر على الاطلاق . وهناك في قصر الضيافة . وجدنا كل شيء معدا لاستقبالنا . وقد كان العشاء فاخرا حقا ، كما ان وسائل التسلية كانت متعددة ، مما جعلنا نمضي ليلة مليئة بالسرور . ولما كانت الليلة قمرية ، فاننا ، تحت تاثير ما غمرنا من سعادة رحنا نغنى ونرقص في ضوء القمر . وشاركنا في ذلك بعض المدرسين

والضيوف من أهالى القرية وكان أكثر الجميع نشاطا في الرقص والغناء .. أبو زهير ، مدرس الميكانيكا .

وبعد أيام قليلة ، عقب عودتنا من تلك الرحلة لم نعد نرى ناظر المدرسة ، وبعد ثلاثة أيام من عدم مشاهدتنا له ، قال لنا بعض المدرسين انه مصاب بحمى خطيرة . واضاف احدهم :

ـ أن الأطباء في حيرة من أمر هذه الحمى . لقد مضت خمس ساعات ، وهو غائب عن الوعى .

وقال عرفه ، وهو واحد من زملائنا التلاميذ المعروفين بخفة الظل :

ـ لا أستطيع أن أصدق ذلك .. على رؤوف مريض .. ؟ هذا محال ، فهو اقوى من كل مرض .

وقررنا زيارته ، ولما كان من غير العملى أن يذهب التلاميذ جميعهم ، لهذا استقر الرأى ان يذهب ستة منا نيابة عن الجميع ، اى بمعدل تلميذين عن كل فصل وكنت واحدا من اثنين نيابة عن فصلنا وحملنا بعضا من الزهور وذهبنا نحن الستة لنعود ناظرنا المريض .

كان الوقت مساء عندما دققنا جرس الباب ، وفتحت لنا شقيقة الناظر ، وقدمنا نفسنا قائلين اننا جئنا لنزور ناظر مدرستنا فقادتنا الى حجرة الجلوس المفروشة بقطعة من السجاد الثمين وفي جدرانها صور مختلفة ولم يكن بها احد سوى قطة بيضاء نائمة ، وما لبثنا ان وجدنا انفسنا في حجرة نومه .

كان يرقد في فراشه الناصع البياض فوق ظهره وقد اغمض عينيه ، ورأيت وجهه الذي عهدته ممتلئا بالصحة والحيوية ممتقعا هزيلا . وفوق مقعد عند رأسه كانت تجلس أمه . ولم يشعر بقدومنا ونحن واقفين حول سريره وقد خيم علينا الصمت والحزن . وقدم زميلنا الذي يحمل الزهور الباقة الى امه التي تناولتها وقربتها من وجهه عساه يستطيع ان يشمها ثم قالت :

ـ هؤلاء أولادك يا بنى قد حضروا ليطمئنوا عليك .. تحدث اليهم ، وقل لهم انك سوف تعود اليهم .

وبدا على الرجل كأنه يسمع ما تقوله امه ، ولكنه كان عاجزا عن الكلام . واخيرا فتح عينيه . وكانتا خاليتين من ذلك البريق الذي تتميزان به ، وظل فترة لا يقول كلمة ثم استجمع قوته وهمس قائلا :

اشكركم يا ابنائي .

ثم أطبق فاه وعاد الى صمته . وشاهدت قطرات من الدمع تسيل فوق خده وتستقر بالقرب من أنفه .

وقالت الأم في شيء من التفاؤل :

ـ انها المرة الاولى التي يتحدث فيها منذ يومين .

وعندما غادرنا المنزل وجدنا محموعة كبيرة من التلاميذ في انتظارنا ، فروينا لهم تفاصيل الزيارة .

ومر إسبوعان .. وتحققت نبوءة عرفه .

لقد شفى ناظر المدرسة .. وتبين انه كما قال زميلنا الخفيف الظل .. أقوى من كل مرض .

ورحنا نراه مرة اخرى في أرجاء المدرسة .. في الحقل أحيانا .. والفصول أحيانا أخرى .. ولكنه أصبح الآن عندما يقابلنا يتوقف ويحادثنا .. وأحيانا يمازحنا .

وفي يوليو من ذلك العام ، تخرجت من المدرسة حاصلا على درجات ممتازة والتحقت بعمل ملائم استطعت عن طريقه أن أحمل على عاتقى مسئولية أسرتي . ولم يكن خريجو المدرسة يتقدمون الى المصالح بطلبات كما هو الحال بخريجي المدارس الأخرى ، بل كان ناظر المدرسة هو الذي يتولى بنفسه هذا الأمر .

وأمضيت بعد تخرجي اجازة سعيدة بين أسرتي بعد كل ذلك الوقت الطويل من الدراسة والكفاح .

وذات يوم قبل ان افكر في الوظيفة ، وكان الوقت صيفا كنت اسير في احد شوارع القدس ، عندمارأيت سيارة تتوقف وشاهدت يدا تلوح لى منها . وعندما اتجهت اليها وجدته على رؤوف ناظر مدرستنا . وخرج الرجل من السيارة وصافحني بشدة . وسألني قائلا :

ـ هل تقدمت باية طلبات للأتحاق بوظيفة ما ؟

ـ كلا .. لم أفعل يا سيدى .

ـ لقد رشحتك لوظيفة في مركز الأبحاث العلمية . فاذهب الى هناك واطلع على شروطها .

ـ اشكرك يا سيدي ، سأذهب غدا . وسأحيط حضرتكم علما بما يتم بعد غد .

ـ ولكنني لن أكون في المدرسة بعد غد

ودفعني الفضول الى ان اجرؤ وأساله قائلا :

ـ اين اذن ستكون ؟

وابتسم ناظر المدرسة قائلا :

ـ سأكون في شهر العسل :

همسة الشقيق الأصغر في أذن أخيه

في منزل من ثلاث حجرات بمدينة الرياض ، أصبحت الآن أعيش مع خمسة من الأصدقاء ، وبعد أن صارت أجور المنازل باهظة جدا ، اذا ما قورنت بمرتباتنا ، لهذا وجدنا أنه من الأفضل أن نقيم معا ، لنقتصد من النقود ما نستطيع أن ننفقه على عائلاتنا التي خلفناها وراءنا ، وقد أقنعت أصدقائي باعطائي الحجرة ذات الشرفة التي تطل على الشارع الرئيسي في المدينة .

كانت تلك الحجرة خاوية على عروشها عندما أخذتها . وأصبح على أن أجهزها بالاثاث . وهكذا أشتريت من سوق السلع المستعملة سريرا . ومائدة قديمة ، ومقعدين وخزانة للملابس . وكان ذلك هو كل أثاث حجرتى ، وعندما رأى أحد أصدقائي الأوفياء كتبى مبعثرة دون نظام فوق المائدة ، صنع لى من تلقاء نفسه ثلاثة ارفف في الحائط ، ولما كنت أعمل في الزراعة ، فقد أستطعت بسهولة أن أحضر خمسة أصص ، زرعت في احداها قرنفلا ، وفي الثاني نبات الاسبرجس ، اما الثلاثة الباقية فقد زرعتها زهور الصباح ، ووضعت الأصص فوق حافة شرفتى العريضة . ولم تكن الحجرتان الآخريان تختلفان كثيرا عن حجرتى ، أما صالة المنزل فقد كانت تحتوى على خمسة مقاعد مريحة من النوع ذى الذراعين « الفوتيل » وكنا قد اشتريناها ايضا من سوق الأشياء المستعملة .

وفوق تلك المقاعد ، كنا نجلس في اوقات فراغنا ، نلعب الورق احيانا . والنرد أحيانا أخرى أو نستمع الى قصص زميلنا يوسف التي لا تنفذ . وكنا ايضا ، ولكن في مناسبات قليلة ننصت الى آراء أبى حامد ونظرياته الغريبة عن الحياة .

كان ابو حامد يعيش في قرية تبعد حوالى تسعين ميلا عن الرياض ، ولكنه اعتاد ان يحضر بين وقت وآخر لزيارة أخيه . وهو احد المتعلمين معنا .

وعلى الرغم من غرابة آراء أبى حامد وافكاره ، الا اننا كنا نشعر مع ذلك انه على صواب فيها .

وكثيرا ما كنا نستدرجه الى الحديث عن الزواج ، وهو موضوع اعتاد ان يسهب فيه ، ولقد أحببنا ذلك الرجل ، ولكننا مع ذلك لم نكن نحب ان يمكث معنا طويلا . لأن كثيرا من الناس كانوا اثناء وجوده يتوافدون على المنزل ليستمعوا الى احاديثه التي اشتهر بها . فقد كانت آراؤه تستهوى العديد من الشبان بل انهم كانوا يعتبرونه دائرة معارف متحركة ، ومن بين هؤلاء شخص لن اذكر اسمه الحقيقى ، وسأطلق عليه اسم حاتم .

وكان حاتم هذا تلميذا معى في مدرسة بير السبع ، ولم أره منذ ذلك الوقت حتى قابلته في الرياض . لهذا اصبح يؤدي لنا بين كل زمن طويل وآخر زيارة في المنزل . وعلى الرغم من انه قد عاش اوقاتا طويلة في المدن ، وكان متعلما تعليما عاليا ، الا انه كان متمسكا عندما يتكلم بلهجته البدوية ، فكان ذلك يكسب حديثه تأثيرا معينا . وكان متزوجا وله طفل .

وذات ليــلة كنت فيها بمفردي في حجرتى ، مستغرقا في قراءة رواية « الجريمة والعقاب » . ولم يكن بالمنزل أحد غيرى سوى أبو حامد ، الذي كان جالسا في صالة المنزل وهو يقرأ ايضا عندما دق جرس الباب ، وكان القادم هو حاتم ، وكنت أفضل ان إستمر في قراءة الرواية العالمية المشوقة التي بيدي ولكن أبا حامد لم يشأ أن يتركنى ، وأخذ ينادينى قائلا :

ـ إن حاتم هنا .. إخرج ودعنا نتحدث سويا .

ولم أجد بعد ذلك مناصا من ترك الكتاب والخروج اليهما وكان كل منهما معجبا بالآخر ، ينصتان الى بعضهما وهما يتحدثان بانتباه شديد . وكان إعجاب أبى حامد مبنيا على أن حاتما ذا شخصية كريمة وقلب طيب كما كان يردد دائما ، أما فيما يتعلق بحاتم فإنه كان معجبا بأبى حامد على اساس انه رجل ذو ذكاء خارق وأفكار عميقة . وتطرق الحديث بينهما الى مسألة الحب والزواج ، واخذ ابو حامد يضرب الأمثلة ويفند الحجج في هذا المجال ، ولم أكن أكاد اشترك معهما في المناقشة ، إذ لم أجد في أول الأمر ما يشدني اليهما . واطرق حاتم قليلا وهو يفكر ثم قال :

ـ ما من أحد بطبيعة الحال يستطيع أن ينكر أهمية الحب ، وأنه يجب أن يسبق الزواج ، ولكن ليس من الضروري أن تنتهى كل قصة حب بالزواج .

وأصر ابو حامد على رأيه قائلا :
ــ عليك بالحب اولا .. ثم الامتلاك ..

يحدث احيانا ان يشعر المرء برغبة قوية في أن يفضي بشيء مكبوت بين جوانحه ويسبب له الما .. ولا يلبث بعد ان يفعل ، حتى يحس بالإرتياح ، وكأن ذلك الشيء قد انزاح عن صدره ، وقد كان هذا هو شأن حاتم عندما بدأ يقص الرواية التالية عن نفسه ، وكان يبدو وهو يقصها ، كشخص يعانى من امر ما ، ثم وجد الفرصة اخيرا ليتخلص مما يضطرم في صدره .

قال حاتم (كما اسميناه) :

ــ كان اسمها ريا .. وفي السنة التي اغتصبت فيها أرضنا ونزحنا عنها .. كانت في التاسعة عشرة من عمرها ، أى تكبرنى بعام واحد . ولا شك انكما تذكران جيدا تلك الأيام الدموية الحالكة التي مرت بنا . وقد جعلنى ما حدث في تلك الأيام أنسى كل شيء عن ريا . حتى استقر بنا المقام في احد معسكرات اللاجئين بغزة . وقد بدأ الناس بعد ان هدأت الأمور قليلا يبحثون عن اهلهم واقاربهم ولم يكن قد حضر معنا من اهلنا الا نفر قليل ، لأن معظمهم كان قد نزح شرقا واستقروا في معسكر آخر للاجئين قرب جديشر .

وتوقف حاتم قليلا ، واعتدل في مقعده ذى الذراعين ثم استطرد قائلا :

ــ وحل علينا أول عيد ونحن خارج أرضنا ، وطبقا لتقاليدنا أراد أبى أن يذهب الى عمتى الأثنتين ليهنئهما بالعيد ويقدم لهما ولأطفالهما بعض الهدايا ولما كان وحيدا بخيمته ولا يستطيع ان يترك افراد العائلة بمفردهم ، فقد كلفني ــ وقد صرت رجلا ــ أن أقوم بهذه المهمة بدلا عنه ، ففرحت بل شعرت بالفخر . وحملت معى الهدايا البسيطة وتوجهت الى معسكر اللاجئين الذي تقيمان به ، إحداهما مع زوجها ، والأخرى مع اولادها فقط لأن زوجها كان قد قتل اثناء العدوان . وهناك في المعسكر وجدت الناس يتصرفون كأن اليوم لم يكن يوم عيد . فلا غناء ، ولا رقص ولاسباق. وقد فرحت عمتاي بى وبزيارتي اكثر من فرحهما بالهدايا ، وجلس اطفالهما حولى وبدأوا يوجهون إلى الاسئلة . وبينما نحن نشرب الشاى ، ولشدة دهشتى ، دخل علينا والد ريا، وكانت رؤيتي له مفاجأة ذات وقع كبير في نفسى إذ لم أكن انتظر رؤيته بالمرة ظنا منى انه ضمن من نزحوا من رجالنا صوب الشرق . وما كدت أراه حتى تذكرت ريا .. ريا تلك الفتاة التي أحببتها ذات مرة وقلت له :

أنني سعيد لرؤيتك .. اين تقيم الآن ؟

ــ في المعسكر .

وفرحت عندما وجدت ريا تعيش بالقرب منا ، ولكننى فكرت في وسيلة تجعلها اكثر قربا ، وذلك بأن أقنع الرجل بالانتقال من هذا المعسكر الى المعسكر الذي نقيم فيه فقلت له :

ــ أن الناس هناك في معسكرنا يذكرونك دائما ، خصوصا أبى ، وهو يتمنى لو كنت معنا في المعسكر الذي نعيش به .

وتبين لى ان الرجل لم يكن راضيا عن وضعه الحالى لأنه قبل هذه العرض ، ولكنه اضاف :

ــ سوف استشير زوجتى وابنتى .

وكنت متأكدا من رأى ابنته ، أما زوجته فلم أكن متأكدا من رأيها . وأصر الرجل على ضرورة مرافقتى له كى أتناول فنجانا من القهوة في خيمته ، وقبلت الدعوة ورافقته في الحال الى خيمته .

وقابلتنا ريا وأمها خارج الخيمة وقد بدت ريا في عينى أكثر جمالا من آخر مرة رأيتها فيها . وتصاعد الدم الى وجنتيها وهى تصافحني ولعل أمها قد لاحظت ذلك اذ شاهدتها تبتسم .

وقبل أن ننتهى من احتساء القهوة ، كان قرار انتقالهم إلى معسكرنا قد اتخذ كما تحدد تاريخ حضورهم .

وعندما عدت الى معسكرنا ذكرت لوالدى ضمن ما ذكرت مقابلتي لوالد ريا ، وأضفت دون اهتمام انه سينتقل مع اسرته للأقامة في معسكرنا ، ولم يلحظ أحد شيئا وبدا الأمر طبيعيا . وعندما وصلت اسرة ريا ، شعرت بالسعادة تغمرني لانها اصبحت قريبة منى . وعرفت منها أن أمها تعلم أننى أحبها ، وهكذا اصبحت خيمتهم آمن مكان يمكننا ان نتقابل فيه .

وكنت في هذا الوقت واحدا من أكثر التلاميذ تقدما في دروسهم ، وكثيرا ما تلقى أبى خطابات من ناظر المدرسة يهنئه فيها ، ويحيطه علما بتفوقي . ولكننى في الفترة الدراسية التي حضرت ريا فيها الى المعسكر بدأت أتعثر في دروسي . وعندما انتهت الفترة ، وظهرت النتيجة رسبت في مادتين هما التاريخ والجغرافيا . واستولت الدهشة على ناظر المدرسة . واستدعاني في حجرته ، وسألني قائلا :

ـ لماذا حدث ذاك منك في هذه الفترة الدراسية ؟ الديك أى عذر تبديه من اجل هذه النتيجة ؟

وحاولت أن أجد جوابا ولكننى عجزت .. وكان الناظر يتوقع منى بطبيعة الحال ان اعتذر عن نتيجتى بعذر ما وان اعد ألا يتكرر ذلك منى ، ولكننى وقد ارتج علي وقفت صامتا لا أحير جوابا ، فثار غضبه وصاح بى :

ـ أنت ولد قذر ، فاخرج من المدرسة ، ولا تعد الا ومعك أبوك

ولم يكن امامى سوى الخروج من امامه سريعا متحاشيا نتيجة غضبه ، التي قد تكون صفعة على الوجه ، او ضربة من عصاه التي كانت موضوعة امامه فوق مكتبه ، وفكرت وانا في طريق عودتى الى خيمتنا في المعسكر ، في حيلة اتجنب بها غضب ابى فقد كان يتوقع منى كالمعتاد نتيجة طيبة وخطاب تهنئة ، وها أنذا اعود اليه وليس معى لا هذا ولا ذاك .

وكان يجلس معه عندما دخلت عليه ثلاثة رجال وعندما سألني عن سبب عودتي مبكرا من المدرسة ترددت أولا ثم تذكرت أنه ليس في وسعي العودة الى المدرسة الا معه فقلت :

ـ لقد طردني الناظر من المدرسة لأن ملابسى ليست من الجودة في شيء ، بعكس التلاميذ الآخرين . وقد أمرني ألا اعود الا معكم . لكى تبتاع لى ملابس جديدة .

والتفت أبى الى الرجال الثلاثة قائلا :

ـ اذا كانت ملابسه تختلف عن ملابس التلاميذ الأخرين فقولوا لى ذلك بصراحة . وأجابة الرجل الجالس بجواره :

ـ كلا .. بل أن ملابسه أفضل من ملابس أبنى .

ـ اذن ينبغى أن أذهب لأرى ما يعنيه ناظر المدرسة بهذا الكلام .

ورافقت أبى الى المدرسة . وعندما دخل حجرة الناظر وقفت انا خارجها في انتظاره وطرق ابى الباب ودخل . ولما كان يجهل السبب الحقيقى الذي طردني الناظر من اجله فقد بدأ حديثه معه بغضب ، وبصوت مرتفع ، وحدث أن شعر بأنه قد أهين وأخيرا سمعت أبي يقول :

ـ لقد جئتك لأقول لك شيئا واحدا .. وهو أن حاتما لن يدخل مدرستك مرة اخرى .

ــ انه لم يعد يستحق البقاء في مدرستى .
وقال لى أبى وهو يصفع الباب من خلفه :
ــ اتبعنى يا حاتم .

وتبعته وأنا أفكر فيما حدث . لقد كانت خطتى عندما كذبت على أبى ترمى الى ارجاء معرفته بنتيجتى ، وعدم مواجهته بها .. حتى يعلمها من ناظر المدرسة ولكن الأمور سارت على غير ما خططت ، وها انذا قد أصبحت بلا مدرسة ، وتساءلت بيني وبين نفسى عما سوف يفعله ابى الذي كان مستغرقا في التفكير وأنا أسير معه وما لبث أن قال :

ــ غدا سأصحبك الى كلية غزة ، فهذا هو موضعك ، انها مدرسة افضل ومدرسوها أكفاء ، وستحضر الينا في كل يوم من ايام الجمعة .

وكان ذلك أخر ما أتوقعه .. فأن معناه ألا أرى ريا الا في ايام الجمع ورحت أفكر في خطة أخرى .. هل أحيط أبى علما بحقيقة السبب الذي طردني الناظر من أجله ، وأمرنى باحضاره لمقابلته ، وبذلك استمر في مدرستى الأولى وأرى ريا يوميا ؟ ولكننى أعرف أبى جيدا ، فحتى لو ذكرت له الحقيقة ، فأنه لن يعود الى ناظر المدرسة بعد الذي حدث بينهما . ولسوف يصب جام غضبه فوق راسي . واخيرا قررت انه من الأفضل أن أدخل كلية غزة .. ودخلتها .

وكان أبى يتوقع أن اضاعف من اجتهادي وتفوقي في مدرستى الجديدة ، ويبنى على ذلك امالا كبيرة فهو متقدم في السن ، وأنا ابنه الأكبر ، ويريدني ان أتمم تعليمى حتى أحصل على عمل أستطيع من ورائه أن أتكفل بمسؤولياتي في مساعدته على رعاية الأسرة ، ومن اجل ذلك اقبل على ادخالى تلك الكلية على الرغم مما سوف يكبده ذلك من نفقات ، نظرا لارتفاع مصروفاتها ، وكنت أعرف أنه لا يملك نقودا كافية . وأن ما لديه منها لن يلبث أن ينتهى . فعلى اذن أن أبذل كل ما في وسعى لاستذكار دروسي في كلية غزة التي كان من دأبها أن ترسل الى اولياء الأمور شهريا تقريرا عن حالة التلاميذ ومدى تقدمهم . وفي الشهر الأول ، تسلم أبى تقريرا مرضيا عن حالتي الا أن ذلك لم يدم طويلا . فقد رحت بعد ذلك اتلمس الأعذار للتغيب عن الكلية والذهاب الى المعسكر من أجل أن أرى ريا . واخذت أكذب على والدى مدعيا اننا قد منحنا اجازة في كل مرة اعود فيها اليها . ويبدو ان ابى بدأ يشتبه في

تصرفاتي ، اذ شرع في ملاحظة تحركاتي والاستفسار عما أفعله . وذات مرة سأل عنى وأنا في احدى اجازاتى المزعومة ، فكان الرد جاهزا ، وقيل له أننى في خيمة أبى ريا . وكان قد تسلم من الكلية خطابا تنبئه فيه بكثرة غيابي ، فاستدعاني ، وشعرت بأن ثمة شيئا في الجو وما كدت ادخل عليه حتى ألقى بخطاب الكلية في وجهى لاقرأه ولم يعد في وسعى الأستمرار في الكذب واعترفت باننى كنت اكذب عليه . وأصبحت في موقف مخز ، وقال أبى وهو في أشد حالات الغضب :

ـ لقد قابلت الناظر السابق ، وذكر لى السبب الحقيقي في استدعائه لى .. ولم يكن الامر يتعلق بملابسك ، بل برسوبك في مادتين ، وها أنت ذا تعود الى خداعى مرة اخرى بهذه الاكاذيب . ألا تعلم أننى أقترض من الناس من أجل تعليمك .. ؟ فقد ظننتك رجلا ولم يدر بخلدى أنك تافه .

ولم أستطع البقاء أمامه حتى ينهى حديثه ، ووليت خارجا ، وعدت الى الكلية .

ومضى شهر دون أن أعود الى أسرتي ، وقررت ألا أعود الا بعد انتهاء الفترة الدراسية .

كان قد حز في نفسى ما قاله ابى من اراقة ماء وجهه واقتراضه من الناس من اجل تعليمى ، وتأثرت لذلك أشد التأثر . وبدأت اتفانى في دراستى ، فأحرزت تقدما ملحوظا جعلني استمر في محاولتي . وفي نهاية الفترة نجحت بتقديرات عالية . وكنت أول فرقتى . وبدأت تراودني الأمال والأحلام حول مستقبلى ، فلم يعد يتبقى أمامى سوى سنة واحدة ثم اتخرج بعدها . وبعد ذلك التحق بوظيفة مناسبة واساعد ابى واتزوج من ريا لنعيش معا في رغد وسعادة .

وعدت بعد طول الغياب الى اسرتي وأنا لا أفكر اثناء الطريق الا في أبى وفي ريا التي لم يكن طيفها يغادر مخيلتي .

واستولى فرح شديد على ابى عندما اعطيته شهادة نجاحى بتفوق كما غمر السرور كل أفراد الأسرة . وجلس الجميع حولى وهم يسألوننى عن أحوالى وعن حياتى المدرسية . الا أن أحدا منهم لم يسأل عن سبب

غيابي الطويل ، فعلمت أن أبي قد حذرهم قبل قدومي من ذلك . وكنت أشعر وأنا أحدثهم بحنين غامر لرؤية ريا ولكنني كتمت مشاعري . وأخيراً لم أستطع أن أبقى أكثر مما بقيت ، ونهضت وقد نفذ صبر لكي أذهب الى خيمة ريا . وهمس أخي الأصغر في أذني قائلا وأنا أنهض :

ـ لقد سافرت مع أسرتها الى جيرير .. انها بلدة نائية جدا ، كما يقول أبي .



في احدى ليالى الخريف منذ سنوات قليلة كانت سيارة نقل خضراء تغادر الرياض متجهة الى الغرب . وعلى ظهرها حمولة من الكيماويات ، ومن بينها مساحيق في زكائب واوعية وسوائل معبأة في زجاجات كبيرة وصفائح . وفي احد اركان سطح السيارة كانت توجد رشاشة آلية خضراء بينما كانت رائحة قوية نفاذة تفوح من تلك السيارة التي اخذت تقطع الطريق المغطى بالأسفلت وقد بدى عليها انها تختلف عن باقى سيارات النقل الاخرى . اذ كتب على كل من جوانبها انها تابعة لوزارة الزراعة . وكان في السيارة اربعة رجال ، عوض وهو المشرف الزراعى ، وفهد السائق ، ومحسن العامل المدرسي ، وأنا المساعد الفنى لعوض ، وكنا مبعوثين من مجلس ادارة الوزارة بالرياض الى قريتين مجاورتين هما مزاحمة وغطنطة .. وكانت رسالتنا تنحصر في ارشاد المزارعين واطلاعهم على افضل الوسائل في الزراعة ، وكنا في نفس الوقت مكلفين برش النباتات المصابة باى مرض او حشرات ضارة . اما مدة البعثة فكان مقدراها شهرا واحدا .

ووصلنا الى مزاحمة ، وهى القرية التي قررنا ان نقيم فيها طوال هذا الشهر .وشاهدت عندما اقتربنا اشجار النخيل الباسقة على الجانبين كما سمعت اصوات بعض المضخات الميكانيكية . وعندما دخلنا القرية رأيت فهدا يمضي بالسيارة ، كأنه على علم بموقع المنزل الذي سوف نقيم فيه ، وكان يمر في طرقات القرية عدد قليل من الناس كما كانت بعض الحوانيت مفتوحة ، فراح المارة ومن في الحوانيت ينظرون الينا ليعرفوا ماهية هؤلاء القادمين الى قريتهم . واخذ بعض الاطفال وقد عرفوا السيارة بما هو مكتوب على جوانبها او عن طريق الرائحة النفاذة لما تحمله من مواد كيمائية سامة يصيحون :

ــ سيارة الزراعة : رجال الزراعة .. :

فادركت ان اهل القرية معتادون على رؤية مبعوثى الوزارة .

ووقفت السيارة بعد قليل امام احد المنازل . وكان بالقرب من المنزل حانوت صغير وعندما رانا صاحبه خرج الينا واخذ يتفحصنا وقبل ان يتحدث الينا صاح به فهد :

ـ اهلا يا عبده ، الديك المفتاح ؟ اسرع به الينا .

وقبل ان ينزل فهد من السيارة ، عاد الرجل الى الحانوت وعاد وفي يده مفتاح وتناوله فهد وفتح به باب المنزل .

وعندما دخلنا المنزل ادركت ان وفدا زراعيا قبلنا قد اقام به . اذ رأيت بعض صناديق ممزقة من الكرتون ، مكتوب عليها اسم الوزارة . وبدأنا في نقل أشيائنا وامتعتنا . وكان محسن اكثرنا نشاطا في تلك العملية ، بينما كان فهد اقلنا عملا ، ولم يكن يكف عن الحديث والمزاح طوال الوقت وبينما كان محسن يحمل صندوقا كبيرا محاولا ان ينفذ به من الباب ، تعثر وسقط على الارض بالصندوق . واندفعت نحوه وحملت عنه الصندوق ومعى فهد الذي لم يتوقف عن ضحكاته وهو يقول لمحسن :

ـ ألم اقل لك انك اصبحت رجلا عجوزا ؟

وكان محسن مستندا ـ بعد ان نهض من عثرته ـ الى الحائط وقد نظر نحو فهد دون ان يتكلم . وعندما عدنا حاملين بعض الاشياء . وجدنا محسنا ما زال كما هو مستندا الى الحائط فسألناه ان كان قد اصيب او يشعر باى الم فاجاب بانه لم يصب بشيء وبانه على ما يرام .

وفي صباح اليوم التالى مع الفجر تقريبا ، سمعت صوتا خفيفا ، وعندما نهضت جالسا وتلفت حولى ، رايت محسنا مارا بجوار النافذة ، وما لبثت ان سمعته يصلى ، وهو يخطيء قليلا في نطق بعض الكلمات ، ولكنه كان يؤدي الصلاة بتؤدة وخشوع شديد ويبدو ان فهدا استيقظ على صوت محسن فذهب وتوضأ وراح يصلى بدوره ، ولكن بسرعة ودون تركيز كما هو دأبه في كل شيء يفعله ، وقد اعد محسن الافطار مبكرا بمساعدة قليلة من فهد . ثم غادرنا المنزل جميعا في سيارتنا الخضراء فيما عدا محسن ، الذي مكث في المنزل ليعد لنا طعام الغداء .

وقد اكتشفت فيما بعد ان فهدا قائد السيارة ، قد اصبح لكثرة مرافقته لمثل هذه البعثة ، ملما بما لا يقل عن محسن باستعمال الادوات والآلات .

وعلى ذلك فانه كان يقوم بدلا عنا في مثل هذه المناسبات ، بالعمل المطلوب . وقد حدثني بعد ذلك عندما كنت اخرج معه بمفردى عما كان يصادف بعض الاخصائيين الزراعيين من متاعب نتيجة ما يوجهه اليهم احد المزارعين الاذكياء من اسئلة . وتبين من حديثه معى انه يعرف شيئا عن الزراعة ، ولكن ليس كثيرا . وقمنا في ذلك اليوم بزيارة عدد من المزارعين في مزارعهم واكتشفت انهم اكثر اهتماما بالمبيدات الحشرية وغيرها من وسائل وقاية النباتات . من اهتمامهم بارشاداتنا الزراعية فلقد شعروا واقتنعوا بالنتيجة المباشرة التي تترتب على استعمال كيماوياتنا . ولاحظت ان لعوض بينهم اصدقاء يحترمونه ، ويثقون كما بدا لى في معظم نصائحه وارشاداته .

وعدنا في ذلك اليوم بعد ان ادينا قسطا ناجحا من العمل . وكان بعض من زرناهم من المزارعين قد اصروا على اعطائنا بعض الهدايا من الخضروات والفواكه.وعلى الرغم من اعتذارنا فاننا قد وجدنا في مؤخر السيارة عند وصولنا اليها صندوقا صغيرا مليئا بالطماطم ، وآخر مليئا بالخيار . وكان الوقت قد اصبح بعد الظهر ، وقد صاحت عصافير بطوننا . وعندما دخلنا المنزل ، قابلتنا رائحة الطعام الشهى الذي اعده محسن وصاح به فهد :

ــ اهلا ايها الصديق : ماذا عساك قد اعددته لنا ايها الرجل العجوز ؟
واجابه محسن من الداخل :
ــ اتراك جائعا .. يا طفلي الصغير ؟
وتبعت فهدا الى داخل المطبخ ، وهناك رايت محسنا يصنع السلاطا ، فسألته ان كان في احتياج الى مساعدة ما ولكنه اجاب بان كل ما هو مطلوب منا ان نتركه ، ونذهب للاغتسال ، لكى نتخلص مما علق بملابسنا ، ووجوهنا وايدينا من مساحيق كيماوية .

وكانت حقا وجبة شهية ، وقد تساءلت في نفسى ان كان الطعام حقا ممتازا ام ان ذلك قد خيل لى لشدة جوعى ؟ ولكننى تاكدت فيما بعد من ان محسنا طاه بارع بالاضافة الى كونه عاملا ماهرا .

وجلست عصرا مع عوض لكتابة تقريرنا اليومى عما انجزنا من اعمال ، وكنت اسمع خلال ذلك حديث محسن وفهد في المطبخ . وبعد الانتهاء من التقرير ، دخلت المطبخ لالقى نظرة عليهما ، فوجدت فهد يغسل الاطباق ، بينما كان محسن هو الذي يساعده . وقال فهد :

ـ اليوم مررت بمجموعة من عجائز الرجال يجلسون بجوار احد الجدران ، وكان واضحا انهم يتحدثون عن ايامهم الخالية ، وكان منظرهم فريدا في نوعه ومثيرا للاهتمام . ولكن شيئا ما كان ينقصهم .

وسألته دون ان ادرك مرماه :

ـ ماذا كان ينقصهم ؟

ـ كان ينقصهم .. محسن : فمكانه ينبغي ان يكون وسطهم وبجوار الرجل الكهل ذى اللحية الطويلة البيضاء الذي يتوسطهم :

ـ اجاب محسن قائلا :

ـ ان الشيخوخة لا تهم ، فهى شيء ، والاحساس بها شيء آخر ، وانا والحمد لله لا اثر لهذا الاحساس عندى .

ـ لماذا اذن سقطت امس ، بذلك الصندوق الكبير ؟

ولزم محسن الصمت لحظة ، وراح ينقل بصره بينى وبين فهد ، واخيرا قال :

ـ ربما كانت قدمى قد زلت .

ودخل علينا عوض ، واخذ خلال مزاح فهد ، ينتصر لمحسن ضده ، وقدم هذا الشاى لنا بعد قليل ، فاحتسيناه وخرجنا ، لنؤدي بقية العمل . وظللنا نعمل مع المزارعين الى ما بعد المغرب ، وفي المساء ادى الزيارة لنا بعض أهل القرية والمدرسين ، ولم يبق محسن ملازما لنا طوال السهرة ، فقد اعتاد ان يأوى الى فراشه مبكرا .

وفي يوم الخميس الذي تعقبه العطلة يوم الجمعة ، غادرنا القرية في حوالى الثامنة مساء الى مكان يبعد نحو اثنى عشر ميلا غربا ، حيث سمعنا ان به ارانب برية . اما من ناحيتى فقد كنت مغرما بالصيد ، وكذلك محسن . اما عوض فلم يكن ملما به ولذلك لم يرافقنا هو او فهد . وكان الظلام مخيما عندما انطلقنا الى رحلتنا في احدى سيارات القرية ، وكان يجلس في المقعد الامامى اثنان من اهل القرية بينما وقفنا انا ومحسن في الجزء الخلفى من السيارة وبعد ان ازحنا سقفها المتحرك وقد امسكت ببندقيتى في يدى . ورحت اثناء الطريق اتحدث الى محسن مستفسرا منه عن اسرته . فراح يقص لى بالتفصيل كل شيء عنها ، وخصوصا فيما يتعلق بولديه ابراهيم ، وعبد الرازق وكان كلاهما تلميذين في المدرسة . واخذ يشرح لى ما يخططه من اجل مستقبلهما قائلا :

ـ ان ابراهيم يريد ان يكون ضابطا طيارا ، ولديه كثير من نماذج الطائرات النفاثة والصواريخ في المنزل . ولكن امه لا تريده ان يكون طيارا ، بل تريده ان يكون طبيبا ، كما يرغب اخوه ان يكون . ولكننى اشجعه ، واشعر بأنه سوف ينجح في ان ينشأ طيارا .

وسمعنا فجأة ونحن منهمكين في الحديث ، صوت جهاز التنبيه ، وصاح سعد ، وهو احد القرويين :

ـ هى هى ارنبة .. استعدا :

ونظرنا .. فلم استطع في اول الامر ان اتبين شيئا . اذ انها كانت المرة الاولى التي امارس الصيد فيها ليلا . ولكن ما لبثت ان بدت الارنبة المذعورة وهى تجرى .

كانت اذناها الطويلتان مشدودتين الى الخلف في توتر وهى تحاول اثناء عدوها ان تتخلص من دائرة ضوء السيارة ، ولكنها لم تكن تستطيع ذلك انها كانت تخاف في الوقت نفسه من ظلال النباتات التي تتراقص على الجانبين ، فتضطر الى العودة الى دائرة الضوء . ولما كانت تلك اول تجربة لى كما ذكرت في صيد الارانب ليلا ، فقد كنت اخشى الا اصيبها ، ولكن رفقائي راحوا يصيحون بى ان اطلق بندقيتى ، فلم اجد مندوحة من التصويب واطلاق الرصاص نحوها .. وخابت الطلقة ، ولكننى عدت الى التصويب ثانية وضغطت على الزناد ، فاصابتها الطلقة الثانية .

وتوقفت السيارة ، وهبطنا لنلتقط اول صيد لنا .

وقال سعد :

ـ يجب ان تكون اسرع من هذا عند اطلاق البندقية .

فأجابه محسن قائلا :

ـ وانت يجب الا تربكه عندما تظهر ارنبة بصياحك .

ـ مضينا بالسيارة . وكان واضحا ان قائدها كان مدربا على اقتفاء اثر الارانب وقد اتجه بعد ذلك نحو سفح التل حيث تتكاثف الشجيرات . وقال لى محسن :

ـ هذه هى الاماكن التي تكثر بها الارانب ، فهى تختبىء طوال النهار في ظل الاحجار الصغيرة او بين الشجيرات لانها لا تستطيع احتمال اشعة الشمس وعندما تنخفض درجة الحرارة في المساء ، فانها تغادر مخابئها

لتأكل ، ويكون ذلك عادة بعد ساعة او ساعتين من الغروب ، وتظل في العراء الى الصباح الباكر او الى ما بعد ذلك تبعا لحرارة الجو .

ورأيت ارنبة فصحت قائلا :

ها هى واحدة :

وسألني السائق صائحا :

ـ اين ؟

واجبته قائلا :

ـ الى اليمين .. الى اليمين :

وظل لحظة لا يميزها ، ولكنه ما لبث ان رآها اذ اتجهت السيارة مسرعة في اتجاهها . وعندما اصبحت على بعد مناسب منها ، اطلقت بندقيتى عليها ، فسقطت صريعة في الحال ، ولكن عندما هبط محسن ليأتى بها ، وشعرت باقدامه دبت فيها الحياة ، وبدأت تجرى من جديد ، ولكن في يأس ، وصحت بمحسن ان يتركها ويبتعد لاطلق نحوها طلقة اخرى ، ولكنه اصر على متابعتها . وظل يقتفى اثرها لمدة خمس دقائق ، عاد بعدها وهو يحملها . ولكنه كان مرهقا تماما ، فقد جلس على الارض قبيل وصوله الى السيارة . واضعا يده الاخرى فوق صدره من الناحية اليسرى . ثم اخذ يزحف نحو السيارة ، ولم يستطع الوقوف بعد ان صعد اليها . وسألته قائلا :

ـ ماذا بك يا محسن ؟ أتشعر بألم شديد ؟ اذا كان الامر كذلك فدعنا نذهب في الحال الى الطبيب .

فقال :

ـ كلا ، لا تلق بالا .. اننى بخير ، ليس بى سوى مرض في القلب .

ومرت سنوات ثلاث . وكنت قد نقلت الى عمل آخر .. في مكان آخر . وذات مرة قررت اثناء اجازتى ان اؤدي زيارة لاصدقائي القدماء في وزارة الزراعة . فقد كانوا في الحقيقة اصدقاء على درجة كبيرة من طيبة القلب والوفاء وحتى عوض . الذي كان يبدو لى متعبا في بعض الاحيان ، كان دمث الاخلاق ، حميد الصفات . ووجدت ان اضمن طريقة استطيع ان اراهم بها جميعا مرة واحدة . هى ان ازورهم في مكاتبهم بالوزارة وهكذا قصدت اليها .

ووجدت كل شيء كما تركته منذ خمسة شهور مضت وجلست فوق مقعد امام مكتب عوض ، الذي بدأ يشكو لى من عملهم الشاق ، كما لو كان الامر جديدا على كما راح يحدثني عن تجاربهم الجديدة ، وحقولهم ، ومشاتلهم . وشاهدني فهد وهو يجتاز المر امام الحجرة ، فاقبل على يحييني ، وكان كعهدى به لا يكف عن الضحك والمزاح ، ويعارض عوض كلما وجد الفرصة سانحة لذلك وسألته قائلا :

ـ اين صديقنا العجوز ؟

ـ في المستشفى .

وتألمت عندما علمت ان محسن ذلك الرجل الطيب في المستشفى . وحصلت على رقم حجرته ، وتوجهت بعد الظهر لزيارته ، ولم اجده في الحجرة رقم (٢) الذي قيل لى انها حجرته ، فعلمت انني قد حصلت على رقم خاطىء واضطررت الى الذهاب الى مكتب المرضين ، وهناك وجدت من حسن حظى صديقا اعرفه من المرضين اسمه عبده . وقادني عندما سألته عن محسن الى الحجرة (٥) وبينما نحن في طريقنا فاجانى بقوله ان محسنا في حالة خطرة ، واضاف بعد قليل :

ـ ان صديقك يخوض معركة خاسرة .. فهى مسألة شهور :

كان محسن يرقد فوق سريره ، وهو السرير الوحيد في الحجرة وبدت على وجهه علامات الدهشة عندما رآني وحاول النهوض ولكنني اسرعت نحوه ورحت اصافحه قبل ان يرفع راسه عن وسادته . وكان بالحجرة جهاز اوكسجين ، فادركت انه يجد احيانا صعوبة في التنفس . ووجدت معه ثلاثة اشخاص احدهم متوسط العمر والآخران صبيان يافعان . واصر احد الصبيين على ان اجلس مكانه ، وظل هوواقفا في مؤخرة السرير عند قدمي محسن . وقدم لى الصبيين فاذا بهما ولداه ، وكان الذي اجلسنى مكانه هو ابراهيم وقد اخبرني ابوه بانه قد نجح منذ ايام ، فاحمر وجه الصبى عندما نظرت اليه مهنئا .

وراح محسن يسألني عن عملى الجديد .. وعما اذا كنت قد تزوجت ام لا ، واخذت اجيب على اسئلته بصراحة وصدق وسرور ، وشعرت برغبة في ان اذكر له كل شيء عن اى سؤال يوجهه الى .. فيما عدا ما سمعته قبيل دخولى اليه من عبده .

وساد الحجرة جو من الالفة وتشعب بيننا الحديث واخذ محسن يتحدث عن مستقبل ولديه ، وهو ينظر إليهما في حنان .

وشاهدت وانا استأذن في الانصراف صحيفة موضوعة فوق المائدة بالقرب من رأس محسن ، وقد كتب في رأس صفحتها الاولى بحروف ضخمة :

« الانسان يهبط عما قريب فوق سطح القمر »

وغادرت الحجرة وقلبى يتمزق الما ، وتذكرت وانا اجتاز الممر الطويل ، التي غطيت ارضه بطبقة من المطاط تلك الكلمات القلائل التي قيلت لى يوم اصطياد الارانب ، وتحت جنح الظلام :

ـ اننى بخير .. ليس بى سوى مرض في القلب .. :

الرجل الذي هبط من التل

نهاية صيف ١٩٥٩ انتقلت الى سامر . وهي قرية صغيرة تقع في جنوب حبرون لأعمل مدرسا للزراعة في المدرسة الوحيدة الموجودة بها . والحقيقة اننى اؤمن بالفكرة الصائبة التي تقول بضرورة وجود مدرس متخصص في الزراعة في كل قرية أردنية . اذ أن فائدته ستعود على المدرسة كمدرس ، وعلى أهل القرية كمرشد زراعى خصوصا وأن معظم مدارس القرية الريفية تحتوى على مزرعة يستطيع المدرسون الزراعيون عن طريقها ان ينشروا الطرق الحديثة في الزراعة .

وعلى الرغم من أننى لم أذهب الى سامر من قبل الا أننى كنت مسرورا من نقلي اليها اذ سمعت أن بها مناطق جبلية صالحة لرياضة الصيد حيث يستطيع المرء ان يمضي وقتا طيبا في عطلة الاسبوع . وقد سمعت بين ما سمعت أن ناظر المدرسة هذه . رجل حازم وماكر وشرس الأخلاق ، ومع هذا فأنني كنت أنتظر بفارغ الصبر اليوم الاول من أكتوبر وهو تاريخ بدء الدراسة واستلام عملي الجديد .

أن شهر أكتوبر هو الشهر الذي يمثل الخريف الحقيقي في الشرق الأوسط وخصوصا في فلسطين والأردن وسوريا وانها لمنحة ثمينة من الطبيعة ان تجعل لنا في السنة أربعة فصول . ومع ان الخريف هو الفصل الذي تعاني فيه عناصر الطبيعة من التلاشي والذبول الا أن شهر أكتوبر يتميز بظاهرة غريبة تدعو الى التأمل والتعليق ، فهو الشهر الذي يجمع بين أمرين متناقضين .. هما الموت والحياة . فبينما نرى فيه مظاهر الموت تنعكس على ما يذبل ويتلاشى وينتهى أجله ، من زهور ونباتات وبينما نرى أوراق الشجر الخضراء وقد ذبلت واصفر لونها وراحت تتساقط فتعصف بها الرياح الشرقية العنيفة فاننا نرى في نفس الوقت الذي يحدث فيه ذلك مظاهر الحياة منعكسة بأجلى معانيها في مجال آخر . نراها في أولئك الصبية والبنات الذين

ينطلقون في الطرقات ، وقد امتلأوا حيوية ونشاطا ، وهم في طريقهم أفواجا الى مدارسهم في شهر اكتوبر .. شهر افتتاح المدارس .

واستيقظت في ذلك الصباح ــ صباح أول أيام الدراسة ــ مبكرا وقصدت الى موقف سيارات القرية التي كانت أسرتى في هذا الوقت تعيش فيها . ومع ان الوقت كان مبكرا جدا الا أن طرقات القرية كانت زاخرة بالحياة ، وقد امتلأت بصغار التلاميذ والتلميذات ، حاملين حقائبهم ومزهوين بملابسهم المدرسية الجديدة ، وهم يسيرون زرافات ، اما الاطفال الصغار فان آباءهم أو أمهاتهم كانوا يقودونهم من ايديهم والبشر والسرور مرتسم على كل الوجوه .

وما أن وصلت بي سيارة الأوتوبيس الى مدينة حبرون ، حتى قصدت مسرعا الى المكان المخصص للسيارة المتجهة الى قرية سامر فوجدت مجموعة صغيرة من الشبان القائمين بالتدريس في نفس مدرستي الجديدة الذين رحبوا بى كزميل جديد لهم ، وعلى مقربة منا ، شاهدت أربع فتيات ، ورجحت أنهن زميلات من المدرسات،ووصل بعد قليل رجل بدين في منتصف العمر ، ذو وجه أحمر وعلى عينيه نظارات ، وفوق رأسه عقال وبيده حقيبة قديمة . وأدركت في الحال انه ناظر المدرسة . وبعد ان صافح الجميع ، قدمنى له شاب صغير وسيم من بين المدرسين قائلا في صوت مرتفع :

ــ أقدم لك زميلنا الجديد .. مدرس الزراعة .

وابتسم لى أبو العز ناظر المدرسة وقال في بشاشة :

ــ مرحبا بك في مدرستنا ونأمل ان شاء الله ان تسرك الاقامة في القرية .. ان لدينا حديقة غاية في الجمال . وهى في اشد الحاجة اليك .

وشعرت على الفور بأن من وصفوه لى لم يكونوا موفقين في وصفهم ، فلم يكن الرجل على شيء من الشراسة ، بل كان لطيفا ومهذبا . وبعد دقائق وصلت السيارة الأوتوبيس ، وانتشرنا نحن المدرسين في أرجاء السيارة التي كانت خالية الا من اثنين من الأهالى . بينما احتلت المدرسات الاربع مقاعد في الجانب الأيمن . ومررنا في الطريق بكثير من كرمات العنب التي بدأت اوراقها في الاصفرار ، كما شاهدت عددا من المزارعين وهم يسيرون الهوينا بين حقولهم من الخضر والطماطم ، بينما كان آخرون يجلسون على قارعة الطريق الزراعى وبجوارهم صناديق معبأة بالفاكهة والخضروات ، في انتظار سيارات

النقل الخاصة لحملها الى المدينة . ومررنا بقرية اسمها ياتا لا تبعد كثيرا عن سامر . ثم اخترقنا طريقا مغطى « بالأسفلت » بين تلين قريبين كل القرب من بعضهما . وما لبث هذا الطريق ان قادنا الي سهل فسيح منبسط ، واستطعنا ان نرى في نهايته تلا تقع قرية سامر فوق منحدره بمنازلها القليلة المتناثرة . وتوقفت سيارة الأوتوبيس قبل حوالى مائة ياردة من القرية وقال زميلي في المقعد .

ـ ها هى المدرسة .

واجتزنا بعد ان هبطنا من السيارة بوابة ضخمة وسرنا خلال مشاية تحف بها الأشجار من الجانبين ، وكان التلاميذ متجمعين في كل جانب . وتقدم بعض الكبار من بينهم فصافحوا مدرسيهم ، واكتفى الآخرون بالنظر الينا وهم يبتسمون وصعدنا بعض درجات قليلة داخلين الى مبنى المدرسة ، وكانت حجرة المدرسين هى أول حجرة في المدخل وفيما بعدها حجرة ناظر المدرسة . ودق جرس الدرس الأول وعند ذلك عرفت لماذا قيل عن الناظر انه رجل حازم ، فلقد كان كل شيء يأخذ مجراه في دقة ونظام .. واتجه كل مدرس الى فصله مباشرة دون جلبة أو ضوضاء .

كانت هناك استراحة بعد الظهر فيما بين الدروس مدتها تسعون دقيقة وقد سألنى الناظر خلالها أن أرافقة في جولة ليريني الحديقة والمزرعة والمرافق الأخرى قائلا :

ـ دعنا نبدأ بالحديقة ان لم يكن لديك مانع ، فأنا مغرم بالزهور .

وشاهدت عندما دخلنا الحديقة المدرسية الصغيرة أنواعا كثيرة من الزهور ، غير ان زهور القرنفل كانت أبرزها وأكثرها . ولما كانت تلك الزهور هى زهرتي المفضلة ، فقد شعرت بالغبطة والسرور . ونادى ناظر المدرسة على شكرى البستاني وكان رجلا قصيرا ممتلئا ، يرتدى قميصا ازرق وسروالا ، وقدمنى أبو العز له قائلا :

ـ هذا هو مدرس الزراعة الجديد ، والمكلف بالشئون الزراعية في المدرسة وعليك ان تنفذ تعليماته .

ورحب بى شكرى وسار خلفنا ونحن نتجه الى قسم الدواجن ، وعندما فتح احدى حظائر الدجاج . اندفعت الطيور خارجة منها والتفت حولنا ظنا منها انه سيلقى اليها بطعامها ، ثم شاهدنا حظائر الارانب وقادنا شكرى بعد

ذلك نحو مشتل تربية النباتات وشرح لنا كيف انه يعمل على انبات بذور الازهار في وقت مبكر من السنة حتى تستكمل الأزهار تكوينها قبل ان يدركها الطقس البارد كما ان هذا التبكير يجعله يحصل على انواع مختلفة من الزهور قبل اى حديقة اخرى في المنطقة . ثم أردف قائلا :

ـ هكذا استطعنا في العام الماضي ان نحصل على الميدالية في معرض الزهور .

وأحسست بأنني قد أحببت شكرى الذي سألني قبل ان نتركه عما اذا كنت ارغب ان يبحث لى عن مسكن بالقرية . فأجبته قائلا :

ـ نعم اذا تكرمت .. فلسوف تصل حقائبي وأمتعتى في الاسبوع القادم . وحبذا لو استطعت أن أرى المسكن قبل ذلك .

وجاءني شكري بعد يومين قائلا انه قد عثر على حجرة لى لدى اسرة يقول أفرادها انهم يعرفون أبوى . واستطرد قائلا :

ـ انها أسرة أم محمد ، وهى امرأة صالحة ذات قلب طيب ، وقد فقدت زوجها منذ سنوات وهى الآن تعيش مع ابنتها وولديها . وقد أبدت اهتماما وذكرت أنها على استعداد لأن تفعل كل شيء من أجلك . لانها تعرف والدتك جيدا .

ولم أستطع ان أتذكر تلك السيدة ولكنني كنت اذكر جيدا اسم أسرتها ، واتفقت مع شكري على الذهاب معا لألقى نظرة على الحجرة . وهكذا أحاط هذا ابنها الصغير علما بأننا سوف نذهب اليهم أثناء استراحة بعد الظهر .

ورأينا الصبى ينتظرنا لدى وصولنا أمام باب المنزل ، وما أن رآنا حتى دلف داخلا ، وقبل ان ندق الباب خرجت الينا امرأة عجوز قائلة :

ـ مرحبا بكما .. تفضلا : كيف تسمح لنفسك ان تبحث عن مسكن .. بينما نحن هنا ؟

وظلت ترحب بنا على هذا النحو ونحن نصعد السلم نحو الحجرة التي وجدتها في الحقيقة غاية في النظافة ، ومرتبة ترتيبا حسنا . وأستطيع من نافذتها ان أشاهد منظر أجزاء القرية .

وبعد ان دخلنا الحجرة بقليل ، أقبلت فتاة بالغة الجمال ذات ملامح حزينة وهى تحمل صينية عليها ثلاثة أقداح من القهوة ، وقدمتها أم محمد لى

قائلة أنها ناهلة ابنتها . واقترحت أم محمد الا أحضر شيئا معى عند اقامتى لديهم لأن كل شيء متوفر ، وطلبت منى ان اعتبر نفسي في منزلى وبين اسرتي .

ولكنني احضرت مع ذلك حاجياتي ، اذ أصرت أمي على أن أخذها معى مع علمها بأن أم محمد لن تجعلني أحتاج الى شيء ، وذكرت لى ان تلك السيدة كانت من أعز صديقاتها وانها واحدة من أفضل النساء اللاتي صادفتهن . وقد تحقق ما ذكرته أمي وشعرت بعد فترة وجيزة من الاقامة في مسكني الجديد بأنني في بيتى بفضل عناية أم محمد وما أبدته من عطف نحوى .

وتوطدت صلتي مع أهل القرية عن طريق شكرى وأم محمد حتى سمعت أن ثمة حماما بريا كثيرا على مقربة من القرية فرحت أستيقظ في وقت مبكر جدا وأذهب للصيد من قبل شروق الشمس يصحبني منصور وهو أحد شيوخ القرية ممن تعرفت اليهم وأصبحت أمضى معظم الأيام ساعتين في الصيد ثم أعود الى المدرسة قبل أن يحضر المدرسون . وكان شكرى يصحبني أحيانا في رحلات الصيد هذه .

والحقيقة أننى أحببت أهل تلك القرية وشعرت أنهم يبادلونني نفس ذلك الحب ، وكنت أعرف بينهم بالمدرس البدوى فكان يعجبني ذلك منهم . ولم يكن يمر أسبوع دون أن يدعونى أحدهم الى منزله حتى اصبحت أحس كأنني في بيتى وبين أهلى وعشيرتي بحيث أصبحت لا أذهب في عطلة الأسبوع الى أسرتي .

وذات يوم . وكان قد مضى على وجودي في القرية نحو شهرين جاءني تلميذ وقال لى ان بدويا يقطن بالقرب من القرية يقول انه يعرفني .. واضاف الصبى قائلا :

ـ انه قد يحضر اليوم أو غدا ليراك .

وسألت قائلا :

ـ إلا تعرف اسمه ؟

ـ نعم يا سيدى ، أن اسمه أبو صالح .

وفي اليوم التالى . وكنت قد خرجت بالتلاميذ الى الجزء من التل التابع للمدرسة ليمارسوا بعض الأعمال الزراعية هناك ، عندما رأيت شكري ومعه رجل يصعدان التل نحونا وحاولت ان أتذكر الرجل ولكنني لم أستطع . وكان رجلا طويلا ذا شارب صغير ولحية وخطها بعض الشيب ، مرتيديا عباءة سوداء كتلك التي يرتديها البدو وبعض الريفيين .

وقال الرجل عندما وصل الينا .
ـ السلام عليكم .
وقبل ان أمد يدي لمصافحته كان شكرى قد قدمه لى قائلا :
ـ هذا ابو صالح .. وقد جاء ليراك .
فقلت وانا اصافحه :

ـ مرحبا يا أبا صالح ، لقد ذكر لى احد التلاميذ امس انك قد تحضر.
واجاب الرجل :

ـ اظنك لا تتذكرني .
وعصرت ذهني لعلني أذكر أين رأيت هذا الوجه وسمعت ذلك الصوت فقد شعرت بأنهما ليسا غريبين على . ولكنني لم استطع ، فقلت :

ـ يؤسفني اننى لا اتذكر .. يبدو لى اننى شاهدتك من قبل ولكن لا استطيع ان اذكر اين .. او متى .
وراح الرجل يتبادل النظرات مع شكرى .. ثم قال لى :

ـ اننى من قبيلتكم ، اسمى الحقيقي أحمد ابو لحية ، لقد عرفتك في طفولتك . منذ كنت تلعب مع الاطفال الآخرين في وادى الحيسى . كما أعرف أباك جيدا ، أنت وكل أفراد أسرتك .

واستولى على بعض الخجل . لأنني كنت أعرف الكثيرين من أسرة أبى لحية كما كنت اذكر واحدا منهم بهذا الاسم ولكنه كان أصغر بكثير من هذا الرجل الذي يقف الآن امامى مذكرا اياي بأيام وادى الحيسى السعيدة التي ولت . وكنت على وشك أن أعبر له عن أسفى ، عندما قال :

ـ إنك معذور يا بنى فقد كنت صغيرا جدا عندما حلت الكارثة ، وفقدنا الأرض .. انها الأرض ، والأرض وحدها هى التي تجمع الشمل ، وتمسك الناس وتمنعهم من التشتت .

قال ذلك وهو يشير بأصبعه نحو الارض التي كانت الحشائش الخضراء قد بدأت تنمو على سطحها . وسألته ان يجلس وطلبت من شكرى ان يصنع لنا بعض الشاى فجلس معتذرا عن تناول الشاي . واخذ يمطرني بوابل من الاسئلة عن أسرتي وكل أفراد القبيلة ، كما لو كانت اسماؤهم مكتوبة على الحشائش التي امامه ، وأخذت أجيبه على أسئلته بسرور وهو يعلق على بعض الأسماء أحيانا ويمزح أحيانا أخرى ، وشعرت أننى ينبغى أن

اسأله بدوري عن أسرته . فذكر لى أن له طفلا وطفلة فقط وأبدى قلقه من أن يكبرا دون أن يعرفهما احد من أقاربهما أو يعرفا أحدا من أولئك الأقارب . وعرفت منه أنه يعمل الآن حارسا لحقول القمح في الجهة الجنوبية الغربية للقرية وانه يقيم في كوخ قديم على مبعدة أربعة أميال منها .

وقبلت بسرور دعوته التي وجهها الى . ووعدته بتناول الطعام عنده في يوم الجمعة التالى . ثم ودعني وانصرف .

وعندما حل يوم الجمعة ، قصدت الى كوخ أبى صالح . وعندما اقتربت من المكان شاهدته واقفا في انتظاري ومعه طفلاه أمام الكوخ ، وعندما رآني أقبل نحوى يتبعه ابنه ذو الخمسة أعوام ، وبعد ان صافحني قدم لى الطفل قائلا :

وهذا هو صالح .. أبنى .

وأمسكت بيد الطفل وتبعنا أبوه نحو الكوخ . اما الطفلة فانها ذهبت الى الداخل . ولما كان الوقت شتاء واليوم مشمسا فقد وجدته قد أعد بساطا قديما فوق الحشائش ، ثم قال :

ـ لقد فضلت أن نجلس هنا ، فالشمس اليوم لطيفة . وخرجت الينا زوجته وأخذت تسأل كما فعل زوجها عن الأسرة وافراد القبيلة . وهى تشكو من عزلتهم في هذا الكوخ النائي قائلة :

اننا نشعر هنا بالغربة .. فالناس لا يعرفون حتى اسماءنا . وهم لا يقولون سوى « البدو راحوا ، والبدو جاءوا » : ان تلك طبيعة الحياة .. يوما حلوة ويوما مرة ..

وتناولنا ونحن فوق البساط القديم وجبة بدوية شهية ، قص علينا ابو صالح خلالها بعض الذكريات . وفي المساء ودعتهم وانصرفت ، واعدا اياهم بالعودة اليهم عندما تسنح الفرصة لى .

وعندما رأيت أبوي في اول عطلة اسبوعية ، ذكرت لهما ما كان من لقائي بأبى صالح . فقالا انه كان من أفضل أفراد القبيلة وأثراهم ، قبل ان يجعلنا الاعداء ننزح بالقوة عن وادى الحيسى . وأضاف أبى :

ـ ان صلتي به كانت وطيدة ، وكان لديه عدد من الحراس يحرسون له حقوله وحيواناته .. وها هو ذا يصبح حارسا : مسكين ابو صالح ..

وفي الصيف الماضي في أثناء اجازتي السنوية وانا في عملي الوزاري بالمملكة العربية السعودية ، رغبت في أن اؤدي زيارة لأم محمد ، المرأة التي أبدت نحوى كل العطف والكرم لمدة عام بأكمله ، ولأبى صالح ذلك الصديق الذي أثرت في شخصيته في قرية سامر . ولست ادرى لماذا اشعر دائما بحنين عجيب نحو تلك القرية ، مع انها لا تختلف في شيء عن الكثير من القرى التي عملت بها . وعندما قررت تأدية هذه الزيارة ، ابتعت هدية بسيطة لأم محمد ، وبعض اللعب والحلوى من أجل طفلى ابى صالح .

وعندما استقليت سيارة الأوتوبيس المتجهة الى سامر وجدت ان السائق هو نفس السائق الذي كان يقود السيارة ايام ان كنت مدرسا بتلك القرية . ورأيت في السيارة بعضا من الرجال والنساء ، فألقيت عليهم التحية . وأقبل نحوى اولئك الذين عرفوني من بينهم وصافحوني بحرارة ، بينما أخذ الآخرون يتهامسون ولعلهم كانوا يستفسرون عن ذلك الغريب الذي يحظى بهذا الترحيب من رفقائهم . وأمام احد حدائق الكروم وقفت السيارة ، وهبط منها الشخص الجالس بجواري . ولما وجد الكمساري . ان المقعد اصبح خاليا ، تقدم وجلس بجوارى ، وعرفت وجهه مما دلني على انه من سكان قرية سامر ، ولكنه لم يكن نفس الكمسارى الذي اعتدت أن أراه حينما كنت منذ اربع سنوات مدرسا في سامر . ومع انني لم اتذكر اسمه الا انه عرفني ، واخذ يحدثني ، فسألته عن المدرسة وأحوال القرية وسكانها فأجابني قائلا :

ـــ ان كل شيء على ما هو عليه كما تركته ، فيما عدا ما يحدث دائما من ان العجائز يموتون .. والشبان يتزوجون .

قال ذلك وهو يبتسم ، فسألته :

– وما هى حال الدنيا مع أم محمد ؟

– انها بخير .. وقد تزوجت ابنتها ، وأنجبت طفلا .

– لقد سمعت عن السيول التي غمرت المنطقة في الشتاء الماضي وعن حادث غرق احدى سيارات الأوتوبيس .. فكيف حدث ذلك .. ؟

ونظر الرجل الى ساعته ثم قال :

– دعنى أولا أقرض تذاكر الركاب ، وسأروى عليك ما حدث بعد ان انتهى من ذلك .

وتركني ، وبدأ يمر على الركاب ، ثم عاد بعد ان انتهى من عمله ، واحتل مكانه بجوارى ، وأخرج لفافة تبغ وأشعلها وراح يروي القصة ، قائلا:

كانت السماء في ذلك الصباح ممطرة ، عندما حضر تلاميذ القرية الذين يترددون على المدارس المجاورة ، اشتد المطر ، واشتد الجدل بين التلاميذ حول ما اذا كانوا يذهبون الى مدارسهم في ذلك اليوم أم يعودون الى منازلهم واخيرا حزموا أمرهم على الذهاب ، ورأيت البنات يتقدمن السيارة ويركبنها وهن مترددات كما لو كن يخشين الذهاب ، كما رأيت قلة من الأولاد يعدلون في اللحظة الأخيرة عن الركوب ويعودون الى منازلهم . وما لبثنا ان تحركنا بالسيارة وبها التلاميذ .

لم نكن نخشى شيئا سوى ذلك الكوبرى المنخفض بالقرب من قريــة « كرمة » ذلك لانه يمتد طويلا فوق الوادى الواطىء الفسيح الموجود في تلك المنطقة وهو يقع كما تعلم على بعد أميال قليلة من غرب قرية سامر . وعندما وصلنا الى مدخله كانت السيول قد غمرت الوادى عن آخره حتى اننا لم نستطع ان نميز سطح الكوبرى وهناك توقفنا ، وانقسمنا الى فريقين فريق يحبذ عودتنا ، نظرا لشدة الخطر الذي يتهددنا اذا ما مرت السيارة فوق الكوبرى الذي لا يرى أحدنا سطحه والفريق الآخر ــ ومن بينه السائق يرى انه لا خطر من العبور . وقد حاول الفريق الاول الذي كنت أنا من بينه ان يقنع السائق ومن معه بالعودة وعدم اجتياز الكوبرى ، ولكن السائق اصر على عناده ، مؤكدا انه يعرف طريقه جيدا . واخيرا وافقنا جميعا فيما عدا رجلان ريفيان غادرا السيارة وظلا واقفين على الضفة وتحركت السيارة نحو الماء ، وقد امسك الجميع انفاسهم ، وصاح السائق :

ــ نحن الآن فوق الكوبرى ..

ولكنه لم يستطع ان يكمل حديثه فقد مالت السيارة في الحال الى الجانب الايسر . وفي لحظة واحدة كنا في جوف الماء : وبادرت الى احدى النوافذ ففتحتها ، واندفع الماء خلالها بشدة ولكننى استطعت مع ذلك ان انفذ خلالها صاعدا فوق سقف السيارة الذي لم تكن المياه قد ادركته ، وقد حذا معظم التلاميذ حذوى ، تحت تأثير تعلقهم بالحياة اذ ان المياه كانت تندفع بعنف لتملأ السيارة من الداخل ، ورحنا نحن الذين استطعنا الوقوف على سقف السيارة ، نجر التلميذات وصغار التلاميذ الذين كانوا يمدون ايديهم من النوافذ الى الخارج ونرفعهم الى حيث نقف ، وما لبثنا ان وجدنا انفسنا محصورين فوق سطح سيارة وسط سيل جارف من الماء . واخذ الصبية والبنات يبحثون في ذعر عن بعضهم البعض خشية ان يكون احد قد ترك

داخل السيارة . ولكن الجميع كانوا فوق السطح . واستولى الهلع على الجميع . وأصبح اخشى ما نخشاه أن يتزايد سقوط المطر ، فيرتفع مستوى الماء الى مستوى السقف الذي نقف فوقه ويتجاوزه ، فنغرق جميعا ، وكان السائق يقف بيننا مبهوتا أما الأولاد فعلى الرغم من خوفهم فانهم لم يبدوا هذا الخوف بصورة واضحة امام التلميذات اللاتى كن يرتعدن من شدة الهلع ، ورأينا احد الرجلين العاقلين اللذين رفضا العبور وظلا فوق الضفة يعود مسرعا عائدا نحو القرية في طلب النجدة بينما وقف الآخر على الشاطىء يراقب مصيرنا .

وفوق التل القريب ، جنوبي الطريق ، كان يقع كوخ حارس حقول القمح . وكان ذلك البدوى المسكين قد شاهد كل ما جرى حتى تلك اللحظة . وما كاد يرى ما أسفرت عنه الأمور حتى هبط مسرعا من التل ، قادما نحونا ومعه زوجته يتبعهما طفلاهما . ولكن هذين ما لبثا ان عادا الى الكوخ عندما شعرا بغزارة المطر ثم رأيت زوجته تعود أيضا ، ولكن كى تظهر بعد قليلا وهى تحمل في يدها حبلا .

لم يكن الرجل الذي اسرع عائدا الى القرية في طلب النجدة ليستطيع ان يصل اليها في أقل من نصف ساعة ، وعلى ذلك فقد كان علينا ان نظل في مأزقنا مدة لا تقل عن الساعة حتى يحضر الناس الينا بينما كان المطر يزداد غزارة وقد أخذ مستوى الماء يرتفع حتى غطى أقدامنا .

وما لبث ان وصل الرجل البدوي مع زوجته ، واصبحا بجانب الرجل الواقف على الشاطىء واخذوا يربطون أحد طرفي الحبل في احدى الصخور ، وصاح البدوى بأعلى صوته :
– لا تخافوا : سأسبح اليكم بطرف الحبل الآخر ، ولسوف ننقذكم جميعا .

وخلع ملابسه ، وألقى بنفسه في الماء ، وراح يسبح نحونا وهو يصارع التيار حتى اقترب بعض الشيء منا ، وهو يصيح قائلا شيئا ولكن هدير الماء كان يطغى فوق صوته فلم نسمع ما كان يقول ، ويبدو ان التعب كان قد أخذ منه لأن حركته أصبحت بطيئة ، رغما عن انه بات شديد القرب منا ، وبدأت الأمواج تتقاذفه ، وتغمره الى ما فوق رأسه .. كان ينظر نحونا ، ثم نظر خلفه نحو زوجته والرجل الذي بجانبها ثم نحو كوخه القائم فوق التل ، وأخيرا فقد

كل قواه ، وادركت زوجته انه على وشك الغرق فراحت بمساعدة الرجل الذي معها يجذبان الحبل ولكن عبثا حاولا فقد كان التيار أقوى من كل شيء . وراح البدوى المسكين يطفو لحظة ويختفى في جوف الماء لحظة أخرى .. وأخيرا لم يعد أحد يراه ، واختفى تماما تحت الماء . واخذت زوجته تعدو في يأس بحذاء الشاطىء عساها تراه يطفو في جهة اخرى ، ولكنها لم تر شيئا .

وعندما وصل أهل القرية تحملهم سيارة أوتوبيس اخرى ومن ورائها بضعة سيارات للنقل محملة بالناس ، لم يستطيعوا ان يفعلوا لنا شيئا ، وحذرونا من أن نقدم على أى شيء ونصحونا بأن نبقى كما نحن مؤكدين ان مجموعة من رجال الشرطة على وشك الوصول لمساعدتنا .

وكان المطر عندما وصل رجال الشرطة قد كف عن الهطول ورأينا هؤلاء يستقلون سيارات اللاند روفر وقد ربطوا واحدة من تلك السيارات بعد احكام اغلاق نوافذها الى احدى رافعات الاثقاف « ونش » واخترقت السيارة الماء حتى وصلت الينا ونقلوا الى سطحها بعض التلاميذ وأخذت تعود القهقرى نحو الضفة الأخرى بمساعدة الرافعة ثم استطاعت الوصول الى البر . وتكررت تلك العملية حتى تم انقاذنا جميعا ، ووجدنا أنفسنا سالمين فوق الشاطىء .

وسألت الرجل ، وانا اخفى ما يخالجني من ألم :

ــ وماذا كان من شأن الحارس البدوى ؟

ــ كان بعض الصبية يلعبون بعذ ذلك بأسبوع في رمال أحد الوديان بالقرب من غزة فرأوا أصابع بشرية بارزة من الرمال .. وتبين بعد أن أبلغوا المسئولين أنها جثة الحارس .

ــ الا تعرف شيئا عما حدث لزوجته وطفليه ؟

ــ ظلوا في الكوخ نحو اسبوعين ثم جاء بدوى يقال انه من اقاربهم فاصطحبهم معه ولم نسمع عنهم بعد ذلك شيئا .

ووصلنا في تلك اللحظة الى محطة الأوتوبيس في قرية سامر ، وهبطت من السيارة واخترقت الدرب الضيق المؤدي الى منزل أم محمد .. وانا أفكر فيما عساى أقول لها عما أحمله معى من اللعب والحلوى التي كنت أنوى ان أقدمها الى طفلى .. أبى صالح

مجرى الأحداث

منذ عامين ، وكان الوقت صيفا وكنت عائدا من زيارة لأخي الأكبر ابراهيم الذي كان يعيش وقتذاك مع مجموعة من أفراد قبيلتنا ، على مبعدة قليلة من جنوب مدينة ماريا في احدى القرى الصغيرة المتناثرة في تلك الجهة . ولم تكن ظروف عملي تسمح لى بالبقاء مدة طويلة في زيارة أخي ، لهذا نهضت مبكرا ذات صباح ، مستأذنا في الرحيل ، وعندما حاول الأطفال ان يتشبثوا ببقائي مدة اطول ، ذكرت لهم أنني لا أستطيع ، ووعدت بالمجيىء مرة اخرى . وعندما قصدت مع أبيهم الى محطة الأوتوبيس بعد أن أصر هذا على تشييعي اليها ، تبعونا .

ولم تكن تلك في الحقيقة محطة أوتوبيس بالمعني الحقيقى بل كانت مجرد بقعة من الارض تحت شجرة كبيرة ، يمر عليها الأوتوبيس ، فان كان أحد ينتظر بها ، توقف والا مضى في طريقه . وجلسنا جميعا تحت الشجرة ، وجعلني أخى أجلس فوق الحجر الوحيد الموجود بجانب جذع الشجرة ، بينما جلس هو وأطفاله على الأرض من حولى ، ورحنا نتحدث حول موضوعات مختلفة في الماضي والمستقبل ، وبعد فترة من الوقت لا أدري مداها أقبل الأوتوبيس . فودعت الجميع وقبلتهم وقبل أن أصعد الى داخل السيارة ، قال لي أصغر الأطفال :

– لا تنسى أن تحضر قريبا وتحضر معك لى الدراجة التي وعدتني بها .

وقبل أن أرد عليه قال اخوه الذي يكبره :

– كلا .. انه لن يحضر قبل الصيف القادم .. هكذا قالت لى أمى .

ونظرت بعد أن تحركت السيارة من النافذة ، فوجدت أخي ومن معه قد قفلوا عائدين فيما عدا اصغر الأطفال الذي ظل يتابع الأوتوبيس وقد ظلل عينيه بكفه الصغير ، ولما انحدرت السيارة هابطة التل ، لم أعد أراه .

كانت سيارة الأوتوبيس مكتظة بالناس ما بين رجال ونساء واطفال ،

كما كانت السيارة قديمة ، عملت ، كما سعمعت داخل المدينة لسنوات طويلة فلما أكل الدهر عليها وشرب أخرجوها لتعمل في الطرق الريفية .

وصعد في أثناء الطريق رجل متقدم في السن وما كدت أرى وجهه حتى خيل لى ان ملامحه ليست غريبة على ، كذلك صوته وطريقته في الحديث . وقد حاولت أنا وشاب آخر ان نتنازل له عن مقعدنا نظرا لكبر سنه ، ولكنه رفض في أول الأمر ثم ما لبث أن قبل تحت الحاحنا الشديد ، ولما كنت أقرب اليه فقد اختار مقعدي وجلست أنا فوق برميل صغير يستعمل في ملء خزان السيارة القديمة بالماء كلما نفذ في اثناء سيرها . واخذ الرجل يحدق في وجهى ، ثم سألني قائلا :

ـ من أين أنت يا ولدى ؟

وهكذا تبين لى أن الرجل أيضا يرى وجهى مألوفا لديه ، ولكننى على سبيل التسلية لم أذكر له مباشرة كل شيء عن أسرتى وأبي واكتفيت بالأجابة باقتضاب على اسئلته . غير أنه ما لبث لدهشتى أن ذكر لى اسم والدى . فسألته قائلا :

ـ وكيف عرفت اسم ابى ؟

ـ ان ملامحك كملامحه تماما . ومنذ اللحظة التي تحدثت الى فيها تذكرت أباك في الحال . ولكن وجودك في هذه الأنحاء جعلني لا أستطيع ان أجزم .

فذكرت له سبب وجودى موضحا انني كنت في زيلرة أخي وسألته بدوري أن يذكر لي أسباب وجوده في تلك الانحاء وعن حياته بها ويبدو ان الرجل قد شعر بأنه ليس من الملائم ان يتحدث الأنسان علانية عن حياته الخاصة بالتفصيل . ولهذا فأنه أجابني باقتضاب وبصوت خافت قائلا :

ـ وماذا عساك تعتقد أن تكون عليه حياة رجل شرد عن وطنه ؟

ولم ينتظر العجوز إجابة منى على سؤاله بل أستطرد قائلا :

ـ لا شيء سوى الفقر المدقع ، والديون والأمراض والقلق وعدم الاستقرار .

وجاءنا في تلك اللحظة « الكمسارى » ليقرض تذكرتينا ، وانتظرت حتى مضى وقلت للرجل ان تلك هى حالتنا جميعا وانه ليس أسوأ حالا ممن غادروا ارضهم التي اغتصبت منهم .

ويبدو أن الرجل قد وجد الفرصة سانحة ليخفف عن نفسه بعض ما يعانى ، اذ قال :

– انا ذاهب الآن الى المستشفى لازور ابنتى التي تعانى من مرض عضال .. ولابتاع بعض القمح لأسرتي ، اذا قبل تاجر الغلال ان يعطيني .. بالأجل .

وكنت على وشك أن أسأله لماذا يذهب بمفرده لزيارة ابنته المريضة ، ولكن ملابسه المهلهلة . وذقنه التي تعوزها الحلاقة ، ونغمة صوته وهو يتحدث عن القمح الذي يلزم أسرته كل ذلك جعلني أمسك عن توجيه اسئلة أخرى اليه .

وما لبثنا أن وصلنا الى ماربا وهبطنا من السيارة فصافحنى ذلك الشيخ بحرارة وأوصاني بأن أحمل الى أبى تحياته وأطيب تمنياته . وأضاف قائلا :

– قل له أيها الشاب أنك قابلت أبا صباح ، شريكه السابق في اقتناء الخيول وتربيتها .

ثم أولانى بعد ذلك ظهره ومضى في طريقه ، وأنا أشيعه بنظري ، وقد أخذ أسم أبى صباح يرن في اذني . وظللت واقفا مكانى ، اصوب النظر نحوه حتى اختفى عن عينى فتحركت ورحت ابحث عن الأوتوبيس المتجه الى عمان

وشاهدت خلال الطريق من ماربا الى عمان ، السهول الواسعة المزروعة بالذرة والبطيخ . وكانت بعض حقول الذرة قد تم حصادها والبعض الآخر ما زال في دور الحصاد . والزراع من الجنسين يعملون هنا وهناك والنساء فوق رؤوسهن سلالا كبيرة مليئة بأكواز الذرة . وتذكرت أننا كنا ذات يوم نفعل مثل هذا تماما .. ولكن في زمن ولى كنا فيه نمتلك أرضا وحقولا .

وعندما وصلت الى عمان قصدت على الفور الى سيارة الأوتوبيس التي سوف تقلني الى حيث تقطن أسرتي ، وما أن تحركت السيارة ، حتى أسند الرجل الجالس بجانبي رأسه الى ظهر المقعد الذي أمامه واستغرق في نوم عميق . وهكذا وجدتنى وحيدا .. فرحت أفكر .. وعاد اسم أبى صباح يرن في أذني وأخذت الصور والذكريات تتوارد على مخيلتي .. وما لبثت ان برزت من بينها واحدة تتعلق بابى صباح واستطعت أن أتذكر قصة تدور حوله ، حدثت وقائعها منذ سنوات طويلة .. وقيلت أمامى وأنا في صباى أكثر من مرة .

كان ذلك ذات يوم في اوائل الخريف ، حيث يقوم عدد من الخيام فوق سهل فسيح ، قد حصدت حقول القمح فيه منذ وقت قريب ، وانتهى أصحاب تلك الخيام من مهمتهم الشاقة بعد ان ظلوا خلال فصل الصيف ، يحصدون ويدرسون قمحهم .

كان عليهم ان يستيقظوا مبكرين ، قبل الفجر ، ليبدأوا الحصاد ، ولا يخلدون الى الراحة الا ساعة واحدة يتناولون فيها افطارهم بعد شروق الشمس ، حيث يتجمع القائمون بالحصاد حول احدى الكومات الضخمة من عيدان القمح الذي لم يدرس بعد ليأكلوا معا وبجوارهم الاناء الكبير المحتوى على الماء . ويواصلون بعد ذلك عملهم الى ما بعد الظهر وعندما يحين ميعاد انصرافهم يعودون الى الخيام وهناك يتناولون وجبة العشاء الرئيسية ويستريحون ثم ينامون مبكرين حتى يستطيعوا مواصلة الحصاد في فجر اليوم التالى .

كان المحصول جيدا في ذلك العام والخير وفيرا ، وبالقرب من كومتين كبيرتين من القمح الذهبي اللون الذي تمت دراسته واصبح جاهزا للتعبئة وقف رجل متوسط العمر يحمل بين يديه مكيالا خشبيا اسطوانيا ، وهو يكيل به القمح من احدى الكومتين ، ويصبه بعد ذلك في زكيبة يمسك بها – وهى مفتوحة – طفلان صغيران أحدهما صبى يرتدى جلبابا ابيض والآخر بنت صغيرة .

وبالقرب منهم شاب في العشرين من عمره كان ينحى الزكائب التي تتم تعبئتها جانبا ثم يقوم بتسويتها وتنظيمها وكانت تبدو عليه معالم النشاط والصحة اذ أخذ يحرك الزكائب الثقيلة في يسر وسهولة . وعلى مبعدة قليلة منه كانت تقف امرأة متوسطة العمر وهى منهمكة في احكام اغلاق الزكائب بمسلة براقة وخيط من الدوبار .

وما بين الحين والآخر كان أحد الطفلين المسكين بحافة الزكيبة يتركها لزميله ليمسكها بمفرده ، ويجرى نحو حمل صغير او أكثر من الحملان التي تحاول الأقتراب من الكومة الذهبية الأخرى لتأكل منها ، فيطردها بعيدا . وعندما تكرر هذا الامر واصبح يؤثر على سير العمل . وضع الرجل مكياله على الأرض وهو ملء بالقمح ، وصاح مناديا :

– هدى : انت يا هدى :

واطلت من احدى الخيام القريبة فتاة شابة فقال لها الرجل :

ـ ابعثى بسالم ، ليتولى ابعاد هذه الحملان عن القمح . قولى له ان يأتى سريعا .

واختفت الفتاة داخل الخيمة وما لبث ان خرج طفل أصغر من الاخرين اللذين يتوليان أمر الزكيبة ، وهو يمسك طرف جلبابه بأسنانه واندفع جاريا نحو الحملان ويبدو انه كان متخصصا في تلك المهمة ، والحملان تعرفه وتخشى بأسه ، اذ انها ما كادت تراه حتى استولى عليها الذعر وولت بعيدا .

وعلى مبعدة قليلة من المكان كانت تقوم شجرة طويلة كبيرة وقفت تحتها فرس صغيرة سوداء ذات غرة بيضاء في جبينها ، وقد ربطت في حبل مشدود الى وتد وهى تأكل من مذود ملء بالشعير قد وضع أمامها .

كان الرجل المتوسط العمر هو أبو صباح ، والمرأة التي تقوم بغلق الزكائب بمسلتها هى زوجته والشاب ذو العشرين عاما هو ولده الأكبر أحمد ، والفتاة التي اطلت من الخيمة والاطفال الآخرون هم بقية أولاده .

وتمت تعبئة عدد كبير من الزكائب وغلقها ، ولكن الكومة ظلت كبيرة كما هى وكأن احدا لم يمسها . وجاء دور نقل الزكائب المعبأة . وأخذ الرجل وابنه يحملان معا كل زكيبة لنقلها الى مبنى صغير مجاور مكون من حجرتين وبعد ان نقلا أكثر من نصف الزكائب . بدأ التعب يظهر على الابن . وما لبث وهما يحملان احدى الزكائب ان أفلتت يده ، فسقطت الزكيبة منهما على الارض . ولم يغضب أبو صباح ، بل ابتسم وهو ينظر الى ابنه الذي احمر وجهه خجلا ، قائلا لزوجته التي كانت تتبعهما :

ـ انك لا تكفين منذ وقت عن مطالبتى بتزويج احمد ، الست ترين الآن أنه ما زال صغيرا ، ولم يكتمل عوده بعد والا ما اسقط الزكيبة ؟

فضحكت الزوجة قائلة :

ـ ولكنك عندما تزوجت كنت أصغر منه ، ثم لا تنس أنه لم يترك الدراسة الا منذ وقت قريب . وهم لم يكونوا في المدرسة يعلمونه حمل الزكائب

وبعد أن تم نقل كل الزكائب المعبأة الى مخزن الغلال جلست الاسرة بأكملها في الخيمة الرئيسية لتناول الطعام الذي كان قد تم اعداده بواسطة بنات ابى صباح الاخريات اللائي بلغن من السن حدا يجعلهن لا يغادرن الخيام ويفرغن لمثل هذه الأعمال المنزلية . وظل الطفل الاصغر سالم يترك

طعامه ويجرى نحو كومة القمح خارج الخيمة ليطرد عنها الحملان ثم يعود لمواصلة طعامه . وكان أكثر الحملان شقاوة واصرارا على الاكل من كومة القمح حمل صغير ذو وجه أسـود . فقال أبو صباح فجأة مخاطبا طفله الصغير :

دعه يا سالم : ما هي الا أيام .. حتى نذبحه في حفل زواج اخيك أحمد

وكان للمفاجأة وقعها بين افراد الأسرة ، وشاع السرور بين الأطفال الذين راحوا يتطلعون في فرح إلى وجه أخيهم الأكبر وسأل سالم واخته اباهما قائلين : ومتى سوف نبدأ الغناء والرقص يا أبي ؟

وأجاب أبوهما قائلا :

ـ عما قريب .. بعد ان نفرغ من أعمالنا مباشرة ونتهى من تعبئة القمح والمحاصيل الاخرى وتخزينها . ويكون اعمامكم وبقية أفراد القبيلة قد أنتهوا ايضا من اعمالهم التي لديهم .

والتفت الاب نحو احمد واردف قائلا :

ـ اليس كذلك يا أحمد ؟ العمل اولا ثم الزواج .. والا أدركنا المطر فأفسد كل شيء .

وقال الابن وقد تصاعد الدم الى وجهه :

ـ نعم يا أبي .. كما ترى .

كان احمد قد ترك مدرسته مؤخرا ، لكي يساعد اباه في زراعة أراضيه الواسعة وفي الأشراف على قطيعى الغنم والأبقار الكبيرين اللذين يملكهما ابو صباح . لقد كان لديهم حقا راع للغنم وآخر للبقر بالأجر ، كما كانوا في المناسبات يستأجرون ما يلزم من العمال . ولكن كل ذلك لا يمنع من ضرورة وجود الابن الشاب واشرافه بنفسه على كل كبيرة وصغيرة . وكأى شاب في تلك السن كان أحمد سعيدا بفكرة زواجه . ومع انه نظرا للمدة الطويلة التي امضاها في طفولته وصباه بالمدرسة لم يكن يستطيع ان ينافس الشبان الآخرين من القبيلة في ألعابهم . ولكنه يستطيع على اية حال ان يركب الخيل مثل ابن عمه سالم الذي كان يناهزه في العمر تقريبا .

ومن أجل هذا كان أبوه قد أحضر له تلك الفرس السوداء ذات الغرة البيضاء في جبينها . التي رايناها تحت الشجرة . وكانت تلك الفرس الصغيرة أبنة فرسنا الشهيرة المسماه بالكبيشة . ولم يكن أبو صباح قد اشتراها من

أبى . فليس من عادة الاسر المحترمة في قبائل البدو ان تبيع جيادها ، لا سيما الاناث منها . ولكنه أخذها دون مقابل في سبيل ان يعطى أبى أول وثاني أنتاج منها . وهى طريقة مألوفة لدى البدو اللذين يأنفون من بيع خيولهم . ولم يكن من حق أبى صباح أن يبيعها أو يتصرف فيها أو يستخدمها في أى عمل من الأعمال . أو يهملها والا اساء ذلك الى سمعته ونال من كرامته . وتعلق احمد بمهرته الصغيرة وأحبها وأصر على تسميتها « كبيشة » ولكن اباه كان كثير التأنيب له لانه كان يدللها ، وقد بدأ في تلك السنة بعد ان بلغت من العمر ثلاثة أعوام تدريبها وركوبها ، وكان في الأيام التي لا عمل فيها لديه ، يخرج بها ويظل بعيدا طوال اليوم فلا يعود الا مع غروب الشمس ، أملا منه في ان يشترك بها في السباق في حفل عرسه . غير أن أباه لم يكن يشاطره هذا الرأي مؤكدا له ان الفرس لم تزل بعد صغيرة .

واقترب يوم العرس ، وسادت الفرحة جو الأسرة وعم السرور سائر أفراد القبيلة فلسوف يكون هذا الزفاف نظرا لمنزلة أبى صباح ، وجاهه ونفوذه ، يوما مشهودا وبدأت حفلات الرقص والغناء قبل يوم العرس بشهر تماما وكانت تقام ليلا حتى يتمكن رعاة القبيلة من حضورها ولا يفوتهم شيء منها . فلو أنها أقيمت نهارا لما رأوا شيئا لانهم يكونون وقتذاك بعيدا مع حيواناتهم فيما وراء التلال والوديان . وفي الليلة الأولى لم يحضر سوى عدد قليل من الأطفال والشبان ، وفي الليلة الثانية ازداد العدد قليلا ، ثم أخذ العدد بعد ذلك يزداد تدريجيا في كل ليلة ، كما بدأت الجموع تفد أيضا من القبائل الأخرى بعد ان سمعوا الأنباء من الرعاة . واندمج افراد اسرة أبى صباح جميعا في مظاهر الطرب والسرور ، فيما عدا الأبن الثاني وهو الأصغر مباشرة من أحمد ، الذي يتعلم في احدى المدارس ، فقد أخذ في أول الأمر ينظر من بعيد الى الرقص والغناء وغيرهما من مظاهر الفرح دون ان يشترك فيها . كان يستقبل الضيوف من أصدقائه وتلاميذ مدرسته وينتحون جانبا مكتفين بمشاهدة ما يجري والتعليق عليه ، ولكنهم ما لبثوا بعد بضع ليال ان اندمجوا مع غيرهم في الرقص والغناء ، وساعد على ذلك ان العريس زميل سابق لهم في الدراسة .

وبلغ عدد الحاضرين ذروته في الليلتين الأخيرتين ، وكان أحمد يشاهد هنا وهناك وقد غمرته السعادة ، ولكنه لم يكن يرقص او يغني لكثرة مشغولياته ، وعندما ألح عليه أصدقاؤه رضخ اخيرا وبرهن على انه راقص

بارع رغم حداثة عهده بالرقص واشترك ابو صباح بنفسه في الليالى الثلاث الأخيرة في الغناء .

وحل اليوم الذي أحضروا فيه العروس من قبيلة أسرتها . وكان الموكب يصحبه جمع غفير من الناس ، وقد سارت النساء على اقدامهن . اما الرجال فقد كان معظمهم ممتطين صهوات جيادهم . أما العروس فقد كانت تجلس في هودج فوق ظهر جمل أبيض أصيل مزين بالزهور والرياحين ، والى كل جانب من جانبيها كانت تجلس فتاة جميلة من صديقاتها . وكان أحمد يسير بين الجمع راكبا فرسه الصغيرة السوداء يحف به عدد كبير من الفرسان . بينما أخذ أبوه وقد امتطى صهوة جواده الأبيض يركض به هنا وهناك طوال الطريق . وعندما وصلوا الى خيام أبى صباح ، وقادوا العروس الى خيمتها التي كانت منعزلة قليلا عن باقي الخيام . بدأ السباق .

وكان هناك فرسان من كل القبائل المجاورة . فاليوم نظرا لأهمية الحفل ومكانته كان يوما مشهودا من أيام السباق ، ترتفع فيه بعض الجياد الى القمة ، وينخفض البعض الى الحضيض . وبينما أخذت النسوة في الرقص والغناء .. وبينما الفرسان يستعدون ويجرون هنا وهناك . ظل الناس يفدون من القبائل الأخرى وهم يقدمون فور وصولهم الحملان كهدايا ، وكان بعضها يذبح في الحال استعدادا لتقديم لحومها للجميع في وليمة العشاء التي ستقام بعد السباق . كما اخذت النساء يهدين العروس بعض الهدايا ومن بينها حلى ذهبية من خواتم وقلادات .

واصطف الفرسان من شتى القبائل عند خط البداية استعدادا للحظة الحاسمة . وذهب أحمد الى أبيه في الخيمة الكبيرة الخاصة بالزائرين ، التي أقيمت خصيصا لهذه المناسبة ، وسأله وهو جالس بين ضيوفه أن يأذن له بالاشتراك مع المتسابقين وكان أبو صباح يعلم جيدا ان الفرس ما زالت صغيرة وانها لن تستطيع منافسة الخيول الشهيرة الآتية من كل مكان ، ولكن قلبه لم يطاوعه ان يرفض لابنه في يوم زفافه طلبا .

وجاءت اللحظة ، وصاح بعضهم « انطلقوا » : فانطلقت الجياد تتسابق في سرعة الريح وسط تغاريد النساء وصاح الشبان والأطفال . وكانت المسافة طويلة بما فيه الكفاية حتى تصبح النتائج سليمة وواضحة ، وفي آخر تلك المسافة كانت تقوم شجرة باسقة ، قد اتفق على ان يكر الفرسان عائدين بعد

ان يصلوا اليها فمن يصل في العودة قبل غيره يكون هو الفائز

ووقف الجميع على أقدامهم واشرأبت الأعناق لرؤية المتقدم من الفرسان ولكنهم كانوا في اول الأمر جميعا متقاربين فأصبح من المتعذر تمييز أكثرهم تقدما وما لبث ان شوهد أحمد يبرز من بين الجميع تاركا بقية المتسابقين خلفه وقد أصبح أقربهم جميعا الى الشجرة .

وكان أبو صباح واقفا على قدميه وهو يتابع السباق كالأخرين باهتمام شديد حتى أنه لم يشعر بولده الأصغر عندما رفع وجهه نحو وهو يقول بأنفعل شديد :

— أبى .. أبى : انها فرسنا هى التي ستفوز .. لقد اصبحت في المقدمة وبينها وبين الخيول الأخرى مسافة طويلة .. ان احمد هو الفائز .. انظر يا أبى .. انظر :

ورأى الجميع الفرس الصغيرة السوداء وهى تصل قبل غيرها الى الشجرة .. ولكنها عندما تحولت لتعود .. وقعت الواقعة

لقد القت أثناء تحولها بأحمد على الأرض :

وخيم الصمت لحظة على الجميع ولكن الرجال ما لبثوا ان اندفعوا وهم يعدون نحو الشاب الملقى على الأرض .

وما كاد أحمد يسقط من فوق ظهر « الكبيشة » حتى وقفت هذه في الحال كما هى عادة الجياد العربية الأصيلة ، وتقدمت منه حتى أصبحت بجانبه حتى لا تدوسه الجياد الأخرى بحوافرها .

ومرت الجياد العائدة من حوله دون أن يطأه أحدها لأن الفرس السوداء كانت واقفة بحذائه لكى تحميه .. وهى لا تعرف أن صاحبها .. قد مات :

وفي صباح اليوم التالى ، وكان نبأ المأساة قد وصل الى قبيلتنا . أمتطى أبى صهوة فرسنا « الكبيشة » الكبيرة وأم تلك التي قتلت احمد ، وذهب لتعزية أبى صباح وتشييع جنازة أبنه . وفي المساء عاد أبى مع من ذهبوا معه من رجال قبيلتنا وكانت الفرس الصغيرة القاتلة ، تسير بجوارهم دون أن يقودها أحد .. أو يمتطى ظهرها أحد .

لست أذكر شيئا من تلك الاحداث لانني كنت وقتذاك في طفولتي المبكرة ولكن عمتي التي روت على القصة فيما بعد اكثر من مرة قالت لي ان الكبيشة الصغيرة قد اصبحت بعد ذلك مكروهة من الجميع . ولم يعد أحد يركبها ، أو حتى يقدم لها الطعام . فيما عدا ابى الذي أخذ يمنحها رعاية خاصة ، ويقدم الطعام لها بنفسه ، رافضا أي شعور بالتشاؤم منها . وبعد ايام الفت الكبيشة الصغيرة مكانها الجديد . واعتادت على ابى الذي نصحه الكثيرون بأن يتخلص منها ببيعها ، ولكنه لم يلق بالا الى نصحهم . وقد شجعه على ذلك جدى الحاج ابراهيم ، وكانا يرددان دائما قولهما

ـ ان ما حدث ، حدث بارادة الله . اما هذه الدابة فانها بريئة ولا شأن لها بما جرى

ـ ومرت فترة الحداد ، ومدتها أربعون يوما .

وكان الوقت ذات يوم قبل الغروب بساعتين والسماء ترسل رذاذا خفيفا ، وعندما غادر فارسان مضارب خيامنا عائدين بعد زيارتنا الى قبيلتهم

كان أحدهما وهو رجل متوسط العمر يمتطى جوادا أبيض أما الآخر وهو فتى صغير فانه كان يمتطى ظهر الكبيشة السوداء الصغيرة .

لقد عاد الأب المفجوع واستعاد الفرس السوداء ذات الغرة البيضاء في جبينها وكان يركبها ابنه الأكبر .

ومع أنه أبنه الأكبر .. الا أنه لم يكن أول من أنجب من أبناء :

الفهرس